© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

رئيس التحرير: يحيى يخلف

مدير التحرير: غسان زقطان

مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٢٨» شتاء ٢٠٢٢

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **منظمة التحرير..البيت الوطني للفلسطينيين**

ملف منظمة التحرير الفلسطينية

المخاض، الميلاد، التأسيس والأصداء

١٣ **مخاض خمسة أعوام، الشقيري ما قبل تأسيس م.ت.ف**
محمد حسن

٢٣ **ميلاد المنظمة**
رضوى عبد القادر

٣١ **الاقتصاد السياسي لظهور المنظمة**
عبد القادر ياسين

٤١ **الأصداء الفلسطينية لقيام المنظمة**
أميرة محمود

٥١ **الأصداء الإقليمية**
نظيمة سعد الدين

٦١ **الأصداء في «المعسكر الاشتراكي»**
محمد بدر الدين

٧١ **تجربة مركز التخطيط الفلسطيني من مهدها**
أ.حسام أبو النصر

أوراق فلسطينية

٩٧ **المقاومة الشعبية الفلسطينية أرض مقدسة بدماء شعب لا يفنى**
شذى يحيى

١١١ **بيتا، نموذج متجدد من المقاومة الشعبية**
عبد الغني سلامة

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٢٥ **تطبيع بدون تسوية العلاقات الإسرائيلية العربية تبلغ السقف الزجاجي**
د.محمد حسني

أوراق ثقافية

١٤٣ **تأصيل الرواية الفلسطينية في مواجهة الآخر**
يحيى يخلف

١٤٧ **علي اسحق سيرة وقصتان**

١٥٧ **مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية.. عوْدٌ مصري إلى العمق**
سعد القرش

١٦٧ **"الطلياني" للكاتب والروائي التونسيّ شكري المبخوت الاكتفاء بالحُلمِ .. وبلاغة الجملة الأخيرة**
عِذاب الركابيّ

١٧٣ **عبد الكريم السبعاوي في رباعيته "أرض كنعان": يوظف الفن الروائي المتقن في أربع روايات واقعية-تأريخية**
عزيز العصا

١٨١ **مسرحية «لغم أرضي» للمخرج الفلسطيني جورج إبراهيم: دعوة لعيش الحياة قبل فواتها**
تحسين يقين

١٨٧ **فصل من رواية «ساعات الأسر»**
محمود الورداني

أوراق المؤسسة

١٩٢ **فعاليات متنوعة ومشاركة واسعة في إحياء الذكرى السابعة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس في فلسطين والخارج**

منظمة التحرير.. البيت الوطني للفلسطينيين

بعد النكبة وجد الشعب الفلسطيني نفسه في الضفة الغربية وقطاع غزة،وفي مواقع الشتات بدون قيادة، وبدون مرجعية ، وبطوابير لاجئين مرجعيتهم منظمة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا).

بينما ضمت الضفة الغربية الى النظام الأردني، وقطاع غزّة تحت الإدارة العسكرية المصرية.

وفشلت محاولات الحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا انطلاقا من غزّة في تشكيل حكومة عموم فلسطين برئاسة أحمد حلمي باشا،وألحق قطاع غزة تحت الإدارة العسكرية المصرية.

وفي غياب مرجعية فلسطينية معترف بها، وجد الشباب الفلسطيني نفسه أمام أحزاب قومية أو اسلامية، أو يسارية.

فالأحزاب القومية رفعت شعار : الوحدة العربية هي الطريق لتحرير فلسطين, والأحزاب الاسلامية رفعت شعار قيام الخلافة، والأحزاب اليسارية رفعت شعار قيام الاشتراكية وسلطة البروليتاريا، سلطة العمال الأممية، ومن أجل قيامها لابد من النضال ضد الرأسمالية في هذا العالم.

لم يكن هناك حركة وطنية فلسطينية، وغابت القوى الفلسطينية المنظمّة، لكن مع مرور السنين بدأ حراك نشط من قبل شباب طليعيين من أجل إعادة الاعتبار إلى الوطنية الفلسطينية، مستلهمين كفاح حركات التحرير في آسيا وأفريقيا،وأميركا اللاتينية، ومستلهمين التجربة الجزائرية وثورتها المسلحة.

وكانت النوّيات الأولى قد ولدت في دول الخليج، إذ انفتح الباب للكفاءات الفلسطينية من الجامعيين للعمل فيها.

وفي دولة الكويت،ابتداء من عام ١٩٥٨ بدأت تنضج الفكرة، فكرة الكفاح المسلح لتحرير فلسطين، وبدأت تتبلور الفكرة، وتأسست حركة فتح من قامات عالية، من أسماء أسميناها،قامات جيل العمالقة،ومنهم : ياسر عرفات، أبو جهاد، أبو إياد، أبو اللطف، أبو مازن، أبو الأديب، خالد الحسن، وعادل عبد الكريم، وأسماء أخرى .

وبعد سبعة عشر عاما على زلزال النكبة، انطلقت حركة فتح مطلع عام ١٩٦٥ رافعة شعار: حرب التحرير الشعبية طويلة الأمد هي الطريق الوحيد لتحرير فلسطين .

في تلك الأيام كان هناك حراك داخل الجامعة العربية من أجل تشكيل إطار يمثّل فلسطين، وفي مؤتمر القمّة الذي دعا له جمال عبدالناصر عام ١٩٦٤ كلّف ممثل فلسطين في الجامعة العربية أحمد الشقيري بالتواصل مع ابناء الشعب الفلسطيني من أجل إطار يجمعون عليه، وقام الشقيري بهذه المهمة، وأسس مجلسا وطنيا عقد في القدس من ٢٨ مايو/أيار الى ٢ يونيو/حزيران، أسفر عنه الاعلان عن تشكيل منظمة التحرير، ولجنتها التنفيذية وانتخب الشقيري رئيسا لها، كما صادق على ميثاق قومي، وعلى تشكيل صندوق قومي،وجيش التحرير، ووافق مؤتمر القمة العربي التالي (٥ أيلول /سبتمبر١٩٦٤) على تأسيس المنظمة وكان ذلك تأسيس إطار للفلسطينيين تحت ظلال الانظمة العربية، خصوصا في الناحية العسكرية.

في الفاتح من يناير من عام ١٩٦٥ اطلقت حركة فتح العملية العسكرية.

بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ كانت الانطلاقة الثانية لحركة فتح من داخل الأرض المحتلة، تلتها معركة الكرامة في ٢١ آذار ١٩٦٨ التي هزمت فيها الفوات الاسرائيلية، وتصدت لها القوات الفدائية والجيش الأردني، وكانت اول انتصار عربي بعد هزيمة حزيران.

شكّلت معركة الكرامة رافعة للمعنويات في العالم العربي، وأقبل المتطوعون الفلسطينيون والعرب للانخراط في العمل الفدائي، واتسعت انجازات الكفاح المسلح داخل الأرض المحتلة، واحتضنت مصر عبد الناصر المقاومة، واستقبل عبد الناصرياسر عرفات ولجنة فتح المركزية، وصرّح أن المقاومة الفلسطينية وجدت لتبقى.

في الثالث من فبراير عام ١٩٦٩ تولى ياسرعرفات رئاسة اللجنة التنفيذية للمنظمة وكان ذلك بدخول فتح وفصائل الكفاح المسلح لأول مرة أطر منظمة التحرير.

وفي زمن قيادة ياسر عرفات كان الزمن الذهبي للكفاح المسلح والعمل العسكري، وكانت انجازات سياسية حيث كان العمل العسكري يزرع،والسياسة تحصد.

وفي زمن عرفات ورفاقه وكوادره تحقق الكثير من الانجازات،منها الاعتراف بمنظمة التحرير ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني،ودخولها كمراقب في منظمة الأمم المتحدة، وكعضوكامل العضوية في منظمة اليونسكو،واعتراف بها على الصعيد الدولي، وإعلان الاستقلال في الجزائر، وعودته مع رفاقه وكوادره إلى أرض الوطن، واطلاقه الانتفاضه الثانية، وصموده في حصاره في المقاطعة.

تاريخ حافل بالانجازات، ويتعيّن أن نوثقة ونسجلّه ونحتفي به.

في هذا العدد من المجلة سنبدأ في تقديم دراسات حول منظمة التحرير، من مرحلة التأسيس، مرحلة القائد الوطني أحمد الشقيري، الى تأسيس المجلس الوطني وسائر مؤسسات المنظمة (لجنة تنفيذية، صندوق قومي، جيش التحرير، مركز الابحاث، مركز التخطيط، علاقاتها العربية، علاقاتها الدولية، مرحلة رئاسة ياسر عرفات، ومرحلة رئاسة أبو مازن ...الخ)

وفي هذا العدد قدمنا دراسات أولى، وسنواصل في الأعداد القادمة تقديم دراسات أخرى تغطى كل المراحل التاريخية للمسيرة النضالية.

منظمة التحرير هي الممثل للشعب الفلسطيني في أماكن تواجده كافة، بما في ذلك قواه وتنظيماته كافة.وهي الوطن المعنوي الذي سيقودنا الى احقاق حقوقنا في العودة وتقرير المصير وقيام الدولة المستقلة وعاصمتها القدس

هيئة التحرير

ملف منظمة التحرير:
المخاض، الميلاد، التأسيس والأصداء

مخاض خمسة أعوام
الشقيري ما قبل تأسيس م.ت.ف

محمد حسن

المكان: لبنان، ما بين العاصمة بيروت، وبلدة كيفونَ؛

الزمان:أحد أيام صيف ١٩٦٣.

صعد سفير مصر في لبنان، اللواء عبد الحميد غالب،من بيروت، بحرِّها القائظ، ورطوبتها الخانقة، إلى بلدة كيفون،بهوائها العليل،ومصيفها المعروف. وكأن غالب، كان يصعد بالقضية الفلسطينية، دون أن يدري. ولكن لهذه الواقعة جذورًا عميقة، ضربت في الأرض.

مشوار الشقيري

بدأ أحمد الشقيري تعاونه مع جامعة الدول العربية، من خلال موسى العلمي، وعاشا معًا مرحلة التأسيس، ثم سافر الشقيري إلى واشنطن،سنة ١٩٤٥، لتأسيس فرع «المكتب العربي»، الذي ترأسه العلمي. واستمر الشقيري،منذ عودته من واشنطن،في العام نفسه،وحتى النكبة ١٩٤٨، متعاونًا مع الجامعة، بإعداد المذكرات، وحضور المؤتمرات، إلى أن أصدر مجلس الجامعة قرارًا بتعيين الشقيري، أمينًا عامًا مساعدًا لعبد الرحمن عزام باشا (١٩٥١/٢/٢). يقول الشقيري: « وكانت الجامعة تحاول، منذ زمن، أن تختار مساعدًا للسيد عزام، يشرف

على تنظيم دوائر الجامعة، وخاصة السياسية؛ ولكن عزام لم يكن يرغب أن (يشاركه) أحد في الجامعة، على أن اختياري – أي الشقيري – كان فيه إرضاء للسيد عزام، وللحكومات العربية معًا، باعتباري [الشقيري]، فلسطينيًا، ولأني للأمة العربية، لا لدولة واحدة بالذات، غير أن سوريا اشترطت، غداة تعييني، أن أعمل في الوفد السوري في الأمم المتحدة،على سبيل الإعارة «. وهكذا كان، فقد غدا الشقيري مساعدًا للأمين العام في الجامعة العربية بالقاهرة، وممثلًا لسوريا في الأمم المتحدة، في الوقت نفسه، أثناء انعقاد دورتها. وقد استمر هذا الترتيب، حتى العام ١٩٥٧، حينما وافق الرئيس السوري، شكري القوتلي، على إعارة الشقيري إلى المملكة العربية السعودية، حيث عُيِّن سفيرًا دائمًا للسعودية في الأمم المتحدة. وقد كان الشقيري،خلال وجوده في الأمم المتحدة، خير محام عن القضية الفلسطينية، وعن قضايا العرب الأخرى، ولا سيما قضايا المغرب العربي. إلى أن جاءت مشكلة اليمن، العام ١٩٦٢، فكانت مغامرة الشقيري الأخيرة،وفصله من عمله، أو طرده من منصبه، خريف العام التالي، وعُيِّن في جامعة الدول العربية، كمندوب لفلسطين، بعد أن شغر المنصب، بوفاة رئيس حكومة عموم فلسطين، أحمد حلمي عبد الباقي باشا، صيف ١٩٦٣،فكان طبيعيًا أن يقع اختيار الجامعة على الشقيري، ليقوم بالاستشارات، بهدف إنشاء كيان فلسطيني. (١)

نعود إلى اللواء عبد الحميد غالب، الذي وصلت سيارته إلى قصر منيف، في كيفون، حيث يقيم فيه الدبلوماسي البارع، والخطيب المفوَّه، العربي الفلسطيني، الشقيري، الذي استقبل ضيفه على باب القصر، ثم دلفا إلى الداخل، وبعد المجاملات التقليدية، أبلغ السفير المصري مضيفه بأن الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، يعرض على الشقيري تولي موقع مندوب فلسطين في جامعة الدول العربية. المفاجأة كانت في قبول الشقيري هذا العرض،على الرغم من علمه بأن هذا الموقع لم يحظ بأي حيثية، ما يجعلنا نرجح بأن غالب قد كشف للشقيري بأن موقع المندوب ذاك، ليس إلا قنطرة لما بعدها، ما جعل الشقيري يقبل ذاك العرض المت واضع.

يحكي الشقيري نفسه:»أضمرت في نفسي العزم على الاستقالة، إذا وجدت الأمر مظهرًا لا

جوهرًا،ونهضت في الصباح على أجراس التليفون من الإخوان الفلسطينيين من القدس، وعمان، وبيروت، يناشدونني القبول...وفي اليوم ذاته، جاءني وفد من اللاجئين من مخيم شاتيلا، في بيروت،ليعربوا عن سرورهم بتعييني لهذه(الوظيفة)، ولم أكتم عن الوفد ترددي، وحيرتي، فإذا برئيس الوفد، وهو شيخ كبير، أخذ يشهق بالبكاء، وهو يصيح في وجهي: (يا حاج أحمد! أحلفك بالنبي، الذي زرته، أن لا ترفض، نحن نريد منك أن تبني الكيان الفلسطيني). لقد كان كلام هذا(الشيخ)هو الذي ثبتني على القبول، وقد أقنعتني دموعه، أكثر مما أقنعني وعد الرئيس عبد الناصر، ومعه الحكومات العربية مجتمعة...وسافرت إلى القاهرة، وفي صبيحة اليوم التالي، زرت الأمين العام للجامعة، السيد عبد الخالق حسونة، في مكتبه، الذي أكد لي رؤية الدول العربية أن تسند إليَّ منصب تمثيل فلسطين في الجامعة، باستثناء المملكة الأردنية الهاشمية، والمملكة العربية السعودية، وكدت أن أعتذر، ولكن ترجَّح عندي القبول، في النهاية؛ وبالفعل، عند انعقاد مجلس الجامعة(٩/١٩)،سجل وفدا المملكتين عدم موافقتهما على الترشيح؛ فالملك فيصل، بسبب إنهاء خدمتي،بالأمس،من المملكة؛ أما الملك حسين، فقد كنت، قبل ثلاثة أعوام، قد ألغيت موعدي معه،في نيويورك، بسبب خطابه في الأمم المتحدة؛ أما موقف الوفد العراقي، برئاسة الدكتور ناصر العاني، فلم أفهمه،يومئذ...وفُتحت الأبواب للصحافيين، والمصورين، بعد الجلسة السرية، وتلا الأمين العام للجامعة القرار،رقم ١٩٣٣،باختيار(السيد أحمد الشقيري مندوبًا لفلسطين لدى مجلس جامعة الدول العربية، وذلك طبقًا لملحق ميثاق الجامعة الخاص بفلسطين، وإلى أن يتمكن الشعب الفلسطيني من اختيار ممثليه)».(٢) ودعا القرار الشقيري لزيارة الدول العربية، من أجل «بحث القضية الفلسطينية، من جميع جوانبها، والوسائل التي تؤدي إلى رفعها إلى ميدان الحركة،والنشاط». وجاء في القرار، كذلك:(٣)

التأكيد على أن الشعب الفلسطيني هو صاحب الحق الشرعي في فلسطين، وأن من حقه أن يسترد وطنه، ويقرر مصيره، ويمارس حقوقه الوطنية الكاملة؛

التأكيد على أن الوقت قد حان ليتولى أهل فلسطين أمر قضيتهم، وأن من واجب الدول

العربية أن تتيح لهم الفرصة، لممارسة هذا الحق؛

تأييد اللجنة للمبادئ العامة التي تضمنتها المذكرة العراقية، وتوصي بإحالتها،مع جميع المقترحات، والمذكرات المقدمة، منذ العام١٩٥٩، من الدول العربية، وأهل فلسطين، إلى حكومات الدول الأعضاء، لاستيفاء درسها بشمول، تمهيدًا لبحثها في اجتماع خاص، تعقده اللجنة السياسية،على مستوى وزراء الخارجية، في شهر شباط/فبراير١٩٦٤.

أصر الأردن على استبدال عبارة «الشعب الفلسطيني « بـ «الشعب العربي في فلسطين «، في حين دافع الشقيري عن الكيان الفلسطيني،في أول خطاب له بالجامعة، بقوله؛ «إن أهل فلسطين قد أصبحوا قوة كاملة في الحقل العربي، منذ خمسة عشر عامًا، والكيان الفلسطيني يهدف إلى أن يصبح أهل فلسطين قوة وطنية عاملة، تسهم في تحرير فلسطين. إن الكيان الفلسطيني يريد أن يمكّن القادرين على حمل السلاح من أبناء فلسطين، أن يحملوا السلاح لتحرير فلسطين». (٤) على الرغم من أن الشقيري ركز في كلامه،أمام مجلس الجامعة، على أن الهدف من الكيان الفلسطيني هو حمل السلاح،وتحرير فلسطين، فإن الدول العربية لم تفكر هذا التفكير، بل إن عبد الناصر، الذي وقف أكثر من غيره وراء إقامة الكيان، لم يهدف إلى ما هدف إليه الشقيري، إذ أوضح أن «الغرض من إنشاء كيان فلسطين هو مواجهة نشاط إسرائيل، لتصفية المشكلة الفلسطينية، و إضاعة حقوق الشعب الفلسطيني «. (٥)

جولة عربية

اتخذت الجامعة العربية، منذ إنشائها و حتى العام ١٩٦٣، خمسمائة و تسعة وثمانين قرارًا، يتعلق بفلسطين، دون أن تنفَّذ معظم تلك القرارات! وكاد القرار الذي اتخذه مجلس الجامعة،بخصوص جولة الشقيري في العواصم العربية؛ للقيام بالاستشارات مع ممثلي الشعب الفلسطيني، و الحكومات العربية،أن يصبح واحدًا من القرارات غير المنفَّذة، إلا أن الفضل الأكبر يعود للشقيري، الذي بادر بتنفيذ القرار من جهة،وإلى التسهيلات التي قدمتها له الحكومة المصرية من جهة أخرى. في هذا المجال، يعترف الشقيري بأنه استرضى

«الحكومات العربية في اختيار الوفد الفلسطيني»، الذي يشكله، لاحقًا. ويضيف، قائلاً:»كان استرضاء الحكومات العربية أمراً لا مفر منه، في تلك المرحلة «.وبعد جولة في العواصم العربية، زار الشقيري خلالها عمان، ودمشق، وبيروت، وقطاع غزة، والقاهرة، قام بتأليف وفد فلسطيني،من ثمانية عشر شخصًا، لحضور دورة الأمم المتحدة، للعام ١٩٦٣.(٦)

رحبت بعض الدول العربية بالشقيري، ترحيبًا كبيرًا، ومنعته بعضها، حتى من مجرد الدخول للاجتماع بالفلسطينيين على أرضها، ووضع البعض الآخر عراقيل، لكن الشقيري ذللها، وأما العقبات التي احتاجت إلى لقاءات طويلة، و حوارات، تكاد لا تنتهي،فكانت تلك مع الفلسطينيين أنفسهم، ذلك أن التنظيمات،و الجبهات، المسلحة والسرية، بشكل عام، لم تكن لتؤيد قيام كيان، بقرار الجامعة العربية،خوفًا من أن ينتهي هذا الكيان إلى مصير يشبه « حكومة عموم فلسطين «، و»الهيئة العربية العليا»، مجرد كيان بلا مضمون، بالإضافة إلى عدم وضوح الرؤية،بعد، بشأن طبيعة هذا الكيان،و مستقبله، لدى معظمها، و لدى معظم أبناء الشعب الفلسطيني، بطبيعة الحال (٧).

يقول الشقيري إنه تحاور مع مختلف العقائديين، مع البعثيين؛ والقوميين العرب، والشيوعيين *؛ والإخوان المسلمين؛ وجبهات فلسطينية متعددة، ومنظمات أخرى، و وصف ذلك، بقوله: « وكان موقف هذه المنظمات يتراوح من المعارضة العنيدة، إلى (راقب و انتظر)،فقد كان البعثيون يرون الكيان الفلسطيني ألعوبة بيد عبد الناصر، وكان موقف جماعة (فتح) موقف المراقبة؛ والشيوعيون لا يهضمون (تحرير فلسطين)، ويخاطبوني – أي الشقيري – وألسنتهم ثابتة في حلق موسكو، منطقًا، و جدلًا،وفلسفة؛ الإخوان المسلمون لا يؤمنون بأية حركة يساهم فيها الرئيس جمال عبد الناصر، من قريب أو بعيد؛ والقوميون العرب يتحدثون من خلال القومية العربية، ولا يؤمنون بتجسيد الشخصية الفلسطينية، و أما الجبهات و المنظمات الأخرى، فتسخر من كل عمل يتصل بالجامعة العربية، بصورة أو

*ينفي عبد القادر ياسين – أحد نشطاء الشيوعيين الفلسطينيين، حينذاك – أن يكون الشقيري حاور الشيوعيين، حتى أنه لم يختر أيًا منهم في المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول! واستمر هذا

الوضع، إلى ما بعد خروج المقاومة من الأردن صيف ١٩٧١.

بأخرى». ولم يتمكن الشقيري من إقناع الجميع، و استمر الهجوم على الكيان الفلسطيني، الذي لم يولد، بعد، تحت شعارات: « كيان غير ثوري؛ صنيعة الجامعة العربية؛ الكيان لا يُبنى من فوق، بل من تحت؛ الكيان الفلسطيني لا يفرضه الملوك و الرؤساء؛ فهو يجب أن ينبع من إرادة الشعب؛ إن الذي يريد أن يبني الكيان الفلسطيني؛يجب أن يقيم في مخيمات اللاجئين،لا في فندق سان جورج في بيروت». وعلى النقيض من هذه المواقف الحزبية المتشنجة، كانت المواقف الشعبية، فالاستقبال الشعبي الذي لاقاه الشقيري في قطاع غزة، أنساه تهجمات الآخرين، وكان صراخ الجماهير في غزة: « يا شقيري بدنا سلاح «، و تجاوب الشقيري، وتعاون معه الحاكم العسكري المصري لقطاع غزة، آنذاك، الفريق يوسف العجرودي، فعملا معًا على إنشاء أول معسكر للتدريب، في مخيم النصيرات، وتلك مأثرته الثانية، وهي إقامة معسكر للتدريب، حتى قبل أن توافق الدول العربية على الكيان الأم أولًا؛ أما مأثرته الأولى، فهي إنشاء الكيان (الدستور أولًا، وإنشاء المؤسسات ثانيًا؛ والتحرير ثالثًا)، بينما نبعت مأثرته الثالثة من الأولى، من قاعدة القوانين أولًا، فالصندوق القومي كانت له مكانته الأولى، قانونًا، لكن الأهم هو تعامل الشقيري نفسه مع هذا الصندوق القومي «، حتى قبل أن يولد ويتأسس – فكلمة « الشفافية» يمكن إطلاقها، دون تحفظ، على القواعد المالية التي اتبعها، وعلى تصرفه إزاء المال العام، و حرصه على التصريح بالمال. (٨).

أنهى الشقيري رحلاته، ولقاءاته؛ ومما لا ريب فيه أن موهبته الخطابية الخارقة؛ وثقافته الواسعة؛ وفلسطينيته، التي لا حدود لها؛ و عروبته، التي لا تُبارى، كل هذه الصفات، التي يندر اجتماعها في شخص واحد، كانت لها المكانة الكبرى في إلهاب مشاعر الناس، وفي التفافهم من حوله. (٩)

فاجأ عبد الناصر الجميع بخطابه في بورسعيد، في الذكرى السابعة لـ»عيد النصر» (١٩٦٣/١٢/٢٣)، حيث تعالى الرئيس المصري على جراحه، بسبب انفصال سوريا عن مصر، خريف ١٩٦١، واستعار الحرب الإعلامية بين مصر وسوريا، فضلاًعن،الحرب الشرسة بالبنادق،

والمدافع، والطائرات، التي اندلعت في اليمن *، بعد الثورة الوطنية فيها، والأخيرة فصلها عن الانفصال نحو عام كامل.(١٠)

*معروف أن الحرب الأخيرة قد دخلت فيها عدة جيوش عربية، في مواجهة مسلحة، مقابل جيش الثورة اليمنية، والجيش المصري.

القمة العربية الأولى

تَمثلت المفاجأة المصرية في الخطاب، بدعوة عبد الناصر الملوك والرؤساء العرب، لعقد قمة عربية، في القاهرة، لمواجهة مشروع إسرائيل لتحويل مجرى نهر الأردن، واستجاب الحكام العرب لدعوة الرئيس المصري، وانعقدت القمة العربية الأولى، في القاهرة، بعد ثلاثة أسابيع من الدعوة المصرية.رحبت الدول العربية بالدعوة المصرية- وإن بشكل متفاوت- متجاوزة بذلك العلاقات السيئة بين بعض الزعماء العرب، خاصة بين عبد الناصر، وكل من الزعماء السعوديين،والقادة البعثيين. وعندما انعقد مؤتمر القمة العربي الأول، في الفترة من١٣-١٩٦٤/١/١٧، ناقش الملوك والرؤساء عدة قضايا، أهمها: تصفية الأجواء بين الزعماء العرب؛ وتحويل مجرى نهر الأردن؛ والقضية الفلسطينية، وبالذات الكيان الفلسطيني. ووافق الزعماء العرب، لأول مرة، على إنشاء الكيان الفلسطيني، مع العلم بأن الأطراف المهمة في المؤتمر لم تكن متفقة، في البداية، على قيام هذا الكيان؛ فقد رفض الملك حسين أن يشير البيان الختامي للقمة إلى الكيان الفلسطيني، غير أن الشقيري سارع إلى إلقاء خطاب أمام الملوك والرؤساء العرب، وجه فيه حديثه للعاهل الأردني، قائلًا: «أريد أن يكون واضحًا، أن الكيان الفلسطيني ليس حكومة، ولا يمارس سيادة، ولا يهدف إلى سلخ الضفة الغربية عن الكيان الأردني. وإنما هو تنظيم للشعب الفلسطيني، يتعاون مع جميع الدول العربية». ومن جهة أخرى، طلب الملك سعود، ملك العربية السعودية، تشكيل حكومة لفلسطين. أما سوريا، فقد رأت أنه لا فائدة للكيان من دون الأرض، ولهذا طلبت إعطاء الضفة العربية وقطاع غزة للكيان، ما أثار الحكم الأردني. كما أن بعض الدول العربية، كتونس،والجزائر،

أشار إلى ضرورة إنشاء جبهة تحرير وطنية متحدة. ولأن الدول العربية لم تكن متفقة على طبيعة الكيان الفلسطيني، وأهدافه، فقد صدر البيان الختامي المشترك، من دون ذكر للكيان الفلسطيني، مكتفيًا بدعوة الشعب الفلسطيني إلى تنظيم نفسه، ليشارك في تحرير وطنه. وقرر المؤتمر، ضمن ما قرر: أولًا؛قيام إسرائيل خطر أساسي يجب دفعه، سياسيًا، واقتصاديًا، وإعلامياً؛ ثانيًا،إنشاء قيادة عسكرية موحَّدة، وفق الصلاحيات، التي صدق عليها مجلس الدفاع المشترك، في دورته الثالثة (حزيران/يونيو١٩٦١)؛ ثالثًا، إقامة قواعد سليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني، وأن يستمر السيد الشقيري، ممثل فلسطين لدى الجامعة، في اتصالاته بالدول الأعضاء، والشعب الفلسطيني؛ بغية الوصول إلى إقامة القواعد السليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني، وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه، وتقرير مصيره؛ رابعًا، تشكيل لجنة للمتابعة، والتنفيذ، ووضع الخطط اللازمة لاسترداد فلسطين إلى أهلها،مستخدمين الوسائل السياسية، والاقتصادية، والإعلامية.(١١)

يسرد الشقيري الاقتراحات، التي جاءته من كافة تجمعات الشعب الفلسطيني، لحضور القمة الأولى، ومن بين هذه الاقتراحات: إنشاء جمهورية فلسطينية؛ تجنيد الشعب الفلسطيني لخوض معركة التحرير؛ المبادرة إلى إنشاء الكيان الفلسطيني؛ إجراء انتخابات للشعب الفلسطيني، لاختيار قيادته الوطنية؛ استقلال العمل الفلسطيني عن الجامعة العربية، وغيرها الكثير من الاقتراحات. يضيف الشقيري: " ولم أبالِ بذلك كله، لأني رأيت، في تلك المرحلة، أن أوجِّه اهتمامي لأمريْن: الأول؛ أن يكون مؤتمر القمة لقضية فلسطين برمتها، ولا يقتصر على تحويل الروافد؛ الثاني، أن (أنتزع) من المؤتمر قرارًا بإنشاء الكيان الفلسطيني، مهما كانت صيغته. وبدأت بالمطار، فرحت استقبل الملوك، والرؤساء، أجامل، وأتودد، وخاصة للملك حسين، فلابد للكيان الفلسطيني، في بدايته، من موافقة عمان، وكذا...وفي فندق هيلتون، أقبلت على الملك حسين، بكل جوارحي، لأفتح قلبه للكيان الفلسطيني، وقد أعانني في هذه المهمة رئيس الوزراء، السيد بهجت التلهوني».(١٢)

انشغل خبراء الفقه الدستوري، والعارفين بالمراسم الدولية، بأمر الشقيري: هل يحضر ممثل فلسطين مؤتمر الملوك والرؤساء، وهو ليس من الملوك والرؤساء؛ ولجأ الشقيري إلى الإنذار، وقال:»إن هذا المؤتمر سيجتمع من أجل قضية فلسطين، وأنا ممثل فلسطين، وإذا لم يشترك ممثل فلسطين في هذا الاجتماع، فليس أمامي إلا أن أستقيل من هذا المنصب، وأُعلن ذلك على الشعب الفلسطيني». وأفلح الإنذار، وصدرت الصحف القاهرية، في اليوم التالي، وفي صفحتها الأولى: إن ممثل فلسطين سيشترك في مؤتمر الملوك والرؤساء. وجاءت، بعد ذلك، مشكلة جلوس الشقيري،» حيث أفتى خبراء البروتوكول بأن أجلس في طرف المائدة البيضاوية الشكل، في الصالة الكبرى في الجامعة، حيث سينعقد المؤتمر، وأن أجلس على كرسي عادي، لامزدوج، كالمقاعد المخصَّصة للملوك والرؤساء، وأن يكون هذا الكرسي بعيدًا، بمقدار خطوتين إلى الوراء،عن مقاعد الملوك والرؤساء، فقبلت الفتوى، وبيَّتُ في نفسي أمرًا...وفي الساعة الخامسة من ظهر اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني/يناير١٩٦٤، غادرت فندق هيلتون، مع موكب الملوك والرؤساء، إلى قاعة الجامعة العربية، وتحت موجات من مصابيح المصوَّرين، الوافدين من كل أرجاء العالم، سرت في خطى ثابتة إلى المائدة البيضاوية الشكل، ودفعت بيدي الكرسي الصغير، الذي كان قد أعدَّ لي،خطوتين إلى الأمام،حتى أصبحت كتفًا إلى كتف مع الملك الحسن الثاني على ميمنتي،ورجال البروتوكول يحملقون فيّ، لهذه المخالفة الصارخة، ولم يجرؤ أحد أن يعيدني إلى الوراء، على مشهد من الصحافة، العربية والعالمية. وهكذا، تقدمت قضية فلسطين خطوة أخرى في زحفها المقدس، على طريق بناء شخصيتها، وكيانها،وإثبات وجودها، في مؤتمر الملوك والرؤساء، حتى قبل أن تصبح دولة، وقبل أن يصبح لها رئيس».(١٣)

الهوامش

(١)للمزيد، انظر:

- أحمد الشقيري، أربعون عامًا في الحياة العربية و الدولية، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٦٩،ص٣٢٥، ٣٣٣؛

- أحمد الشقيري، من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء،بيروت،دار العودة،١٩٧١،ص٩-١٠؛

- مجموعة باحثين، أحمد الشقيري،بمناسبة الذكرى ال٢٥ لرحيله،بحوث و مناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية،بالتعاون مع لجنة تخليد ذكرى المجاهد أحمد الشقيري و معهد البحوث و الدراسات العربية، بيروت، أيلول / سبتمبر٢٠٠٥(انظر: بيان نويهض الحوت،الفصل الأول، شخصية أحمد الشقيري، ص٤٠).

(٢)الشقيري،من القمة...،مرجع سبق ذكره،ص٩-١٤.

(٣)للمزيد، انظر:

- قرارات مجلس جامعة الدول العربية...،مرجع سبق ذكره،ص٢١؛

- الشعيبي عيسى، ،ص٩١-٩٢.

(٤)الشقيري،من القمة...، مرجع سبق ذكره،ص١٦.

(٥)سخنيني عصام ، نفس المرجع.

(٦)للمزيد، انظر:

- الشقيري،من القمة...، مرجع سبق ذكره،ص٤٦؛

- عبدالرحمن أسعد، نفس المرجع ،ص٦٩.

(٧)بحوث و مناقشات...، مرجع سبق ذكره(انظر: الحوت، مرجع سبق ذكره،ص٤٢).

(٨)للمزيد، انظر:

- المرجع نفسه، ص ٤٢-٤٣؛

- الشقيري، من القمة... مرجع سبق ذكره،ص٧٩،٨٤-٨٠

(٩)بحوث...، مرجع سبق ذكره(انظر: الحوت، سبق ذكره،ص٤٣).

(١٠)مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر،القسم الرابع، فبراير/شباط ١٩٦٢ إلى يونيه /حزيران ١٩٦٤، القاهرة، وزارة الإرشاد القومي،مصلحة الاستعلامات،ت، ص٤٩٦ -٥٠٤،٤٧٩-٥٠٥.

للمزيد (خطبة عبد الناصر،ص٤٩١-٥٠٦).

(١١)للمزيد،انظر:

- ملف وثائق فلسطين، القاهرة، وزارة الإرشاد القومي في ج.ع.م.، الجزء الثاني، ١٩٦٩،ص١٢٧٣؛

- عبد الرحمن، مرجع سبق ذكره،ص٦٩-٧٠؛

- الشقيري،من القمة...، مرجع سبق ذكره،ص٤٦؛

- مؤتمرات القمة...، مرجع سبق ذكره،ص٢٧-٣٠.

(١٢)الشقيري،من القمة...، مرجع سبق ذكره،ص٣٥-٣٧.

(١٣)للمزيد، انظر: المرجع نفسه،ص٣٤-٣٨.

ميلاد المنظمة

رضوى عبد القادر

التقط الشقيري تكليف القمة العربية الأولى له، وإن ذهب بعيدًا في التحضير، والتنفيذ.

مؤتمر القدس

يقول الشقيري: «...وخرجت من المؤتمر-أي القمة الأولى –وليس في جيبي إلا هذا القرار «؛وهو قرارلا يمنح الشقيري الحق بإنشاء منظمة للتحرير، لكن الشقيري كان قد اتخذ قراره،حيث أنه كان المخوَّل الوحيد بالإعداد، في تلك الأيام التمهيدية، كما يصفها، بقوله:»وبدأت،أول ما بدأت، بأن أخذت أضع الكيان الفلسطيني على الورق، تمامًا كما يفعل المهندس، يضع خارطة البناء، بأسسه،وتفاصيله، ومقاييسه، وكتبت،وصنَّفت،وقدمت، وأخَّرت، إلى أن وضعت (الميثاق القومي)؛ و(النظام الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية)،وقد وضعت في ما كتبت كل خبراتي في القضية الفلسطينية، على الصعيديْن، العربي والدولي، مضافًا إلى ذلك ظروف الشعب الفلسطيني... وأبرزت صورة الكيان الفلسطيني، في مجلس وطني، يُمثِّل التجمعات الفلسطينية، تنبثق منه لجنة تنفيذية، تقود النضال الفلسطيني؛ وكتائب فلسطينية، تجسِّد النشاط العسكري الفلسطيني؛ وصندوق قومي، لتمويل الحركة الفلسطينية؛ومكاتب في العواصم العربية؛ وجهاز إعلامي، للدعوة للقضية الفلسطينية؛ذلك هو الهيكل العام للكيان

الفلسطيني، كما رسمته في الميثاق،والنظام الأساسي».(١)

بدأ الشقيري رحلاته المكوكية، ونجح – بدعم قوي وخفي من عبد الناصر – في تسمية مندوبين إلى « المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول «، الذي انعقد، فعلًا، في فندق» الكونتنتال»* بالقدس، فيما بين ٢٨/٥-١٩٦٤/٦/٢، بحضور حوالي ٣٥٠ مندوبًا (بعض المصادر تذكرهم ٣٨٨، والبعض الآخر ٣٩٨)، والأهم من هذا كله أن رأس المملكة الأردنية الهاشمية، الملك حسين، هو الذي افتتح هذا المؤتمر.

يعترف الشقيري بأن قرارات مؤتمر القمة الأولى كانت هزيلة، فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، غير أنه يعترف، أيضًا،بأنه تجاوز الصلاحيات التي أعطيت له في القمة، فيقول: « لقد رضيت بهذه الصيغة الهزيلة، لأني كنت أريد أن أضع قدمي على أول الطريق، وأن يبرز الكيان الفلسطيني، كأمر واقع، ثم ينمو، و يكبر، بصورة ذاتية «. يستطرد الشقيري، قائلًا: «قرار الملوك لم يخوِّلني إنشاء الكيان الفلسطيني، إطلاقًا... فقد كانت مهمتي، في الواقع،الاتصال والدرس، و من ثم تقديم تقرير إلى مؤتمر القمة الثانية، المزمع عقده في الاسكندرية (آب / أغسطس ١٩٦٤)... و لهذا، فقد عزمت أن أضع الحكومات العربية والشعب الفلسطيني أمام الأمر الواقع،فأدعو إلى مجلس وطني، ينعقد في مدينة القدس، لينظر في (الميثاق)، و (النظام السياسي)، و يعلن قيام (م.ت.ف.)...وتشترك، بعد ذلك، في مؤتمر الملوك و الرؤساء، في الاسكندرية، باسم م.ت.ف.،لا تحت اسم (ممثل فلسطين في الجامعة العربية)». وعلى الرغم من الصعوبات التي اعترضت الشقيري،فإن هذا هو، بالضبط، ما فعله الشقيري، وبخاصة بعد أن منحه الرئيس عبد الناصر،الضوء الأخضر، وشجَّعه على المباشرة في إخراج الكيان الفلسطيني إلى النور. وفي الوقت نفسه، وضعت السلطات المصرية أمام الشقيري وسائل إعلامها، بالتحدث من خلالها إلى الفلسطينيين، وهو المعروف بقدراته الخطابية. و قد نجح الشقيري، فعلًا،في إثارة الحماسة عند الجماهير، وبالذات عند الحديث عن «الكيان الفلسطيني الموعود «. أما على الصعيد العملي، فقد اغتنم الشقيري فرصة انعقاد مؤتمر القمة العربي الأول، ليزيد من تلك الاتصالات؛ تمهيدًا لعقد المجلس الوطني الفلسطيني المنتظر. و في هذا السياق، قام بجولة

واسعة في الدول العربية، بدأها بالأردن، الذي كانت لدى نظام حكمه تحفظات على الكيان الفلسطيني، حيث أصرَّ العاهل الأردني، على أن ينص مشروع الكيان على عدم فصل الضفة الغربية عن الضفة الشرقية، قبل منح الملك موافقته على قيام المنظمة. (٢)

بعد أن شكَّل الشقيري اللجنة التحضيرية، من أجل العمل لعقد المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول،بدأت تلك اللجنة – التي كانت تضم في معظمها الوجهاء الفلسطينيين – عملها لعقد المؤتمر، في نهاية شهر آيار /مايو ١٩٦٤. وكانت الفترة التي سبقت عقده، حافلة بالنشاط، واللقاءات الفلسطينية، بعد أن فشلت دعوات الفئات الفلسطينية، التي كانت تدعو لإجراء انتخابات عامة، قبل عقد المؤتمر. فقد كانت اللجان التحضيرية في الدول العربية،تقوم بتسمية أعضاء المؤتمر، في كل قطر عربي، وترفع الأسماء إلى اللجنة التحضيرية، التي كانت تختار من بينهم المشاركين في المؤتمر، بإشراف الشقيري نفسه.وجاء معظم أعضاء المؤتمر،حسب إحدى الشهادات،من»ممثلي الفئات العليا من الرأسمالية الفلسطينية، ومن ممثلي الفئات والمنظمات الفلسطينية، ومن القوى الفلسطينية الجديدة،ومن ضمنها المنظمات، التي كانت تتهيأ، آنذاك، لممارسة الكفاح الفلسطيني، وبينهما حركة (فتح)،وممثلين قليلين عن(حزب البعث العربي الاشتراكي)،ومن القوى الفلسطينية الناصرية،وأبرزها في ذلك الوقت(حركة القوميين العرب). وفي آخر لحظة، وبناء على طلب من الأردن، ضم الشقيري جميع الأعضاء الفلسطينيين في مجالس النواب،والأعيان؛ والوزارات الأردنية السابقين؛ لاعتقاده بأن ذلك يزيد الإجماع الفلسطيني على الكيان الجديد». ومن أصل ٣٥٠ مندوبًا كانوا، جميعًا، مختارين غير منتخبين، شارك ٢١٢ مندوبًا من المملكة الأردنية الهاشمية، وحدها! وفي هذا المجال، رد الشقيري على المطالبين بالانتخابات، بقوله: «إن الفلسطينيين أعلنوا، في كل مكان ذهبت إليه، استعدادهم للتطوع من أجل تحرير فلسطين، و كانت صيحاتهم لتحرير وطنهم، وحمل السلاح في معركة التحرير، يُسمع هديرها في إسرائيل... ولقد كانت المطالبة بإنشاء المعسكرات، لا بإجراء الانتخابات، كما أنهم أكدوا أن الحركات التحررية لا تبدأ بالانتخابات؛ وإنما تبدأ بالتطوّع، والفداء. فتحرير فلسطين لا يتطلب مرشحين، ومنتخبين؛ ولكن يتطلب

متطوعين، وفدائيين، ومن أراد أن يرشِّح نفسه للشهادة، و التضحية، فليتفضل «. و قد أصر الشقيري على عقد المؤتمر في بيت المقدس؛ (حتى لا يولد الكيان الفلسطيني غريبًا عن وطنه).

وبدأت الاستعدادات لعقد المؤتمر بالقدس، بعد موافقة السلطات الأردنية، وكان الشقيري يطمع في أن يفتتح العاهل الأردني المؤتمر الفلسطيني؛ ليعطيه أهمية أكبر، كما أن عبد الناصر نصحه بأن يُقنع الملك حسين بالمشاركة في المؤتمر. ولهذا الغرض، سافر الشقيري إلى العقبة، بصحبة بهجت التلهوني،حيث نجح، في النهاية، بإقناع الملك بالحضور، بعد أن وعده الشقيري بعدم إنشاء كتائب فلسطينية مسلحة في الأردن،و عدم سلخ الضفة الغربية عن الضفة الشرقية. (٣)

هكذا، انعقد مؤتمر القدس، بحضور الملك حسين، وبمشاركة كل الدول العربية، على مستوى وزراء الخارجية، باستثناء السعودية، التي قاطعت المؤتمر، ومنعت الفلسطينيين في السعودية من المشاركة فيه. وبالفعل، افتتح العاهل الأردني المؤتمر، موضحًا موقف بلاده من القضية الفلسطينية، وتمسّكه بوحدة الأردن، معتبرًا انعقاد المؤتمر حدثًا مهمًا في تاريخ نضال الفلسطينيين، لأنه «يشكل نهاية لمرحلة، كان فيها الجهد والعمل بالنسبة لأبناء فلسطين مشتتًا موزعًا، لأنه يشكل، في الوقت ذاته،بداية لمرحلة جديدة، يدخل فيها ذلك الجهد، والعمل طور التجمع،والتخطيط، والتنظيم. أما الشقيري، فقد تحدث عن أهمية الكيان الفلسطيني؛ وأهدافه، قائلًا: إن هدف الكيان الفلسطيني هو تحرير الوطن السليب، وليس سلخ الضفة الغربية عن المملكة الهاشمية، ولكننا نهدف إلى تحرير وطننا المغتصب، غرب الضفة الغربية «.كما دافع الشقيري عن الكيان الفلسطيني، واستقلاله عن الدول العربية، قائلًا: «إن الكيان الفلسطيني له شخصية حرة مستقلة، يتعاون مع الدول العربية، جميعها، داخل نطاق الجامعة العربية،و خارجها... إن الكيان لا يبنيه الملوك والرؤساء،ولا تبنيه الدول العربية، ولا الجامعة العربية؛ إن الكيان الفلسطيني فلسطيني و عربي، إنه فلسطيني البناء، ولكنه عربي الوسائل، والإمكانات تقدمها الدول العربية «.(٤)

في يوم افتتاح المؤتمر (عُقدت، بعد الافتتاح، ثلاث جلسات عمل)، تم انتخاب الشقيري رئيسًا للمؤتمر، وكل من حكمت المصري؛ وحيدر عبد الشافي؛ ونقولا الدر، نوابًا للرئيس، و عبد الرحمن

السكسك أمينًا عامًا. وألف المؤتمر، كذلك، تسع لجان عمل، اجتمعت من ٣٠ آيار/مايو إلى ١ حزيران/يونيو، وانتهت من إعداد تقاريرها،التي ناقشها المؤتمر،و أصدر بشأنها التوصيات،و القرارات اللازمة، أهمها: إعلان قيام «م.ت.ف.»؛ واعتماد « الميثاق القومي «للمنظمة؛ والمصادقة على النظام السياسي، واللائحة الداخلية للمجلس الوطني؛ وانتخاب الشقيري رئيسًا للجنة التنفيذية، وتكليفه اختيار أعضائها، وعددهم ١٤ عضوًا؛ وانتخاب عبد المجيد شومان رئيسًا لمجلس إدارة الصندوق القومي، وعضوًا في اللجنة التنفيذية. كما أصدر المؤتمر مجموعة قرارات عسكرية؛ وأخرى سياسية؛ وثالثة مالية؛ ورابعة إعلامية؛ وخامسة قرارات عامة. وفي الجلسة الختامية للمؤتمر (١٩٦٤/٦/٢)، أعلن الشقيري ولادة م.ت.ف.: «ممثلة للشعب الفلسطيني، وقائده لكفاحه من أجل تحرير وطنه «. وقد علَّق الشقيري على قيام المنظمة، بقوله «كان ذلك اليوم ميلاد الكيان الفلسطيني، مؤذنًا بانبثاق الشخصية الفلسطينية،يجسِّدها قيادة فلسطينية، و جيش التحرير الفلسطيني، والصندوق القومي الفلسطيني، و أجهزة إعلامية، و إدارية، وتنظيمية... وهي، الآن، تولد من العدم، وتبدأ من الصفر، وكل إمكاناتها عزم الشعب الفلسطيني على تحرير وطنه، و إيمان الأمة العربية بقضيتها المقدسة«. (٥)

على نحو مختلف، كان انعقاد»المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول»انتصارًا لشخص الشقيري، والخط السياسي الذي أراده، رغم المعارضة الداخلية: فلقد نجح الزعيم الفلسطيني في الإعلان عن قيام المنظمة، وهو ما سعى إليه، طويلاً. ولا شك في أن الشقيري استغل الحماس الشديد في الساحة الفلسطينية، وداخل المؤتمر، للتعجيل بولادة الكيان الفلسطيني. كما أنه استطاع أن يكسب ثقة الملك حسين، ويقنعه بافتتاح المؤتمر، مع العلم بأن العاهل الأردني تعرَّض لضغوط، داخلية؛ وعربية؛ ودولية؛ لثنيه عن حضور المؤتمر. وفي المقابل، انتقدت بعض المنظمات، والقوى الفلسطينية عقد المؤتمر، وبخاصة، بعد أن منعت السلطات الأردنية بعض الحزبيين من المشاركة في أعماله. ومع أن»اللجنة التحضيرية»، بزعامة الشقيري،هي التي اختارت أعضاء المؤتمر،فإن تيارات معارضة لنهج الشقيري قد ظهرت، خلال الجلسات. وأهم التيارات المشاركة في المؤتمر: (٦)

فريق الشقيري، الذي ضم عناصر متباينة، بينها من أعلن عن ارتباطه وتأييده لشخص الشقيري، دومًا،وبعضها الأقل، كان أقرب إلى الأوساط الاجتماعية؛ والاقتصادية الفلسطينية العليا،التي رفضت إثارة الجدل مع بعض الدول العربية؛بسبب وجود بعض المصالح لها في تلك الدول،وكان هذا الفريق هو المهيمن على المؤتمر،لكثرة عدد أعضائه، ونفوذه،خاصة-لأسباب خارجة عن نطاق إرادة الشقيري- لم يضم المؤتمر أي عضو من سكان المخيمات في لبنان؛

فريق حركة ممثلي القوميين العرب والناصريين الآخرين، الذين كان لهم نفوذ كبير في الأوساط الفلسطينية، خارج المؤتمر، مع أن نفوذهم داخله كان ضعيفًا. ولكنهم كانوا في أزمة ضمير، حيث احتاروا بين عبد الناصر، كزعيم قومي عربي، ومعارضتهم للشقيري، الذي يدعمه عبد الناصر، رغم اختلاف فكره السياسي عن أفكار هذا الفريق. وفي النهاية، أيَّد معظم هذا الفريق قيادة الشقيري؛

فريق البعثيين الفلسطينيين، الذين كانوا على خلاف مع عبد الناصر، المؤيد للشقيري. وكان تأثير هذا التيار محدودًا جدًا،داخل المؤتمر؛لقلة عددهم، وبخاصة، بعد أن منعت السلطات الأردنية معظم البعثيين القادمين من سوريا، من الاشتراك في المؤتمر، ما أدى- دونما قصد - إلى تقوية فريق الشقيري؛

الفلسطينيون في الأردن، من الأعيان، والنواب، والوزراء، والوجهاء، الذين تربطهم علاقات قوية مع السلطات الأردنية،والمختلفون، في الوقت نفسه، مع التيارات الحزبية المعارضة؛ وهذا الفريق، رغم تأييده للكيان الفلسطيني، فإنه يرفض أن يؤثِّر قيام هذا الكيان على مصالح أعضائه في الأردن. ولقد وجد هؤلاء أنفسهم يقفون مع فريق الشقيري، باعتباره أهون الشرَّين؛

أما التيار الخامس، والأخير، فهو الفتحاوي، الداعي لبدء الكفاح المسلح ضد إسرائيل. ومع أن هذا التيار لم يكن يملك نفوذًا قويًا داخل المؤتمر؛ لقلة عدد أعضائه(كان بينهم ثلاثة من أعضاء اللجنة المركزية، هم خليل الوزير، وخالد الحسن، ومحمد يوسف النجار)، فإن نفوذهم كان في ازدياد مطرد في أوساط الفلسطينيين، وعلى علاقات سيئة مع الشقيري، الذي أكد، غير مرة، بأن المشاركين في المؤتمر شاركوا بصفتهم التنظيمية. ويؤكد صلاح خلف(أبو إياد) أن الشقيري «بدلاً من أن يساعدنا، فإنه راح يحاربنا، بأقصى ما لديه من طاقة». ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب، لأن

الشقيري، القريب من مصر الناصرية، ورئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة، لاحقًا، لم يكن يرتاح لتدقيقات، وتكتيكات حركة "فتح"، التي شرعت في ممارسة الكفاح المسلح، بعد أشهر قليلة من قيام المنظمة، وسيطرت،سياسيًا،على الساحة الفلسطينية، فيما بعد.

يلاحظ أن المجلس،لم يضم أي عضو شيوعي، وذلك لأن أجهزة الأمن في كل بلد مضيف للفلسطينيين هي التي حددت أسماء معظم أعضاء المؤتمر!

وضع الشقيري مؤتمر القمة العربي الثاني(الاسكندرية-١٩٦٤/٩/١٥)أمام الأمر المقضي، حين أبلغ القمة بأن «منظمة التحرير الفلسطينية» غدت أمرًا واقعًا،على الرغم من احتجاج بعض الدول على الصلاحية التي منحها الشقيري لنفسه،ومن المؤكد أن العديد من الدول العربية كانت تشد أزره،وفي طليعتها مصر؛ والجزائر؛ والعراق؛وهو، بدوره، لم يفوِّت فرصة الرد، فقال: «إني أعرف قراركم الذي أصدرتموه،في القاهرة، بشأن الكيان الفلسطيني؛ولكني أعرف كذلك، أنني لست موظفًا عند مؤتمرات القمة، لقد أنشأت الكيان الفلسطيني مع الشعب الفلسطيني، وفق الظروف التي يعيشها الشعب الفلسطيني. إن الكيان الفلسطيني هو لشعب فلسطين، وشعب فلسطين هو، وحده،الذي يبني كيانه، تمامًا كما بنت شعوبكم كياناتكم،إن الكيان الفلسطيني لا يبنيه الملوك والرؤساء،وإلا أصبح كيان الملوك والرؤساء».(٧)

ما إن قامت المنظمة، حتى ابتدأ الشقيري يجابه العداء، على مختلف الصُعد؛ فعلى الصعيد الدولي، هاجمته أجهزة الإعلام الغربية، وخاصة»إسرائيكا»(وهو التعبيرالذي نحته الشقيري على إسرائيل وأميركا)،وتركَّز الهجوم على أنه «عميل شيوعي»، بخاصة،بعد زيارته للصين الشعبية (آيار/مايو١٩٦٥)، وبعد أن تلقت المنظمة أسلحة من بكين، وبعد أن أرسل الشقيري ضباطًا للتدريب في الصين.(٨)

أما لماذا عمد النظام العربي إلى إحياء «الكيان الفلسطيني «،فأغلب الظن، بهدف احتواء التوْق الفلسطيني الجامح لهذا «الكيان»، وخشية النظام العربي من أن تعبِّر المنظمات الفدائية الفلسطينية عن هذا التوْق، بعد أن فاق عدد تلك المنظمات الثلاثين منظمة، في العام ١٩٦٣.صحيح أن النسبة الأكبر لهذه المنظمات لم تتعد اللافتة، فحسب،لكن ضخامة

هذا العدد تعكس مدى التعطش لأخذ الشعب الفلسطيني قضيته الوطنية بين يديه. وإذا ما التف الشعب الفلسطيني حول فصيل فدائي، أو أكثر،فقد تجد الدول العربية نفسها متورِّطة في حرب لا تريدها، ولم تستعد لها، لذا كانت «المنظمة» تحت السيطرة الرسمية العربية،لكن حرب ١٩٦٧، قلبت كل المعايير.

الهوامش

أحمد الشقيري، من القمة الى الهزيمة، بيروت، دار النهار، ١٩٦٩.

- مجموعة باحثين، أحمد الشقيري: بمناسبة الذكرى ٢٥ على رحيله، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع لجنة تخليد ذكرى المجاهد احمد الشقيري، ومعهد البحوث والدراسات العربية، بيروت – القاهرة، أيلول- سبتمبر ٢٠٠٥ (انظر بيان نويهض الحوت، الفصل الأول ص ٤٠-٤٢).

(٢) عبد الرحمن، أسعد. مشرفاً، م.ت.ف. جذورها، تأسيسها، مساراتها، نيقوسيا، م.ت.ف. مركز الابحاث ١٩٨٦.

- د.عبد المعطي عساف، الفلسطينيون ودورب العمل الفدائي ص ٧٠-٧٤.

- الشقيري، من القمة.. مرجع سبق ذكره ص ١٩، ٥٠، ٦٠-٦١.

(٣) - فيصل حوراني،الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤،بيروت،مركز الأبحاث، م.ت.ف.،١٩٨٠، ص٣٠،٢٨-٣١؛

- الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤، بيروت،مؤسسةالدراسات الفلسطينية،١٩٦٦،ص٧٦؛

-عبد الرحمن،مصدر سبق ذكره،ص٧٤ -٧٥.

(٤) - الكتاب السنوي...،مرجع سبق ذكره،ص٧٧؛

- الشقيري، من القمة..، مرجع سبق ذكره،ص١٠٣-١٠٥.

(٥) - الموسوعة الفلسطينية،ط ا، القسم العام،المجلد الرابع، دمشق،١٩٨٤، ص٩٤-٩٦

ـ حوراني، مرجع سبق ذكره،ص٢٣-٨٩، ٢٢٥-٢٣٧؛

الشقيري من القمة، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٦ -١٠٨؛-

عبد الرحمن، مرجع سبق ذكره،ص٧٦.-

(٦) - المرجع نفسه، ص ٧٧ -٧٨،

- صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، الكويت، دار كاظمة، دون تاريخ نشر ص ٧٨.

(٧) الشقيري، من القمة...؛ مرجع سبق ذكره،ص١٣٤.

(٨) أحمد الشقيري، على طريق الهزيمة مع الملوك والرؤساء، بيروت، دار العودة، ١٩٧٢،ص٢٧٧-٢٧٩.

الاقتصاد السياسي لظهور المنظمة

عبد القادر ياسين

ما كان لهزيمة الجيوش العربية، في الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى (١٩٤٨)، إلا أن تعصف بكل البنى العربية الفلسطينية: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والنقابية؛ وزاد الطين بلة أن محاولات الفلسطينيين المتعاقبة لبلورة كيان سياسي لهم، وُوجهت بمقاومة رسمية عربية شرسة، حرمت الشعب الفلسطيني من نتائج هذه المحاولات.

هذه «الهيئة العربية العليا لفلسطين» * تُقرر إنشاء «حكومة فلسطينية «، بمجرد انسحاب القوات البريطانية من فلسطين، الذي كان مقررًا، في ١٩٤٨/٥/١٥؛لكن الدول العربية تصدت لـ « الهيئة» في قرارها ذاك؛ مقابل بديل قدمته اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، تمثَّل في إدارة مدنية مؤقتة، في كل مدينة، وقرية فلسطينية. إلا أن هذا البديل لم يتعد الحبر على الورق، بذرائع واهية. فتحركت «الهيئة»، من جديد،بعد هزيمة الجيوش العربية، لتشكيل حكومة، انبثقت، فعلاً، عن المجلس الوطني الفلسطيني، الذي انعقد في مدينة غزة، في ١٩٤٨/١٠/١. وترأس الحكومة أحمد حلمي عبد الباقي باشا، رئيس مجلس إدارة « بنك الأمة العربية». ووُجهت «حكومة عموم فلسطين» بحملة دعاوية قوية من ملك الأردن، عبد الله بن الحسين، الذي عمد إلى عقد مؤتمر فلسطيني مواز، ومضاد، في عمَّان، ترأسه أحد رموز الثورة المضادة في فلسطين، الشيخ سليمان التاجي الفاروقي، في نفس يوم انعقاد مؤتمر غزة، وأنكر المؤتمر الأول على مؤتمر غزة تمثيل الشعب الفلسطيني. وتبع مؤتمر عمّان مؤتمر أريحا (١٩٤٨/١٢/١)، وترأسه رمز آخر من الثورة

المضادة، هو رئيس بلدية الخليل، آنذاك، الشيخ محمد علي الجعبري؛ وبايع «مؤتمر أريحا» عبد الله بن الحسين ملكًا على فلسطين. وأُتبع هذا المؤتمر بمؤتمر ثالث في رام الله، بعد أيام (١٢/٢٦)، عزَّز مقررات المؤتمريْن السابقيْن. ومع ذلك، فإن «حكومة عموم فلسطين» نالت اعتراف كل الحكومات العربية، فيما عدا الحكم الأردني. (١)

فجأة، أقدمت السلطات المصرية على نقل رأس « الهيئة «، الحاج أمين الحسيني، من غزة، مخفورًا، إلى القاهرة؛ وأُجبر أعضاء من المجلس الوطني الفلسطيني على مغادرة قطاع غزة، إلى القاهرة؛ وأُودعت «الحكومة» في شقة * صغيرة، وسط القاهرة، وحُرمت من الحركة، أو العمل؛ بينما اقتصر دور رئيسها على مجرد تمثيل فلسطين في جامعة الدول العربية، بما لا يُقدِّم أو يؤخِّر. كما رفضت الأمم المتحدة الاعتراف بحكومة عموم فلسطين، ما جعل الأخيرة كأن لم تكن. وهكذا، تُرك الشعب الفلسطيني بدون من يمثله، سياسيًا، لما يربو على العقد والنصف؛ في الوقت الذي ضم الأردن الضفة الغربية الفلسطينية إليه (١٩٥٠)، بينما كانت الحكومة المصرية وضعت قطاع غزة «تحت رقابة القوات المصرية «، وكبَّلت تلك الحكومة القطاع بالأحكام العرفية الجائرة، منذ دخلت القوات المصرية إلى القطاع (١٩٤٨/٥/١٥)، وحتى هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

عربيًا، أحدثت هزيمة ١٩٤٨ العربية هزَّة عنيفة في الأقطار التي شاركت جيوشها في تلك الحرب؛ وأولها سوريا، التي تعرَّضت إلى خمسة انقلابات عسكرية، في مدى خمس سنوات، بدءًا بانقلاب قائد الجيش السوري، الزعيم حسني الزعيم (١٩٤٩/٣/٣٠)؛ تلاه انقلاب الزعيم سامي الحناوي (١٩٤٩/٨/١٤)؛ فانقلابا أديب الشيشكلي (١٩٤٩/١٢/١٩؛ ١٩٥١/١١/٢٨)؛وانقلاب مصطفى حمدون (١٩٥٤/٢/٢٥)؛ فضلًا على انقلاب ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ المصري، وانقلاب ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨العراقي. وإن تحوَّل الانقلابان الأخيران، لاحقًا، إلى ثورتيْن.واتخذت كل الانقلابات العسكرية العربية من « تحرير فلسطين» مبررًا لها.

في مصر، كان النظام الملكي أقوى، نسبيًا، من نظيره الجمهوري في سوريا؛ فتأسس في مصر تشكيل «الضباط الأحرار «، صيف ١٩٤٩، ونجح هذا التشكيل في تنفيذ مشروعه الانقلابي، في ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢؛ الذي بدأ إصلاحيًا، رمى إلى تطهير الحياة السياسية المصرية، وتقوية الجيش، وإجلاء

القوات البريطانية من قناة السويس.

بعد تحقيق الهدف الثالث لحركة الجيش المصري (خريف ١٩٥٤)، رنا قادتها بأبصارهم إلى بقية أرجاء الوطن العربي، ما أدى إلى اصطدامهم بالإدارة الأميركية، وتدهورت العلاقة بينهم وبينها. بعد أن كانت الإدارة الأميركية ضغطت، بقوة مجدية، على الحكومة البريطانية، لإجلاء قواتها من قناة السويس، إلا أن تلك الإدارة ظلت تسوِّف، وتتهرب من أمر إمداد مصر بالسلاح، بينما توالت الإعتداءات العسكرية الإسرائيلية على سيناء، وقطاع غزة؛ ما وشى بالعلاقة الاميركية الحميمة بإسرائيل، وكشف عن رغبة الأولى في الحلول محل بريطانيا في مصر. حتى كان العدوان الذي شنته الوحدة ١٠١ في الجيش الإسرائيلي على بير الصفا، في ضواحي مدينة غزة، مساء ٢٨ شباط / فبراير ١٩٥٥؛ وتمخَّض العدوان عن مقتل ٣٩ جنديًا مصريًا، وفلسطينيًا، وسودانيًا؛ والأهم أنه فجَّر انتفاضة شعبية عارمة، شملت قطاع غزة، من أقصاه إلى أقصاه، على أكتاف تحالف شيوعي – إخواني يتيم، عُقد، في خريف ١٩٥٤، وامتد إلى ربيع العام التالي؛ ورأى ذاك التحالف في الاعتداءات الإسرائيلية المتلاحقة وسيلة ضغط على اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة، كي ينجوا بحياتهم إلى «مشروع سيناء» لتوطين اللاجئين الفلسطينيين، المقيمين في القطاع، ومصر، والذي كانت الحكومة المصرية عقدت اتفاقًا مع «وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين»، التابعة للأمم المتحدة، بشأنه، في حزيران/يونيو ١٩٥٣ (٢). حين كانت الحكومة المصرية لا تزال أسيرة نظرة وردية للإدارة الأميركية، باعتبارها «زعيمة العالم الحر»، الأمر الذي تعزَّز بالدعم الأميركي الملحوظ للحكومة المصرية في أمر عقد» معاهدة الجلاء « مع الحكومة البريطانية، خريف ١٩٥٤. وعلينا ألا ننسى بأن أصداء دعوة الرئيس الأميركي، ودرو ويلسون (١٩١٩)، بحق الشعوب في تقرير مصيرها، استمرت تتردد في أرجاء العالم عمومًا، والمستعمرات على نحو خاص. كما أن الولايات المتحدة الأميركية لم تكن تمتلك مستعمرات في قارات العالم القديم، قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها (صيف ١٩٤٥)؛ ما جعل قطاعًا واسعًا من الوطنيين، في أرجاء شتى من العالم، يتوهم في «طُهرية» مرامي الإدارة الأميركية.

ركزت انتفاضة آذار / مارس الغزية على الشعارات المعادية للحكومةالمصرية، ولمشروع سيناء؛

وحين طلب حاكم غزة الإداري، البكباشي (المقدم) سعد حمزة،إلى المنتفضين، في اليوم الثالث للانتفاضة، إرسال لجنة تمثلهم، قدّمت اللجنة * إلى حمزة مطالب الانتفاضة، التي تمثَّلت في : إلغاء « مشروع سيناء «؛ وتسليح القطاع، وتحصينه، وتدريب أهله؛ فضلاً عن إطلاق الحريات الديمقراطية. وجاء جواب عبد الناصر، على لسان حمزة، عصر اليوم نفسه، بالموافقة على كل مطالب الانتفاضة.

كل الذين أرَّخوا لعبد الناصر، أكدوا بأنه لم ينم، على مدى ثلاث ليال متصلة، هي عمر تلك الانتفاضة، التي حفلت بالشعارات المعادية لحكم عبد الناصر، وهو لم يكن قد نسي،بعد، هبّة آذار / مارس ١٩٥٤ المصرية، التي شكلت تهديدًا حقيقيًا لنظام حكمه.

*ضمت اللجنة كلاً من: معين بسيسو (عن الشيوعيين)؛ وفتحي البلعاوي (عن الإخوان)؛ وجمال عمر الصوراني (عن المستقلين).

الحقيقة أن عبد الناصر استجاب لمطلبيْ الانتفاضة الغزية الأوليْن*، وما كان له أن يستجيب لمطلب الحريات الديمقراطية؛ بحكم تربيته العسكرية، أولاً؛ ولأنه لايستطيع أن يمنح قطاع غزة الديمقراطية، بينما كان يحرم مصر منها؛ بعد أن تصوَّر بأن مثل تلك الديمقراطية ستقطع الطريق على مشروعه السياسي.

على أنه يُسجَّل للزعيم المصري أنه لم يكتفِ بتحقيق المطلبيْن الأوليْن للانتفاضة، بل أتبعهما بتشكيل «الكتيبة ١٤١ فدائيين»، التي ضمت نحو٦٠٠ فلسطينيًا، وضع عبد الناصر على رأسهم مدير مكتب المخابرات الحربية المصرية في قطاع غزة، البكباشي (المقدم) مصطفى حافظ، وألحقت هذه الكتيبة بإسرائيل خسائر بشرية فادحة، في بضعة أسابيع (١٣٨٧ قتيلاً، فيما بين نيسان/ أبريل – تموز / يوليو ١٩٥٦)؛ قبل أن تتمكن إسرائيل من اغتيال حافظ، بمظروف مفخَّخ (١٩٥٦/٧/١١).

إلى ذلك، نجح عبد الناصر في عقد» صفقة الأسلحة التشيكية»**، خريف العام نفسه، فنسف الزعيم المصري بذلك احتكار الغرب للسلاح في الوطن العربي. ونقلت أعمال « الكتيبة ١٤١»، و «صفقة الأسلحة التشيكية» عبد الناصر من الخط الوطني المطلق، إلى الخط القومي التقدمي؛ فقد تلاحقت الأحداث، إذ احتجت الإدارة الأميركية على «الصفقة «، وطلبت إلى عبد الناصر

إلغاءها، فرد بعقد صفقة أسلحة أخرى.ما اضطر الإدارة الأميركية للتراجع إلى تكتيك الاحتواء، فعرضت على عبد الناصر تمويلها السد العالي، وعلى منوالها نسجت كل من الحكومة البريطانية، و«البنك الدولي». لكن عبد الناصر أقدم على الاعتراف بالصين الشعبية (١٩٥٦/٥/١٦)، الأمر الذي كانت واشنطن تؤثِّمه، حينها؛ فقررت التراجع عن تمويل السد العالي، وفي إثرها تراجع كل من لندن، و«البنك الدولي». فجاء رد عبد الناصر سريعًا، بتأميم قناة السويس (١٩٥٦/٧/٢٦). ما استفز الدول الغربية، وخاصة بريطانيا،وفرنسا،وكانت الأخيرة متأذية من تدفق الأسلحة من مصر إلى ثوار الجزائر. ودخلت إسرائيل على الخط، أولاً لتأذيها من أعمال الفدائيين الفلسطينيين، وثانيًا لتوجيه ضربة قاصمة إلى الجيش المصري، قبل تمكُّنه من استيعاب الصفقة التشيكية. فعقدت إسرائيل مع لندن، وباريس «اتفاق سيفر» السري، وعليه تأسس «العدوان الثلاثي «، على مصر، وقطاع غزة؛ والذي كان - في حقيقته - رباعيًا، باشتراك القوات الأميركية مع نظيرتها البريطانية، والفرنسية، والإسرائيلية، في اليومَيْن الأوليْن للعدوان (٣)، قبل انسحابها،ومحاولة الإدارة الأميركية الانتفاع بفشل القوات البريطانية، والفرنسية في عدوانهما، للحلول محلهما في مستعمراتيْهما في الوطن العربي؛ وهنا صدر «مشروع أيزنهاور «، «لملء الفراغ في الشرق الأوسط»، الناشيء عن خروج بريطانيا وفرنسا منه؛ كما عمدت واشنطن إلى ممارسة الضغوط على إسرائيل، فسحبت الأخيرة قواتها من سيناء، ثم من قطاع غزة (١٩٥٧/٣/٧)، رغمًا عنها.

لقد أسست انتفاضة آذار /مارس ١٩٥٥ الغزية لنهوض قومي،غطى الوطن العربي، من أقصاه إلى أقصاه، بعد انتقال عبد الناصر من الوطني إلى القومي، على النحو السابق الاشارة إليه. فانفجرت المعارضة الشعبية العربية القوية لمشروع أيزنهاور الاستعماري الأميركي، وتحققت الوحدة المصرية – السورية (١٩٥٨/٢/٢٢)، وعصفت ثورة وطنية، عبَّر عنها الجيش، بالنظام الملكي في العراق (١٩٥٨/٨/١٤)، ما أوصل النهوض القومي العربي إلى ذروته.

سرعان ما عاد هذا النهوض إلى الانحناء، بعد أن عرض عبد الناصر على زعيم الثورة العراقية، عبد الكريم قاسم، دخول العراق مع «الجمهورية العربية المتحدة»، في وحدة اندماجية فورية؛ فما كان من قاسم إلا أن اقترح اتحادًا فيديرالياً، يتدرج إلى وحدة اندماجية؛ ما وتَّر العلاقة بين

عبد الناصر، وقاسم، و قوَّض التحالف اليساري – القومي، الذي قام على أكتافه ذاك النهوض. ما استحدث شرخًا عميقًا في جدار النظام السياسي العربي؛ بعد ذاك الشرخ بين النظام المصري، والأنظمة العربية المحافظة، الذي أخذ في الاتساع، بعد صدور « مشروع أيزنهاور»، وضرب الحكم الوطني في الأردن (نيسان/أبريل ١٩٥٧)، وتحقيق الوحدة المصرية – السورية، واندلاع الحرب الأهلية اللبنانية (صيف ١٩٥٨)، وانتصار الثورة الوطنية في العراق، وانفصال سوريا (خريف ١٩٦١)، قبل قيام الثورة اليمنية (١٩٦٢/٩/٢٦)، ودعم عبد الناصر لها، الذي وصل حد إرسال قوات مصرية إلى اليمن،واجهت مقاومة دامية، دعمها النظامان، السعودي والأردني. وقد ثار فزع الإدارة الأميركية، لوصول القوات المصرية إلى مشارف منابع البترول في الجزيرة العربية. ثم كان إسقاط نظام قاسم الوطني في العراق، بانقلاب بعثي، مدعوم أميركيًا (١٩٦٣/٢/٨)؛ وبعد شهر واحد، تم إسقاط نظام الانفصال في سوريا.

خاب فأل العروبيين، حين أخفقت محادثات الوحدة الثلاثية، بين النظاميْن البعثييْن، في سوريا، والعراق، والنظام الناصري، في مصر (نيسان /أبريل ١٩٦٣)، وبعد فشل محاولة انقلاب ناصرية في سوريا، قادها العقيد جاسم علوان (١٩٦٣/٧/١٨)، بينما نجحت محاولة مماثلة في العراق، قادها عبد السلام عارف (١٩٦٣/١١/١٨)، فاتسع الخرق على الراتق.

سرعان ما أُقحمت القضية الفلسطينية على خط الخلافات العربية – العربية المحتدمة، منذ خريف ١٩٥٨؛ وشهدت اجتماعات الجامعة العربية مظاهر شتى لهذا الإقحام؛ وتوالت المشاريع، المصرية، والعراقية، في سبيل «إحياء الكيان الفلسطيني». وإن تقاطع المختلفون من حكام العرب على ضرورة التحرَّك السريع، لقطع الطريق على الفصائل الفدائية الفلسطينية الوليدة، التى فاق عددها الثلاثين فصيلاً،العام ١٩٦٣، حيث توعدت تلك الفصائل بشن حرب فدائية على إسرائيل، فتوجست الأنظمة العربية خيفة، من احتمال توريطها في حرب مع إسرائيل، زعمت تلك الأنظمة بأنها لم تكن تهيأت لها،بعد (٤).

نهوض معيق وانحناءة مجدية

ثمة مفارقة في كوْن فلسطين قضية عربية، ومع ذلك لم تتعاف، إلا مع الضعف، والتبعثر الرسمي

العربي. فإذا كان النهوض القومي العربي(١٩٥٥-١٩٦١) قد أسهم، إسهامًا مجديًا، في إنضاج العامل الذاتي الفلسطيني، فإن النهوض نفسه، حال دون أخذ الشعب الفلسطيني قضيته الوطنية بين يديْه، عبر قواه المنظَّمة؛ لكن الشروخ العديدة المتوالية في جدار النظام السياسي العربي، سمحت بوصول الطموحات الوطنية الفلسطينية هنا إلى مبتغاها.

استنتاجات

ماكان للكيان الفلسطيني أن يعود للحياة، بعد النكبة،بسبب من حائط الصد الرسمي العربي، أولاً؛ وتحت وطأة غياب الأهلية الذاتية الفلسطينية لامتلاك مثل هذا الكيان، لنحو ستة عشر عامًا تالية للنكبة؛ حيث استجدت أمور كثيرة، فلسطينيًا، وعربيًا، ودوليًا.

فلسطينيًا، أدى تعافي الاقتصاد الفلسطيني، بعد نحو عقد من نكبة ١٩٤٨، إلى استعادة البنية الاقتصادية الفلسطينية لقوامها؛ وبالتداعي كان اكتساب البنية الطبقية الاجتماعية الفلسطينية لحيويتها؛ الأمر الذي انعكس،إيجابًا، على الحركة السياسية الفلسطينية. وبذا، يكون العامل الذاتي قد تأهل لإحياء الكيان السياسي الفلسطيني؛ وقد امتلك الشعب الفلسطيني خبرات سياسية معتبرة، على مدى العقد ونصف مابعد النكبة، من خلال التصدي للأحلاف الاستعمارية، وإسقاط مشاريع التوطين والإسكان، وفي العمل الإئتلافي الوطني، غير مرة، وفي غير مجال؛

عربيًا، أسهم النهوض القومي العربي، بقوة، في إنضاج العامل الذاتي الفلسطيني، كما تدفق الفلسطينيون، بمئات الآلاف للعمل في دول الخليج؛ وفي المدد السياسي لذاك النهوض إلى الشعب الفلسطيني؛ ولعل المفارقة كمنت في أن ذاك النهوض حال دون تمكين الشعب الفلسطيني من أخذ قضيتة الوطنية بين يديه، بعد أن زاد ذاك النهوض جدار المنع الرسمي العربي، قوة ومنعةً. كما أفاد النضال الوطني الفلسطيني من المزاحمة بين الأنظمة العربية المتناحرة، على إظهار تأييدها لفلسطين. بل إن ذاك الكفاح انتفع، أيضًا، بالكيانات الشكلية،التي حاولت تلك الأنظمة اصطناعها، في أمر تمثيل الشعب الفلسطيني.وهل يمكننا إغفال دور الثورة الجزائرية (١٩٦٢-١٩٥٤) كمصدر إلهام للشعب الفلسطيني؟ على أن الخلافات التي استبدت بذاك النظام، فيما بين العامَيْن ١٩٦١و١٩٦٣، وفَّرت شقوقًا واسعة في حائط الصد الرسمي العربي، أمكن لقوى

فلسطينية النفاذ منها؛ ما أثار فزع معظم أطراف النظام السياسي العربي، من أن يؤدي هذا النفاذ إلى توريط تلك الأطراف في حرب لا تريدها مع إسرائيل، وبالتالي لم تتهيأ لها؛ فسارعت تلك الأطراف إلى محاولة احتواء ذاك النفاد، بمؤسسة من صنع النظام السياسي العربي. في وقت، شجَّع وصول الفئات الوسطى إلى الحكم، في كل من مصر، وسوريا، والعراق، والجزائر،الفئات الوسطى الفلسطينية، على أن تتحرك في موازاة مثيلاتها، في تلك الأقطار. كما أن قادة عرباً، من اتجاهات سياسية شتى، حثُّوا – في النصف الأول من العام ١٩٦٢ – الشعب الفلسطيني كي يأخذ قضيته الوطنية بين يديه، وأن يحذو حذو الشعب الجزائري في ثورته. وبذا تهيأت الساحة العربية الملائمة لتخصيب النبتة، من تلك البذرة الفلسطينية.

لقد تميَّزت القوة الرسمية العربية بقدراتها الفائقة على قمع شعوبها، وكبح جماح الشعب الفلسطيني؛ وإجهاض كل محاولاته لبناء قوته الذاتية؛ بينما لم تكفِ تلك القوة لمواجهة إسرائيل؛ أي «أسد عليَّ، وفي الحروب نعامة!» من هنا، امتد التأثير السلبي للعمق الاستراتيجي العربي إلى القضية الفلسطينية، إلى ما يربو على عقد ونصف العقد؛ وأن لم تكَف أطراف النظام العربي عن توعَّد إسرائيل بتحرير فلسطين، دون العمل من أجل هذا التحرير، أو التجهيز له.

حتى أن مردود العمق الاستراتيجي العربي جاء مقلوباً، فقوة ذاك العمق، حالت دون دعم القضية الفلسطينية، بينما أفضى ضعفه، وتبعثره، إلى استلام أبناء فلسطين لقضيتهم الوطنية. وربَّ ضارة نافعة! حتى تضامُن أطراف النظام العربي، الواحد مع الآخر، كان مثيرًا للاستهجان؛ إذ بدأ الأمر بشكوى تقدمها الدولة المعتدى عليها من إسرائيل، إلى الأمم المتحدة، أو مجلس الأمن الدولي؛ وفي ظل النهوض القومي العربي، استمرأ أكثر من نظام عربي التهديد بأن «أي اعتداء على دولة عربية هو اعتداء على دولتنا!» الأمر الذي تجلى في الصيغة الثالثة لأمثال ذلك النظام، التي تمثلت في،» لن يجرنا العدو الإسرائيلي إلى المعركة، فنحن الذين نحدِّد زمان ومكان المعركة!»

غنيٌ عن القول بأن انفصال سوريا عن «الجمهورية العربية المتحدة»، أدى ـ ضمن ما أدى إليه ـ إلى أن يُخلي شعار «الوحدة العربية طريق تحرير فلسطين» موقعه، للشعار النقيض: «تحرير فلسطين طريق تحقيق الوحدة العربية».

دوليًا، كان للضربات المتلاحقة التي وُجهت للامبريالية العالمية، والهزائم التي حاقت بها، في أنحاء متفرقة من العالم (الصين؛ كوريا؛ فيتنام؛ كوبا؛ والجزائر؛ فضلاً عن مناطق مختلفة من أميركا اللاتينية، وأفريقيا)، مارجَّح كفَّة «المعسكر الاشتراكي «،صديق العرب،وزاد من حصته في تقرير أمور العالم،ووسَّع دائرة الدول الوطنية، والتقدمية، في المحافل الدولية، ورفع منسوب المستعمرات التي انتزعت استقلالها الوطني. كما تأكد مدى مضاء سلاح «حرب التحرير الشعبية»، الذي امتشقته ثورات الصين، وفيتنام،وكوبا. وبذا تهيأ المناخ الدولي لميلاد المنظمة، الذي لم يتم إلا على فراش «جامعة الدول العربية»، وعلى يديّ قابلتها: القمة العربية.

---

*كان عبد الناصر، مساء ١٩٥٥/٢/٢٨، يتناول العشاء على مائدة السفير الأميركي الجديد في القاهرة، هنري بايرود، حيث اشتكى الرئيس المصري من مماطلة الإدارة الأميركية في أمر مد مصر بالسلاح، على مدى أكثر من سنتين ونصف؛ فوعده بايرود ببذل جهده لإنهاء هذه المشكلة. وحين عاد عبد الناصر إلى منزله، وصله هاتف من الإدارة المصرية في قطاع غزة، أبلغه بالعدوان إياه.

**حين التقى عبد الناصر برئيس وزراء الصين الشعبية، شو إن لاي، في "مؤتمر باندونغ "، أوائل نيسان/ إبريل ١٩٥٥، فاتحه الزعيم المصري في أمر إمداد الصين مصر بالسلاح؛ فاعتذر له لاي، بأن الصين لا تمتلك أسلحة للتصدير، لكنه سيفاتح القادة السوفيات في أمر مد مصر بالسلاح. وحين عاد عبد الناصر إلى القاهرة،وجد السفير السوفياتي، سولود، في انتظاره. حيث طلب إلى عبد الناصر تسليمه قائمة بالأسلحة المطلوبة، وسرعان ما وصلت الأسلحة إلى مصر. وإن طلب سولود إلى عبد الناصر تسمية هذه الأسلحة بـ"صفقة الأسلحة التشيكية "، تخفيفًا للصدمة على واشنطن، فيما لو كانت الصفقة سوفياتية.

الهوامش

للمزيد، يمكن الاستعانة بـ:

محمد خالد الأزعر، حكومة عموم فلسطين في ذكراها الخمسين، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨.

(٢)تقرير حول «مشروع سيناء»، القاهرة، إعداد المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومي لجمهورية مصر، ووكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، يوليو / تموز ١٩٥٥.

(٣) لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى:

علي الشوباشي، المصور حصلت على الوثائق: مفاجأة تاريخية مذهلة، أميركا الشريك الرابع في العدوان الثلاثي على مصر (ثلاث حلقات)، المصور (القاهرة)، ١٩،١٢، ٢٦ /١٩٩٧/٩.

(٤) لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى:

- مروة جبر، جامعة الدول العربية وقضية فلسطين ١٩٤٥ -١٩٦٥، نيقوسيا، منظمة التحرير الفلسطينية، مركزالأبحاث، ١٩٨٩، ص ١٢٦ -١٢٧؛

- قرارت جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين (١٩٤٥- ١٩٦٨)، القاهرة، جامعة الدول العربية، إدارة شؤون فلسطين، ١٩٧٠، ص ١٦،١٠-١٩؛

- أحمد صادق سعد؛ وعبدالقادر ياسين، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨-١٩٧٠، بيروت، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٥،ص ٧٨؛

- د. أسعد عبدالرحمن (مشرفًا)، منظمة التحرير الفلسطينية: جذورها، تأسيسها مساراتها، نيقوسيا، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٦(أنظر: د.عبد المعطي عساف، الفلسطينيون ودروب العمل الفدائي،ص ٥١-٦٠)؛

- أحمد الشقيري،من القمة إلى الهزيمة، بيروت، دار العودة، ١٩٧١،، ص٥٩؛

- عصام الدين فرج، منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٤-١٩٩٣،القاهرة، مركز المحروسة للبحوث،١٩٩٤،ص١٥؛

- إميل توما، منظمة التحرير الفلسطينية، حيفا، دار الاتحاد للطباعة والنشر، ١٩٨٦، ص١٠٥.

الأصداء الفلسطينية لقيام المنظمة

أميرة محمود

"أصبحنا شعبًا بعنوان، بعد أن ظللنا، طيلة ستة عشر عامًا من الكارثة،شعبًا بلا عنوان»(١). هكذا، بحث الفلسطينيون عن عنوان، يحملهم إلى الوطن، ويحمله إليهم، وحلم الكثيرون بأن تصبح منظمة التحرير هذا العنوان. الأمر الذي أكده قائد شيوعي فلسطيني، على الرغم من إغفال الشقيري دعوة أي شيوعي فلسطيني للمشاركة في المؤتمر الوطني الأول.

منظمة التحرير بين الواقع والمأمول:

لقد أفرزت الحركة الوطنية الفلسطينية،عبر نضالها الطويل ضد الاحتلال الإسرائيلي، حالة من النشاط الفلسطيني المكثَّف، شهدته ستينات القرن العشرين، تمثَّل في تصعيد المقاومة ضد المحتل، و أخذت العناصر الفلسطينية الشابة في إنشاء الخلايا،والتنظيمات الثورية، لمتابعة المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني؛ وفي هذه الأثناء، وأمام عجز الأنظمة العربية عن مواجهة إسرائيل بتحويل مجرى نهر الأردن، العام ١٩٦٤م، اضطرت هذه الأنظمة إلى خلق نظام فلسطيني، يحمل عنها عبء التحرير، و يحتوي توْق الشعب الفلسطيني لأخذ قضيته الوطنية بين يديه. وبذلك تكون المنظمة بديلاً للفصائل الفدائية الفلسطينية الوليدة، التي خشيت الأنظمة العربية من أن تورِّطها تلك الفصائل في حربٍ مع الكيان الصهيوني.وهكذا، ولدت «منظمةالتحريرالفلسطينية»(٢).

واجه تأسيس المنظمة نوعَيْن من ردود الفعل الفلسطينية؛ الأول: مؤيدًا لقيامها؛ إذ رأى فيها تعبيرًا عن الطموح العميق لإعادة جمع شتات الشعب الفلسطيني، وإبراز كيانه الوطني. وكان من أبرز المؤيدين لها عميد المترجمين العرب، خيري حماد، الذي رأى أنه «من الطبيعي أن يتجاوب الشعب الفلسطيني مع الدعوة إلى المؤتمر الفلسطيني، وأن تبوء محاولات هدمه بالفشل، وذلك بعد أن مرت بالشعب الفلسطيني، السنوات الستة عشرة، التي عاشها في ظلال التشرد واللجوء، رافعًا شعار العودة، فيما عُرفت بمرحلة الذهول بعد النكبة، والتي بدأ بعدها الشعب الفلسطيني مرحلة العمل من أجل لقمة العيش، لينتقل منها إلى مرحلة العمل من أجل العودة، والتي يؤمِّنها له الكيان الفلسطيني، الذي يُعتبر السبيل إلى تلك العودة» (٣).

أما النوع **الثاني من ردود الفعل: فوجَّه للمنظمة انتقادات،** متعددة الأشكال، والدوافع، فنجد «جبهة التحرير الفلسطينية» تعبِّر عن مخاوفها،بمناشدة المنعقدين، أثناء القمة العربية الأولى: أن يكونوا على قدر هذه الأمة «مئة مليون عربي، بينهم مليون فلسطيني،يتطلعون اليوم إلى المؤتمر بقلوب تخفق،قلقًا، وخوفًا من أن لا تأتي مقرراتكم في مستوى شرف هذه الأمة، التي تمثلونها»(٤).

في ١٥ آذار/مارس ١٩٦٤م أصدر كل من « حركة القوميين العرب»، و"اتحاد طلاب فلسطين"، و"جبهة التحرير الفلسطينية_طريق العودة"، و"الشباب العربي الفلسطيني"، في لبنان، بيانًا مشتركًا، أعلنت فيه هذه القوى ما رأته الحد الأدنى الواجب تحقيقه من إنشاء كيان فلسطيني (٥):

١- طبيعته وفعاليته:

أ- أن يكون ثوريًا؛

ب- يستهدف تحرير فلسطين، وإعادتها بأكملها،عربية خالصة؛

ج- يجب أن يكون بانتخابات حرة مستقلة؛

د- تمثَّل فيه جميع المنظمات الثورية، والقوى العاملة؛

هـ- أن يكون مستقلاً،ماديًا، ومعنويًا.

٢- من حيث قطاعه العسكري:

- يجنَّد الفلسطينيون في الأقطار العربية،في وحدات عسكرية ونظامية؛

- تخضع القوات العسكرية للجهاز التنفيذى للكيان؛

- تكون قيادتها ممثلة، تمثيلاً فعليًا، في «القيادة العربية الموحدة».

بينما رأت «الهيئة العربية العليا لفلسطين" أن: منظمة التحرير الفلسطينية غير ذات جدوى تُذكر للقضية الفلسطينية؛ حيث «لا يُقصد منها غير إنشاء مكتب سياسي، تقتصر أعماله، ومهامه على الدعاية لقضية فلسطين، والتحدث باسم الشعب الفلسطينى في الأمم المتحدة «، لأن المنظمة تفتقد أبسط القواعد لإنشاء كيان نزيه، ومستقل، وهو الانتخاب العام،على أسس من الحرية والحياد (٦).

لعل ما يدحض هذا الهجوم أن «الهيئة العربية العليا» تأسست على يد "الجامعة العربية" - ربيع العام١٩٤٦م- التي سمت شخوصها، وغدت هذه الهيئة مؤسسة الرجل الواحد،هو رئيسها "الحاج أمين الحسيني"، واستمرت نحو ثلاثة عقود متصلة،على هذا النحو،المنبتّ الصلة بالديمقراطية. بينما اعتبر "حزب البعث العربي الاشتراكي" أن: "المنظمة ليست الأداة النضالية، التي تستطيع أن تتحمل أعباء معركة تحرير فلسطين" (٧).

غني عن القول بأن "البعث"، الذي كان يناصب عبد الناصر العداء، آنذاك، قد مد هذا العداء إلى الشقيري، الذي اختاره عبد الناصر لموقع رئيس المنظمة.

جاء تعليق «المكتب العربي الفلسطيني"،على لسان مديره،عزت طنُّوس - في ١٧ آذار/مارس من العام نفسه- في العاصمة اللبنانية،بيروت: «حيث أن تحرير فلسطين لا يتم إلا بالقوة، فإنه لن يكون للكيان الفلسطيني معنى، أو فائدة،إلا بإنشاء جيش فلسطيني فدائي، يكون في طليعة الجيوش العربية، التي ستشترك في هذا الإنقاذ»؛حيث «أن القضية لا تحلها اللجنة

التنفيذية، أيًا كانت طريقة انتخابها؛ بل يحلها الجندي الفلسطيني الفدائي،الذى سيخوض المعركة، ويسفك دمه على أرض فلسطين». ودعا طنوس،في نهاية البيان،كل فلسطيني إلى التطوع في الجيش الفلسطيني الفدائي (٨). وبذا يكون طنوس امتدادًا لقيادته، في "الهيئة العربية العليا».

بينما أعلن «الاتحاد النسائي»، من مقره،في بيروت، في ١٧- آذار/مارس ١٩٦٤م- رؤيته للكيان الوليد، متمثلاً في (٩):

كيان ممثل لقوى الشعب الفلسطيني الثورية العاملة، ولكن عليه أن يكون مستقلاً، بصلاحيات مادية، وسياسية، وإدارية، وعسكرية؛

٢- منبثقًا عن انتخابات حرة، يشترك فيها جميع الفلسطينيين، ولا يُسمح - تحت أي ظرف - بأن يقوم الكيان على أساس التعيين؛

٣- انعقاد مؤتمر وطني عام، تنبثق عنه لجنة تنفيذية،دائمة الانعقاد، تنظِّم شؤون الكيان، وتُدير أعماله؛

٤- على أن يضم الكيان وحدات عسكرية فلسطينية منظمة، شأنها شأن الجيوش العربية.

أما "حركة الشباب العربي الفلسطيني»، فقد رأت،في بيانها الصادر في ٢٤آذار/ مارس ١٩٦٤م، أن يكون كيانًا ثوريًا؛ ليصبح الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى، وعليه أن يستقل، ماديًا ومعنويًا، ويكون العاملون فيه من ذوي الكفاءة، من شتى القوى الثورية، وأن يكون قادرًا على تجنيد الفلسطينيين، في وحدات عسكرية نظامية، مع تمتع أعضائه بالحصانة التامة (١٠).

توالت ردود الفعل علي بيان السيد أحمد الشقيري، بشأن اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني الفلسطيني؛ فأعلنت "الهيئة العربية العليا «رفضها قبول التعيين في اللجنة التحضيرية، وإصرارها على ضرورة الانتخاب العام، مستنكرة على الشقيري، الذي عُيِّن، بالأكثرية، من قبل الجامعة العربية، ممثلاً لفلسطين،" أن يستبعد الانتخاب العام، ويتمسك بالتعيين" (١١).

علق الحاج أمين الحسيني،رئيس "الهيئة العربية العليا": «إن مشروع الكيان، كما قدمه السيد

الشقيري، يسهِّل تصفية قضية فلسطين، وأن أميركا، والدول الاستعمارية تشرف على تنفيذ هذه التصفية! «أردف الحسيني بأن المعركة، في حقيقتها، قائمة بين العرب والاستعمار الصهيوني. (١٢). بينما رأت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني في قَطر أن الكيان ضرورة حيوية، ولكن ليس بالشكل الذي يقترحه السيد أحمد الشقيري، حيث أنه يجب أن يكون بانتخابات حرة مباشرة، ويحمل مشروعًا عسكريًا، وأن يكون الأساس الجوهري للكيان، هو تشكيل جهاز عسكري فلسطيني،حر القيادة، والإرادة، يخطط لمعركة التحرير، ويحوِّل الفلسطينيين إلى جيش ثوري حر(١٣).

هكذا، نجد أن أغلب التنظيمات الفلسطينية اتفقت على: وجوب أن يكون الكيان (مستقلاً، ماديًا، ومعنويًا، وسياسيًا، ممثلاً للشعب الفلسطيني، بجميع قواه الثورية، وأطيافه، يأتي عن طريق الانتخاب، مؤسس لجيش فلسطيني مستقل، حامل للسلاح، بالدرجة الأولى؛ لأن قضية فلسطين، لا تُحل بالسياسة).

احتج الشقيري على هذه المطالب، بأننا «نفعل، كما فعلت الجزائر؛ والجزائر لم تكن بحاجة لانتخابات»(١٤)، فكان رد الحسيني عليه، بأن الجزائر قامت بنضال طويل، ولم يكن أمامها مجال للبحث في الانتخابات. وفي القضية الفلسطينية لا يوجد،الآن،نضال عسكري حربي، وعليه: "فالطريقة الوحيدة هي إجراء انتخابات عامة،وفق القوانين الانتخابية، المعمول بها في كل بلد عربي» (١٥).

رداً علي تمسك الشقيري بإنشاء المنظمة، دون الاستجابة لمطالب الحركات والتظيمات الفلسطينية، ضاربًا عرض الحائط بمناشداتها له؛ قامت كل من «جبهة التحرير الفلسطينية (ج.ت.ف.)»؛ و»الجبهة الثورية لتحرير فلسطين»؛ «وجبهة التحرير الوطني الفلسطينية»؛ و"تكتل الفدائيين الفلسطينيين"؛و»جبهة التحرير العربية الفلسطينية»؛ و"المنظمة القومية للتحرير"، بإنشاء «المكتب السياسي للقوى الثورية الفلسطينية للعمل الموحَّد». وقد أكدت هذه القوى "أنه لم يُقصد من إنشاء هذا المكتب السياسي الوقوف في وجه ما يقوم به الشقيري، من محاولات لبناء كيان فلسطيني، ولكنها تؤمن بأن كيانًا رسميًا، يقوم على

اتصالات فردية، لن ينجح، إذا تم بمعزل عن المنظمات الثورية؛ وعليه،ستسعى القوى المشار إليها،من خلال هذا المكتب، لإيجاد كيان فلسطيني ثوري فعَّال،تتكون عناصره الأساسية من تنظيم سياسي - عسكري- مالي- إعلامي»(١٦).

على أن تكون مبادؤه:

١ـ عروبة فلسطين، وشعبها؛

وجوب تحريرها،بالحرب؛

أن يتولى كيان ثوري قيادة العمل الفلسطيني،نحو التحرير.

انعقاد المؤتمر الفلسطيني الأول

أثار النظام الأساسي لمنظمة التحرير عدة ملاحظات، من جانب عدد غير قليل من المشاركين في المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول، تعلقت بطرحه شعارات وأهدافًا غير واقعية، وغير قابلة للتنفيذ،ضمن أطر الواقعيْن، العربي والدولي القائميْن، غير أن ذلك لا يقلل من الأهمية التاريخية لخطوة إنشاء المنظمة.

تأسيس المنظمة

جاءت ردود الفعل على المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول، مخيِّبة للآمال الفلسطينية المعقودة عليه.

حيث رأت «حركة القوميين العرب» أن الشقيري تعرَّض لضغوط من الحكومات العربية الرجعية، ما يشكل انحرافًا، وتقويضًا مقصودًا للكيان، ولكن رضوخ الشقيري يشكل تقويضًا وانحرافًا مماثلين... واستنكرت الحركة موقف الحكم الأردني، وضغوطه، وتسلطه،الذي وصل حد المنع التعسفي لأعضاء من المؤتمر الوطني الفلسطيني من دخول الأردن؛ ما أدى إلى منظمة لا علاقة لها بالجماهير، وإلى إلغاء قاعدة، لا يمكن لمنظمة تحرير حقيقية أن تقوم بدونها، وهي قاعدة التنظيم العسكري. إيمانًا من «الحركة» بأن كيانًا رسميًا يقوم على

اتصالات فردية لن ينجح، إذا تم بمعزل عن المنظمات الثورية (١٧).

يبدو أن «الحركة» تغافلت عن أن ميزان القوى بين الدول العربية «الرجعية» وبين الشقيري كان مختلاً، تمامًا، لصالح تلك الدول. ما دعا برهان الدجاني- القريب "من الحركة"- إلى القول "إن المهمة الأولى التي يتطلع إليها السيد الشقيري، على ما يبدو،بعد انتهاء المؤتمر،هي التوصل إلى نوع من التفاهم المستمر مع الحكومة الأردنية،حول طبيعة الأعمال لمنظمة التحرير عمومًا، وحول أعمالها في الأردن، بالذات».

علقت «الهيئة العربية العليا» على انعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول، بأن «...الهدف الحقيقي هو إنشاء كيان فلسطيني هزيل، تُفرض عليه صفة الشرعية؛ لينطق باسم الشعب الفلسطيني، وليكون مستعدًا،في ظروف مقبلة مهيأة، وبعد أحداث مفتعلة؛ للموافقة على خطة التسوية، بل وتصفية القضية الفلسطينية...وبذلك يحاولون تحميل أهل فلسطين أنفسهم مسؤولية الموافقة على هذه التصفية». وقد وصفت الهيئة المؤتمر بأنه «مؤامرة صهيونية استعمارية، تهدف إلى تصفية القضية الفلسطينية «. لذا، أعلنت الهيئة عن مشروعها «الكيان الفلسطيني الشعبي"، كإجراء اتخذته، لمقاومة خطر تصفية القضية الفلسطينية، و «تفاقم جهود الأعداء، لتصفية قضية فلسطين»(١٨).

رد نقولا الدر -عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية- على هذا الهجوم،بأن " المنظمة جزء معنوي يختلف، كل الاختلاف، عن أي جهاز ينشأ عنها، وبهذا المعنى لا يجوز لأي فلسطيني، وبأي حال من الأحوال، ولا لأي سبب من الأسباب، أن يهاجم المنظمة، وقد يكون له الحق أن يهاجم المؤتمر الوطني، أو اللجنة التنفيذية"(١٩).

أما «الاتحاد العام لطلبة فلسطين»، فهاجم ما جرى في المؤتمر، وبثَّه لشعارات خطيرة، مثل: «أحصل على ما تستطيع الحصول عليه،ثم أعمل للحصول على الباقي»، وكيف «أن الخضوع لهذا المنطق يجعلنا نرضى بالهياكل الشكلية، التي وُجدت لعرب فلسطين،بعد النكبة، ونقبل بالزعامات القديمة». وأخذ الاتحاد على المؤتمر فشله في خلق منظمة قائمة «على قاعدة شعبية منظمة، وقيادة جماعية، وخطة لبناء الجيش الفلسطيني». أردف الاتحاد بأن الطريق

الوحيد هو «أن تعتبر اللجنة التنفيذية، التي شكَّلها الشقيري، نفسها لجنة تحضيرية لمؤتمر حقيقي، يمثل القوى الثوريةالفلسطينية»(٢٠).

لقد كان موقف الاتحاد هنا متسقًا مع « حركة القوميين العرب «،التي كانت تسيطر على الهيئة التنفيذية للاتحاد، آنذاك.

لكن الاتحاد عاد،عقب انتخاباته، آخر العام ١٩٦٤م،في غزة، ليعلن أنه «جزء من كيان منظمة التحرير الفلسطينية» ويُعدُّ نفسه أحد تنظيماتها(٢١).

عبَّرت "حركة فتح»عن رأيها،من خلال مجلتها «فلسطيننا»، حيث دعت إلى: "أن يكون الكيان ذا مضمون ثوري، ومرتكزًا للثورة المسلحة، وليس بديلاً عنها، وأن يكون التنظيم العسكري أساسًا للكيان الفلسطيني».وأكدت «فتح» موقفها، بشكل تطبيقي، عندما بدأت الكفاح المسلح،بعد أشهر قليلة من إعلان قيام المنظمة، ودعت «فتح» منظمة التحرير الفلسطينية، في بيان وزع على أعضاء المجلس الوطني،في دورته الثانية، في القاهرة،في أيار/ مايو ١٩٦٥م،إلى سلوك درب «العاصفة»، الجناح العسكري لـ «فتح»، ودعت «فتح»، في مذكرة إلى مؤتمر القمة العربي الثالث،في الدار البيضاء، في أيلول / سبتمبر ١٩٦٥م،إلى استعدادها للتعاون مع المنظمة، شريطة إبقاء القيادة بيد الشعب الفلسطيني. ووصفت"فتح" المنظمة بأنها «وليدة مؤتمر القمة"،وسوف تنعكس عليها طبيعة التناقضات الخاصة بهذه المؤتمرات (٢٢).

عقدت" جبهة التحرير الفلسطينية « مؤتمرًا موسعًا، لجميع كوادرها في الوطن العربي؛ لتقرر الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وتأييدها لقيامها، محذِّرة من أن تقع في المحاور العربية، وأن تتبع نظامًا عربيًا، أو تُؤثر نظامًا على آخر(٢٣).

علق شفيق الحوت - مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان- بأن "المنظمة أروع مما تنبأ به الآخرون، في الوقت نفسه دون ما تمناه الثوريون"(٢٤).

بينما رحب «الحزب الشيوعي الأردني»، بوصفه أحد المعبِّرين الرئيسيين عن التيار الشيوعي،في إطار الفكر السياسي الفلسطيني، واتخذ موقفًا إيجابيًا من قيام منظمة التحرير الفلسطينية،

حيث أعرب، في الاجتماع الموسع للجنة الحزب المركزية، المنعقدة في أوائل تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٤م،عن «تأييد ومساندة الشيوعيين في الأردن، لإنشاء الكيان الفلسطيني، ومنظمة التحرير الفلسطينية»(٢٥).

أما في قطاع غزة، فقد رحب الشيوعيون،أيما ترحيب،بولادة المنظمة، واعتبروها الأرضية، التي يجب أن تتحالف فوقها كل القوى الوطنية الفلسطينية (٢٦).

اختلف الموقف،عندما التقى قادة الأحزاب الشيوعية العربية، على هامش المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي،في موسكو، واتفقوا على إصدار بيان عن أوضاع الوطن العربي، ولاحظ القائد الشيوعي الأردني المعروف، عبدالعزيز العُطي أن مشروع البيان خلا من الإشارة إلى منظمة التحرير، فكلفه القادة العرب كتابة ما يراه مناسبًا؛ وحين كتبه، عمدوا إلى تعديله،قبل نشره، فلم يرض عنه القائد الأردني (٢٧).

هكذا، ظلت المنظمة أسيرة للأنظمة العربية المتناحرة، حد الاقتتال، وحمل السلاح ضد بعضها البعض، بدلاً من توجيهه نحو العدو، محققة نبوءة القوى الفلسطينية المختلفة،ومخاوفها، ذلك أن الأنظمة التي أضاعت فلسطين،في العام ١٩٤٨، لم تكن لتسمح لمنظمة التحرير الفلسطينية،أو أي كيان آخر، بإعادتها.

الهوامش

١- معين بسيسو، «حركة التحرير الفلسطينية والوحدة الوطنية داخل منظمة التحرير»، الأهرام)القاهرة(، ١٩٦٥/٢/٨.

٢- فرسان إبراهيم صالح تايه، «القضية الفلسطينية في فكر حزب البعث العربي الاشتراكي» ١٩٤٧- ١٩٧٨،القدس، جامعة القدس، ١٩٨٧، مخطوط – الفصل الرابع

http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/٢٣٤٠٨١/٠٢/٠٨/٢٠١١.html

٣- خيري حماد، «الطريق إلى مؤتمر القدس»،الأهرام (القاهرة)،١٩٦٤/٦/١٤.

٤- الحياة (بيروت)، ١٩٦٤/١/١١.

٥- برهان الدجاني (إشراف)، «الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤م" بيروت، مؤسسة الدراسات

الفلسطينية،١٩٦٦، ص٩٣.

٦- المرجع نفسه، ص٩٤.

٧- عناد أبو وندي،"موقف الشيوعيين من الكفاح المسلح وتأسيس قوات الأنصار" مركز دراسات وأبحاث الماركسية واليسار، ٢٠٠٩/٧/٦ .

http://www.ahewar.org/debat/s.asp?aid=١٧٧٢٧٣&t=٤

٨- الحياة (بيروت)،٣/١٨ ١٩٦٤.

٩- الدجاني، مرجع سبق ذكره، ص٩٧.

١٠- المرجع نفسه، ص٩٨.

١١- المرجع نفسه، ص٩٨.

١٢- المرجع نفسه، ص٩٩.

١٣- المرجع نفسه، ص ٩٨.

١٤- المرجع نفسه، ص٩٩.

١٥- الحياة (بيروت)،١٩٦٤/٤/١٢.

١٦- الدجاني، مرجع سبق ذكره، ص١٠٠.

١٧- المرجع نفسه، ص١٠٣.

١٨- فلسطين (بيروت)، العدد الرابع، السنة الأولى١٩٦٤/١٢/٢٠.

٢٠- الدجاني، مرجع سبق ذكره، ص١٠٥.

٢١- مركز المعلومات الوطني الفلسطيني – وفا.

٢٢- المرجع نفسه..

٣- منظمة التحرير الفلسطينية كما يراها «شفيق الحوت»، الحلقة الرابعة، الجزيرة.

https://bit.ly/3GWiBGi

٢٤- فلسطين (ملحق المحرر)، بيروت، منظمة التحرير في عام – ثلاثة ردود من داخل المنظمة –في محاولة لتقييم التجربة موضوعيًا، العدد ١٥، ١٩٦٥/٥/٢٠.

٢٥- أبو وندي، مرجع سبق ذكره.

٢٦- جلسة مع المؤرخ الفلسطينى عبدالقادر ياسين، في منزله، بالقاهرة،٢٠١٤/٨/٣٠.

٢٧- عبد العزيز العُطي، «من شاطئ غزة إلى صحراء الجفر"، عمان، إصدار خاص، ٢٠١٢، ص١٦٠-١٦٧.

الأصداء الإقليمية

نظيمة سعد الدين

تأسست منظمة التحرير، العام ١٩٦٤،بغرض تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني، وطرد العصابات الصهيونية، القادمة من وراء البحار، ومن كافة أصقاع الأرض، والتي قتلت، ودمرت، وطردت، وعاثت، خرابًا في فلسطين. فكان الهدف من تلك المنظمة أن تكون مظلة، ووعاء، يجمع جهود أبناء الشعب الفلسطيني، وينظمها، لإنجاز التحرير والعودة.

منذ إنشاء جامعة الدول العربية، سنة ١٩٤٥، قررت الدول العربية المؤسسة لها أن يكون لفلسطين مندوب،يمثلها في الجامعة،على الرغم من كون فلسطين كانت لا تزال تحت الانتداب البريطاني، آنذاك.(١)

لقد ظلت فلسطين ممثلة في الجامعة العربية،حتى بعد نكبة ١٩٤٨، حيث تزايد، وعظم الاهتمام بهذا التمثيل، وقد تعاقب على تمثيلها في الجامعة كلً من موسى العلمي،وأحمد حلمي عبد الباقي،وأحمد الشقيري.(٢)

ردود الفعل الرسمية العربية:

تفاوتت مواقف الدول العربية، بين تأييد الكيان الفلسطيني، ورفضه، خلال جولة الشقيري في العواصم العربية،وإثر حصوله على موافقة الأردن، أصرت سوريا على أن يحصل الكيان الفلسطيني على السيادة، على كل من الضفة الغربية، وقطاع غزة، وفي الوقت الذي كان

المسؤول الفلسطيني يجري الاتصالات مع القادة البعثيين، في دمشق، كانت وسائل الإعلام السورية تشن هجومًا على الشقيري، وعلى مشروع الكيان المقترح، مطالبة بإقامة الكيان عن طريق الانتخاب(٣)؛ في الوقت الذي جاء الحكم البعثي في دمشق بانقلاب عسكري، أبعد ما يكون عن الانتخابات !

من جهة أُخرى، أعلن العراق موافقته الكاملة على الكيان، واستعداده لتقديم التسهيلات له؛وعكس موقف العراق هذا،وارتباطه بوجهة النظر المصرية، خاصة بعد نجاح انقلاب الرئيس عبد السلام عارف، ضد حلفائه السابقين من البعثيين، خريف ١٩٦٣؛ ويرجع ذلك إلى علاقة الحكم العراقي الجديد الوثيقة بالرئيس عبد الناصر. (٤)

هكذا، انعكست مواقف كل من دمشق، وبغداد تجاه القاهرة، على موقف العاصمتيْن من الكيان الفلسطيني، والذي تحمست له مصر؛ أما موقف السعودية،التي كانت هي الأُخرى، على خلاف مع عبد الناصر، فقد كان قريبًا من الموقف السوري الرافض،وإن اختلفت الأهداف، والأسباب (٥).

في الوقت الذي تابع الشقيري جولته في العواصم العربية، كانت حكومات هذه الدول تعلن عن مواقفها من الكيان الفلسطيني، وباستثناء الأردن، وسوريا، والسعودية، فإن بقية الدول العربية، التي زارها الشقيري،وهي العراق، ولبنان، والكويت، وقطر، والبحرين، والسودان، أعلنت تأييدها للكيان،وظهر،فيما بعد، أن حكومة المملكة السعودية كانت تؤيد الكيان، ولكنها ترفض أن يتزعمه الشقيري،بالذات (٦).

هنا، نرى موقف الحكم السوري غير الصريح، حيث أنه لم يعارض قيام الكيان، ولكنه وضع عوائق، لكي ترفض دولة، مثل الأردن، قيام الكيان،ونجد أن سوريا وقفت، هذا الموقف،لأنها افترضت أن الكيان سيكون لعبة في يد عبد الناصر. وهكذا، استمرت مواقف الدول العربية، الرافضة والمؤيدة للكيان الفلسطيني، على ما هي عليه، حتى انعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول،بالقدس (١٩٦٤).

بالنظر إلى تلك الحقبة الزمنية، التي تميَّزت بالمد القومي،نجد العديد من المؤشرات،التي

عبَّرت عن صدق النيَّة، وجدية النضال من أجل تحرير فلسطين، والكفاح من أجل حرية العرب، وكرامتهم.

لقد وجدت إشارة الرئيس عبد الناصر إلى القواعد العسكرية الأجنبية في ليبيا، تجاوبًا سريعًا من الحكومة الليبية، فأصدرت بيانًا، في اليوم التالي لخطاب الرئيس عبد الناصر، أكدت فيه، تأكيدًا قاطعًا، بأنه ليس لديها أي اتجاه،أو تفكير، لتجديد، أو تمديد الاتفاقيتيْن،البريطانية والأميركية، بصدد هذه القواعد(٧).

كذلك، ألقى اللواء أمين حافظ، رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة السورية، خطابًا،بتاريخ ١٩٦٤/٣/٨،بمناسبة مرور عام على ثورة ٨ آذار/مارس ١٩٦٣، في سوريا،قال فيه إن «معركة التحرير تستلزم بعث الكيان الفلسطيني من جهة،ودعم الأمة العربية كلها لهذا الكيان من جهة أُخرى».وإن تحفَّظ الحافظ بأن مثل هذا الكيان يجب أن يكون حقيقيًا، وفي مستوى عدالة القضية (٨).

مع اقتراب موعد مؤتمر القمة العربية الثانية، مطلع أيلول / سبتمبر ١٩٦٤، تميَّزت البيانات العربية الرسمية بروح المهادنة، بشأن الخلافات العربية – العربية، والتفاؤل بالمستقبل (٩).

مثلت رؤية عبد الناصر للمنظمة دعمًا لها، باعتبارها، في رأيه، «نتيجة هامة من نتائج العمل العربي الموحَّد... [في مواجهة] قوى الاستعمار والصهيونية»؛التي كانت تعتقد بأن تصفية شعب فلسطين، هو السبيل لتصفية القضية؛ إلا أن قيام (منظمة التحرير الفلسطينية)،أتى ليثبت عجز تلك القوى عن تصفية الشعب الفلسطيني، ومن خلال (المنظمة) أصبح ممكنًا إحياء وجود شعب فلسطين، و في ذلك إحياء للقضية كلها(١٠).

أما الأمير فيصل، رئيس وفد السعودية، فشرح موقف بلاده بهذا الشأن، على النحو التالي(١١):-

السعودية لا تعارض إنشاء الكيان الفلسطيني،وإنما تتحفظ على الطريقة التي تم بها إنشاؤه؛ كما ترى السعودية أن هناك جماعات من الفلسطينيين لا تؤيد التنظيم، الذي انبثق عن عملية إنشاء الكيان.

بعد صدور القرار

إثر انتهاء الجلسة الختامية لمؤتمر القمة الثاني،في يومه السادس (٩/١١ /١٩٦٤)، صرح الشقيري، رئيس «منظمة التحرير الفلسطينية»، بأن قضية فلسطين «قد وُضعت، في هذا اليوم، على أول الطريق لتحرير فلسطين، فقد وافق مجلس الملوك والرؤساء على قرارات هامة، وخطيرة، بالنسبة لقضية فلسطين، بالإجماع، وصدرت هذه القرارات في جو عربي أصيل، يتسم بالجد والعزيمة، كما اتسم بالمروءة،وبالنخوة العربية»(١٢).

بالنظر إلى جملة الاعتراضات الرسمية العربية،على قيام المنظمة، فقد دار النقاش والجدل،حول ثلاثة أمور(١٣):

١- إعلان قيام المنظمة: رأت بعض الوفود العربية أن الشقيري، بالدعوة إلى عقد المؤتمر الوطني الفلسطيني،وبإعلان قيام «منظمة التحرير»، تجاوز السلطات التي أعطاه إياه مؤتمر القمة العربية الأول، حيث اقتصرت تلك السلطات على تكليفه بإجراء الاتصال مع أبناء فلسطين، والحكومات العربية، فيما يتعلق بالشكل الذي يرونه لتنظيم الشعب الفلسطيني،على أن يعود الشقيري بنتائج الاتصالات إلى مؤتمر القمة الثاني، فيقرر فيها المؤتمر ما يراه مناسبًا.

٢- إنشاء جيش التحرير الفلسطيني: اعترضت بعض الوفود العربية،خاصة وفديْ الأردن،والسعودية، على تشكيل قوات مسلحة فلسطينية، ذات قيادة مستقلة، ورفضتا أن تسمح بتجنيد الفلسطينيين المقيمين فيهما، أو أن تتمركز قوات فلسطينية على أراضيهما؛ وبالمقابل، فقد رحبت وفود عربية أخرى بقيام هذه القوات، وأبدت استعدادها للسماح لها بالعمل فوق أراضيها.

بذل وفد منظمة التحرير جهودًا كبيرة، للخروج بقرار عربي، حول الموضوع العسكري، الذي يشكل عماد الكيان الفلسطيني، ووافق، منعًا لإثارة بعض الوفود، على أن تنشأ كتائب فلسطينية مسلحة، من أبناء فلسطين،المقيمين في مصر، وقطاع غزة، وسوريا،والعراق،بدلاً من «جيش التحرير الفلسطيني «،كخطوة أولى،على أن تخضع هذه الكتائب لقيادة فلسطينية

واحدة،وتصبح جزءًا من جيش التحرير الواحد، حين تسنح الفرصة بإنشائه.

٣- الدعم المالي: وافق المؤتمر، بعد تردد بعض الوفود، على تقديم مليون دينار أردني،سنويًا، لتغطية نفقات إنشاء القوات المسلحة الفلسطينية، بالتنسيق مع «القيادة العربية الموحدة»،ومليون آخر، يُدفع للصندوق القومي الفلسطيني، مباشرةً، للمساعدة على تغطية نفقات منظمة التحرير،غير العسكرية.

بعد التأسيس

يصف الشقيري، في مذكراته،وضع المنظمة من الدول العربية، فيقول: «ما أشقى الشعب الفلسطيني، وما أتعسه. كنت في عمان، فقالوا إن م. ت. ف. جهاز مصري؛ وسافرت إلى دمشق،فقالوا إن الشقيري سلَّم المنظمة للملك حسين؛ وها أنا في بغداد، أسمع منكم أن جيش التحرير فيه عناصر بعثية، تدبِّر خطة للقيام بانقلاب في العراق؛ فلم يبق أمامنا إلا أن نُلقي بالشعب الفلسطيني في البحر، ليستريح،وتستريحون!» (١٤)

يعكس هذا الكلام الأزمات التي تعرضت لها منظمة التحرير، في بدايتها، مع بعض الدول العربية، حيث كان من المفترض أن تواجه المنظمة العدو الصهيوني، بل وجدناها عانت،خلال سنواتها الأولى، من مواجهات مع دول عربية، والمحاولات الدائمة للمنظمة، في سبيل تحسين علاقاتها مع تلك الدول.

تفهمت الكويت طبيعة الكيان الفلسطيني،وأيدته، وهو في المهد، وكانت من الدول العربية التي شجعت قيام الكيان، رسميًا وشعبيًا (١٥)؛أساسًا لأن الحكم الكويتي نأى بنفسه عن أي خلافات مع أي دولة عربية،ناهيك عن أن ذاك الحكم لم يكن ضمن أعضاء «نادي المنتفعين بالقضية الفلسطينية».

كانت الكويت في طليعة الدول العربية التي وافقت على خصم ٥٪ من رواتب الفلسطينيين العاملين فيها، كضريبة تحرير،تُدفع لمنظمة التحرير؛ كما اختار الشقيري أحد الضباط الفلسطينيين العاملين مع الجيش الكويتي، وهو وجيه المدني، قائدًا لجيش التحرير الفلسطيني،

وكانت المنظمة تُرسل المتطوعين الفلسطينيين، بعد إتمام تدريبهم العسكري في الكويت، إلى العراق،ليلتحقوا بقوات جيش التحرير الفلسطيني هناك. كذلك قدمت الكويت الدعم المالي لجيش التحرير، وللمنظمة، إلى جانب وقوفها مع المنظمة، في الاجتماعات، والمؤتمرات، العربية والدولية(١٦).

حذت الجزائر، والعراق حذو الكويت، في تعاملهما مع المنظمة، بتفهُم،وتأييد الكيان الفلسطيني، منذ بدايته (١٧).

يذكر الشقيري بأن الموقف السعودي منه قد تأثر بعاملَيْن: الأول أن الأمير فيصل كان قد اعترض على اختيار الشقيري رئيسًا للمنظمة،على الرغم من خدمة الأخير، عدة سنوات، ممثلاً للسعودية فى الأُمم المتحدة. ويعترف الشقيري بأنه أدى دورًا مؤيدًا للنظام الجمهوري في اليمن، وهو ما كانت تعارضه السلطات السعودية، التي استغنت عن خدماته، في آب/ أغسطس ١٩٦٣؛ أما العامل الثاني، فكان تأييد الشقيري لعبد الناصر، بينما كانت علاقة الرئيس المصري سيئة مع السعودية، بسبب حرب اليمن(١٨).

لم تستمر العلاقة الحسنة بين المنظمة والسعودية طويلاً، (التي تحسنت عقب قيام الشقيري بشرح موقفة من حرب اليمن للملك فيصل)،بل تدهورت،بعد زيارة الشقيري للصين، وتوقفت السعودية، إثر ذلكَ عن دفع مستحقاتها المالية للمنظمة، وجيش التحرير، بذريعة أنها « أصبحت لا ترى في الشقيري الشخص الجدير بتمثيل الكيان الفلسطيني، المنبثق عن مقررات القمة». وجاء موقفها هذا، دعمًا للأردن، في خلافه مع الشقيري(١٩). بعد التغييرات فى قيادة منظمة التحرير، أواخر العام ١٩٦٧،تحسَّن الموقف السعودي،نسبيًا، تجاه المنظمة، من خلال علاقاتها، التي توطدت، أولاً بأول، مع» فتح»، التي أصبحت لها اليد الطولي في تقرير شؤون المنظمة، بعد صيف العام ١٩٦٨ (٢٠).

لم يختلف موقف تونس من إعلان قيام المنظمة عن موقف سائر الدول العربية، فقد أكدت تونس على استعدادها للمساهمة بقسطها، في تنفيذ كل قرارات مؤتمر القمة، تضامنًا مع إخوانها،وتفاؤلاً بما أظهرته اجتماعات القمة من عزيمة. (٢١)

الدول الإسلامية

تجاهلت إيران الإعلان عن قيام «منظمة التحرير الفلسطينية»،إلى أن جاءت الثورة الإسلامية الإيرانية(ربيع ١٩٧٩)،وقد كان هذا التجاهل نتيجة طبيعية للعلاقات الوطيدة بين إيران بهلوي، وكل من الولايات المتحدة،و إسرائيل (٢٢).

قال ديفيد جولان D.Golan،رئيس دائرة التعاون الدولي بوزارة الخارجية الإسرائيلية، إن لبلاده سبعمائة خبير، يعملون في أكثر من ثلاثين قطر آسيوي،وإفريقي،وأميركي لاتيني، وأن حوالي ثلاثة آلاف شخص من هذه الأقطار يتدربون،سنويًا، في إسرائيل، لفترات مختلفة،في مجالات تتراوح بين التدريب العسكري، وقيادة الشباب، والزراعة،وتنمية الموارد المائية. أردف جولان إن قناعة هذه الأقطار «بأن مايتعلمه أبناؤها في إسرائيل،لايمكن لأي بلد آخر أن يعلِّمهم إياه»، وهو مايجعلها « تقف، بصلابة، أمام الضغط العربي، للامتناع عن التعاون مع إسرائيل».وكانت إيران من بين تلك الدول.(٢٣)

لم تُنكر إيران وجود ممثل» الوكالة اليهودية «، دورييل، الموظف فى وزارة الخارجية الإسرائيلية، بدرجة سفير، وليس صحيحًا أن الدوائر الإيرانية أنكرت وجوده في إيران،ولكنها أنكرت أن تكون له صفة دبلوماسية! (٢٤)

جدير بالذكر أن سيارة هذا الإسرائيلي حملت عبارة «سياسي-طهران»،وقد أراد أن يضع كلمة» إسرائيل «،كما يضع السفراء أسماء دولهم،ولكن الحكومة الإيرانية منعته من ذلك،على أنها لم تمنعه من الإبقاء على كلمة «سياسي» على سيارته.وقد مُنح المذكور،من قبل حكومته،سلطات واسعة، ورصدت له مخصصات مالية ضخمة.(٢٥)

لقد أدى تدريب منظمة التحرير، عسكريًا، عناصر الثورة الإيرانية،ردة فعل طبيعية،بتعزيز التقارب بين الثورة الإيرانية، والثورة الفلسطينية. وبعد عودة آية الله الخميني إلى إيران، في ١ شباط/فبراير ١٩٧٩، حضر ياسر عرفات، في ١٩٧٩/٢/١٧،إلى طهران،بترتيب مع محمد منتظري،وجلال الدين الفارسي؛ وكان عرفات أول زائر رسمي لإيران، ورفع العَلَم الفلسطيني على مقر البعثة الإسرائيلية،حيث أصبحت مكتبًا لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعُيِّن هاني

الحسن، عضو المجلس الثوري لفتح، أول سفير لفلسطين في إيران.(٢٦)

ترددت أنباء عن أن الحكومة التركية بحثت مسألة تخفيض المساعدات الأميركية لتركيا؛واتخذت قرارًا بضرورة البحث عن الوسائل العاجلة، لتشجيع رؤوس الأموال الأجنبية الخاصة، حتى تحل محل المساعدات الأميركية.(٢٧)

علمت إسرائيل بقرار الحكومة التركية هذا، فاستغلت الموقف، وأجرت عدة اتصالات غير رسمية مع الخارجية التركية، دارت حول قيام إسرائيل،ومن ورائها الصهيونية العالمية، بالضغط على الشركات الأميركية والصهيونية، والشركات المتعاونه معها، على استثمار أصولها في تركيا.(٢٨)

لقد تميزت مواقف الحكومات التركية المتعاقبة إزاء العرب، بعد الحرب العالمية الثانية، بالبرود، بعد اعتراف تركيا بالكيان الصهيوني، وإقامة علاقات دبلوماسية معه،العام ١٩٤٩، وانضمام تركيا لحلف شمال الأطلسي، العام ١٩٥٢، ما جعل سياستها تتماشى مع سياسة الولايات المتحدة الأميركية،أكثر فأكثر؛ (٢٩) ولعل ذلك ما دفع تركيا لأن تلوذ بالصمت،حيال تأسيس.م.ت.ف..

جرى، في ١٩٦٥/٥/٢٨،تجديد الاتفاقية التجارية بين تركيا وإسرائيل.وبلغ حجم التبادل التجاري بينهما ١٧,٥مليون دولار.و استوردت إسرائيل، بموجب هذه الاتفاقية، السكر، والذُرة، والدخان، في حدود أربعة ملايين دولار،وصدَّرت إسرائيل لتركيا ماقيمته ١٣,٥مليون دولار،من الفوسفات، والمصنوعت البلاستيكية، والخيوط الصناعية، والأدوات الكهربائية، والمنتجات الكيميائية.(٣٠)

يلاحظ أن رد الفعل التركي تجاه إسرائيل،بعد خسارة العرب حرب العام ١٩٦٧، قد اشتد، إلى حد كبير،حيث وضعت تركيا ثقلها إلى جانب العرب. (٣١)

عودة إلى المجال العربي

لقد انتهت تجربة الشقيري المؤلمة مع أنظمة الحكم العربي، أثناء مؤتمر الخرطوم، وما تلاه من تقديم استقالته المشهورة. وقد وصف الشقيري هذه التجربة الطويلة، المُرَّة، بهذه

الكلمات: « قضيت أيامي وأعوامي في منظمة التحرير، وفي عنقي ثلاثة عشر حبلًا، يمسكها ثلاثة عشر ملكًا، ورئيسًا؛ وما أشد أن يقع المرء في حلبة الصراع، حين يكون المتصارعون هم الملوك، والرؤساء،وأنكى من ذلك كله، أن تكون الضحية هي (قضية فلسطين) «(٣٢).وقد أصر الشقيري على الاستقالة، واعتذر عن عدم العودة عنها، قائلًا: « ليست لي مشكلة مع الشعب الفلسطيني، ولا مع الجماهير العربية... إن مشكلتي مع الملوك والرؤساء؛ أنا لا يمكنني العمل معهم... ولا يمكن العمل بدونهم... وهذه هي المشكلة !» (٣٣)

الهوامش

١. منظمة التحرير الفلسطينية، تقرير،جامعة الأزهر،غزة ـ فلسطين،كلية العلوم الطبية التطبيقية،تحت إشراف،د. عيسى أبوحمام، أكتوبر ٢٠٠٩م،ص٣.
٢. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
٣. أسعد عبد الرحمن (مشرفاً)، منظمة التحرير الفلسطينية، جذورها، تأسيسها، مساراتها، نيقوسيا، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٧. (انظر: د. أحمد نوفل، المرحلة التأسيسية [١٩٦٣ ـ ١٩٦٥]، ص٧١).
٤. المرجع نفسه، ص ٧١- ٧٢.
٥. المرجع نفسه، ص ٧٢.
٦. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٤، بيروت،مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٥، ص٩.
٧. المرجع نفسه، ص ٩-١٠.
٨. المرجع نفسه، ص ١٢.
٩. عبد الرحمن، مرجع سبق ذكره. (انظر: د. محمد علوان، العمل في الساحة الدولية [١٩٦٤ ـ ١٩٦٧]، ص٢٠١).
١٠. الكتاب السنوي لعام ١٩٦٤، مرجع سبق ذكره، ص ١٣.
١١. المرجع نفسه، ص ٢١-.٢٢
١٢. المرجع نفسه، ص ٢٢.
١٣. الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الرابع،دمشق، ١٩٨٤،ص ٣٣٠-٣٣٢.
١٤. أحمد الشقيري،من القمة إلي الهزيمة، بيروت، دار العودة ١٩٧١، ص١٦.
١٥. المرجع نفسه، ص ١١٥.
١٦. المرجع نفسه، ص ١١٥-١١٦.
١٧. المرجع نفسه، ص ١١٦.
١٨. المرجع نفسه، ص ٢٩٨.
١٩. المرجع نفسه، ص ٣٠٠.

٢٠. الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الرابع،مرجع سبق ذكره،ص ٣٣٠-٣٣٢.
٢١. د.عصام عدوان، مسار علاقة حركة فتح بالثورة الإسلامية في إيران،مجلة البدر الاليكترونية، http://www.albadronline.com/?p=٣٠٢.
٢٢. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٥، بيروت مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٧، ص٥٨-٥٨٥.
٢٣. المرجع نفسه،ص ٣٤٨.
٢٤. المرجع نفسه،ص٣٤٩.
٢٥. عدوان، مسار...،مرجع سبق ذكره.
٢٦. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٥،مرجع سبق ذكره،ص ٣٥٠.
٢٧. المرجع نفسه،ص ٣٥٠-٣٥١.
٢٨. أ.د. جاسم محمد عبد الشجيري، موقف تركيا من قضية القدس من ضوء القرارات الدولية و المؤتمرات الإسلامية، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية (بغداد)، العدد الأول،٢٠١١قسم التاريخ – كلية التربية للبنات – جامعة الأنبار،ص٨٣-٨٥.
٢٩. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٥،مرجع سبق ذكره،ص ٥٩٤.
٣٠. الشجيري، مرجع سبق ذكره،ص٨٧.
٣١. لمزيد من التفاصيل،يمكن الرجوع إلى: الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٥، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٧، ص ١٥٦ -٢٥٧.
٣٢. أحمد الشقيري، من القمة العربية إلى الهزيمة، مع الملوك والرؤساء، بيروت، دار العودة، ١٩٧٠،ص ٣٠٠.
٣٣. أحمد الشقيري، الهزيمة الكبرى، مع الملوك والرؤساء: من بيت عبد الناصر إلى غرفة العمليات، ج٢، بيروت، دار العودة، ١٩٧٣، ص ٣٠٩.

الأصداء في «المعسكر الاشتراكي»

محمد بدر الدين

كان للبعد الدولي، دومًا، أثر حاسم في مسار القضية الفلسطينية، ولم ينف بروز «منظمة التحرير الفلسطينية» هذا الدور، بل استمر في تفاعله مع استراتيجيتها، إلى حد كبير. وبين القوى الدولية، يبرز دور الدول الاشتراكية؛ فنلاحظ تباين الموقف السوفياتي عن الموقف الصيني، من مسار القضية الفلسطينية، في مختلف مراحلها، بدءًا من ظهور منظمة التحرير الفلسطينية.

الاتحاد السوفياتي

من مبدئيْ التعايش السلمي، ومحاربة الاستعمار، ودعم حركات التحرر الوطني، انبثقت عدة مواقف للاتحاد السوفياتي من القضية الفلسطينية:

فمن المبدأ الأول، انبثقت سلسلة من المواقف السلبية، في جوهرها، لعل أهمها الاعتراف بالدولة الإسرائيلية، وعدم التورُّط في حرب إلى جانب العرب، عند نشوبها؛ بينما انبثقت من المبدأ الثاني سلسلة من المواقف الإيجابية، أهمها دعم الدول العربية، في مجابهتها لإسرائيل، سياسيًا، وعسكريًا، ودبلوماسيًا، وإبقاء التعامل مع إسرائيل، في أضيق الحدود.

فوفقًا لمبدأ التعايش السلمي، أيد الاتحاد السوفياتي مشروع تقسيم فلسطين، في الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، ومن ثم كان في طليعة الدول

التي اعترفت بالدولة الإسرائيلية، بل تعامل معها، اقتصاديًا، وسياسيًا، ودبلوماسيًا، لاعتقاد السوفيات، آنذاك، بأن التقسيم، وما ينطوي عليه من إقامة دولة عربية،وأخرى يهودية، سيؤدي إلى إضعاف مركز بريطانيا الاستعماري في الشرق الأوسط، وقد ساعد على رسوخ هذا الاعتقاد، أن الدول العربية، آنذاك، كانت تسير في فلك السياسة البريطانية، وتبنِّي بريطانيا فكرة الجامعة العربية. كذلك تخلف النظم، الاجتماعية والسياسية العربية، بالمقاييس الماركسية، هذا بالإضافة إلى رفض الزعامات العربية التعاون مع الاتحاد السوفياتى، بل يقال إن مندوبي الدول العربية فى الأمم المتحدة كانوا ينفرون من مندوبى الأقطار الشيوعية، ويرفضون التفاهم معهم، حتى أن التعليمات صدرت من الحكومة المصرية إلى رئيس وفدها فى الأمم المتحدة، في ١٩٤٨، لكى يرفض أي تعامل مع الوفد السوفياتى في الأمم المتحدة؛ ولذلك تذهب بعض المصادر إلى أن قرار التقسيم قُصد به أن يكون صفعة قاسية على وجوه الزعماء العرب، من أتباع الاستعمار الغربي، وغيرهم.(١)

من المعروف أن السياسة السوفياتية في الشرق الأوسط، في الفترة التالية للحرب العالمية الثانية، سعت، أساسًا، إلى تأمين الحدود الجنوبية للاتحاد السوفياتي، حتى لا تُستخدم هذه المنطقة نقطة وثوب إلى أراضيه؛ ولذلك لطالما شجَّع السوفيات كل الحركات المناهضة للاستعمار البريطاني في هذه المنطقة؛ وعلى الرغم من كون الدولة الإسرائيلية تشكل، وبحق، برأي السوفيات، «المعقل الأمامي للإمبريالية،في الشرقين الأدنى والأوسط، وهراوة الرجعية الإمبريالية، والدعامة الرئيسية للاستعمار».(٢)

بيد أن الاتحاد السوفياتي يعترف بالدول الاستعمارية، والإمبريالية نفسها، ويتعامل معها، اقتصاديًا،و سياسيًا، وثقافيًا، وطالما أن الاتحاد السوفياتي يتعايش، سلميًا، مع الدول الاستعمارية ذاتها، فإنه يصبح من المعقول، حسب المنطق السوفياتي، أن يتعايش، ويتعامل مع الدول التي تشكل أداة في يد الدول الاستعمارية، وفي طليعتها إسرائيل.

فيما يتعلق بالفترة الزمنية التي تعنينا، يمكن القول إن الاتحاد السوفياتي قد التزم، موقفًا مؤيدًا للعرب، ولكنه غير مناهض لوجود إسرائيل. وتميَّزت تلك الفترة بالتحول العدائي

الصريح في العلاقات السوفيتية – الإسرائيلية، من ناحية، وباكتساب الموقف السوفياتى إزاء القضية الفلسطينية طابعًا أكثر تحديدًا، من ناحية أخرى.

لقد بدأت ملامح هذا التغيير، منذ أوائل الخمسينات، وتكاملت عند منتصفها، حين عقد جمال عبد الناصر «صفقة الأسلحة التشيكية»، أواسط ١٩٥٥. ولاشك أن الصداقة العربية – السوفياتية، في تلك الفترة، أدت دورًا هامًا في هذا التحوُّل. وذلك بعد ورود تقرير إلى موسكو، من شوإن لاي (رئيس وزراء الصين، آنذاك)، بعنوان «مقابلة مع جمال عبد الناصر»، جاء فيه: «أن موقفنا يحتِّم علينا مساندة القوى الوطنية، في معركتها ضد الاستعمار، والعناصر الرجعية، لأن انتصار القوى الوطنية في هذه المعركة، يعرقل محاولات الاستعمار الغربي تطويق (المعسكر الاشتراكي) بالقواعد الذريَّة فى الشرق الأوسط، كما أن إحساسي، ومنطقي، هو أن التيار الوطني هو القوة المقبلة، في الشرق الأوسط، ويجب علينا أن نتقرَّب منها، على الفور».(٣)

فقد اتضح للسوفيات حقيقة الارتباط الأصيل بين إسرائيل، والامبريالية الغربية، فلم تعد إسرائيل وسيلة لإضعاف النفوذ الاستعماري في الشرق الأوسط، كما سبق واعتقد الاتحاد السوفياتي، وإنما أصبحت وسيلة لتأكيد هذا النفوذ، فيما غدت القوى الوطنية العربية الصاعدة، هي قائدة النضال ضد الاستعمار الغربي في الوطن العربي.

لقد تأكد هذا التغيير في موقف الاتحاد السوفياتي، من الموضوعات المتفرعة عن القضية الفلسطينية، في الأمم المتحدة، فأصبح يقف، منذ العام ١٩٥٥، بجانب الدول العربية، بشكل واضح، بعد أن كان يكتفي، قبل ذلك، بالامتناع عن التصويت على القرارات التى تُتخذ بشأن تلك القضية. وبدأ يتضح، بالتدريج، أن الموقف السوفياتي إزاء القضية الفلسطينية يدور حول تنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بفلسطين، سواء بصدد اللاجئين، أو بصدد التقسيم؛ فالاتحاد السوفياتي يؤيد الحقوق المشروعة لعرب فلسطين، ويُقصد بها حقوقهم بمقتضى قرارات الأمم المتحدة، المتعلقة بالسماح للاجئين الراغبين في العودة إلى ديارهم، بأن يفعلوا ذلك، في أقرب وقت ممكن، وتعويض الذين لا يرغبون في العودة، حسب

قواعد القانون الدولي. وقد جاء هذا الموقف، في عدد من البيانات، والخطب السوفياتية؛ فقد جاء في البيان المشترك، الصادر في ١٥ آيار/مايو ١٩٥٨، عقب زيارة الرئيس جمال عبد الناصر للاتحاد السوفياتي: «بحثت الحكومتان قضية العرب الفلسطينيين، وطردهم من منازلهم، كما بحثا ما يترتب على إنكار حقوق الإنسان، من تهديد السلام، والأمن في هذه المنطقة، وتعيدان تأكيدهما تأييدهما التام للحقوق المشروعة للعرب الفلسطينيين».(٤) كما جاء في البيان المشترك، الصادر عقب زيارة وفد «حزب جبهة التحرير الوطني الجزائرية»، إلى موسكو، في ٢١ آيار (مايو) ١٩٦٥ «تضامن الحزبين مع عرب فلسطين، وتأييدهما لحقوقهم المشروعة، ونضالهم الحق، ضد الصهيونية، التي تستعملها القوى الاستعمارية لزيادة التوتر في الشرقين، الأدنى والأوسط» (٥). كما جاء في البيان المشترك، الصادر عقب زيارة الرئيس عبد الناصر للاتحاد السوفياتي، في أول أيلول/سبتمبر، ١٩٦٥ أن الاتحاد السوفياتي يؤيد، تأييدًا كاملًا، الحقوق المشروعة، التي لا تتجزأ، لعرب فلسطين. ونص البيان المشترك، الصادر في ٢ نيسان/أبريل سنة ١٩٦٦، عقب زيارة رئيس وزراء سوريا، آنذاك، يوسف زعيِّن، لموسكو، على تأييد الاتحاد السوفياتي لشعب فلسطين، الذي يسعى لاستعادة حقوقه من الصهيونية، التي يتوسلها الاستعمار، لتنفيذ مخططاته في الشرق الأوسط. كما جاء في خطاب أليكسي كوسيجين، رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي، آنذاك، في مجلس الأمة بالقاهرة، ١٧ آيار/مايو سنة ١٩٦٦، أن الاتحاد السوفياتي سيظل، كما كان سابقًا، يعطف على النضال، من أجل إعادة حقوق اللاجئين الفلسطينيين المشروعة، التى لا تُنتزع». كما نص البيان المشترك، الصادر عقب محادثاته في القاهرة: «... يؤيد الجانب السوفياتي، تأييدًا تامًا، الحقوق المشروعة لشعب فلسطين العربي، كاملة لا تتجزأ».(٦)

اتسمت العلاقات الفلسطينية - السوفياتية، بعد إنشاء م.ت.ف.، بقدر من الحذر الواضح، فلم يعترف الاتحاد السوفياتي، بعكس حكومة جمهورية الصين الشعبية، بمنظمة التحرير الفلسطينية، ورفض بالتالي أن تفتح المنظمة مكتبًا لها هناك، لأنه رأى أن المنظمة لم تصل، ولم تبلغ، بعد، مستوى المنظمات التحريرية في العالم، كجبهة التحرير في فيتنام الجنوبية، ولم

تباشر عمليات النضال المسلح، على نطاق واسع، ولم تستقطب حولها الكثرة الساحقة من أبناء الشعب الفلسطيني.(٧)

إذا عقدت لقاءات بين ممثلين عن المنظمة والمسؤولين السوفيات، فإن هذه اللقاءات كانت تتم بصورة سرية جدًا، ولا ترمي إلى اعتراف رسمي بالمنظمة، من جانب الاتحاد السوفياتي. الذي دأب، خلال تلك الفترة، على الوقوف، مرارًا، إلى جانب «الحقوق المشروعة لعرب فلسطين»، غير أنه كان يحرص على التأكيد بأن التسوية السلمية هي الأسلوب الوحيد لحل الصراع العربي - الإسرائيلي.

كمثال على الموقف السوفياتي من الشعب الفلسطيني، خلال هذه الفترة، نشير إلى ما جاء في البيان المشترك لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، والحزب الشيوعي السوفياتي، بتاريخ ٢١ آيار/مايو ١٩٦٥، من «تضامن الحزبين مع عرب فلسطين، وتأييدهما لحقوقهم المشروعة، ونضالهم الحق ضد الصهيونية، التي تستخدمها القوى الاستعمارية، لزيادة التوتر في الشرقين، الأدنى والأوسط». وعلى إثر زيارة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر للاتحاد السوفياتي، أكدت موسكو، في أول أيلول/سبتمبر ١٩٦٥، تأييدها «لحقوق عرب فلسطين الثابتة». (٨)

يتضح من ذلك أن الاتحاد السوفياتي اتخذ موقفًا معاديًا للصهيونية، كما أنه نهج خطًا سياسيًا استراتيجيًا، تمثَّل في تنفيذ قرارات الأمم المتحدة، بصفة عامة، وإقرار حقوق الفلسطينيين؛ يصاحبه خط سياسي مؤيد لمطالب الدول العربية، إلى الحد الذي لا يزيل أسس الكيان الإسرائيلي. وانطلاقًا من هذا النهج،الأيديولوجي والسياسي، وقف الاتحاد السوفياتي مع العرب، في كل مراحل الأزمة، سواء في داخل الأمم المتحدة، أو خارجها. وشهدت الفترة التي تلت إنشاء منظمة التحرير نمو علاقات صداقة قوية بين المؤسسات الجماهيرية والشعبية الفلسطينية، ونظيراتها السوفياتية، وكان من أبرز هذه الاتحادات، التي وثّقت علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي، «الاتحاد العام لطلبة فلسطين»، و «الاتحاد العام لعمال فلسطين»، و «الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية»، وتلقت هذه الاتحادات مساعدات مادية كبيرة، من نظيراتها السوفياتية، على شكل منح دراسية، في المعاهد العليا السوفياتية، ومنحًا تدريبية،

وفي المعاهد التكنيكية، ومنحاً نقابية، من أجل إعداد كوادر نقابية. كما نالت الاتحادات الفلسطينية،من نظيراتها السوفياتية، الدعم السياسي، في المحافل، والمؤتمرات الدولية، وكان أبرز أشكال هذا الدعم، أثناء انعقاد «ندوة فلسطين العالمية الأولى»، العام ١٩٦٥، التي نظمها «الاتحاد العام لطلبة فلسطين»، حيث أرسلت موسكو وفدًا، ضم ممثلين عن عدة منظمات اجتماعية جماهيرية، وأدى الوفد السوفياتي دورًا بارزًا في الندوة، تمثَّل في إقناع عدة وفود، من أوروبا، وأميركا اللاتينية، بضرورة إدانة إسرائيل، والحركة الصهيونية، والوقوف، بحزم، بجانب كفاح الشعب الفلسطيني، من أجل العودة لوطنه، وتقرير مصيره بنفسه.(٩)

بالرغم من أن الاتحادات الفلسطينية كانت تُعتبر قواعد لمنظمة التحرير الفلسطينية، فإن الموقف السوفياتي لم يكن واضحًا حيال المنظمة نفسها. وبدأت نقطة التحوُّل في علاقات منظمة التحرير بالاتحاد السوفياتي، في نهاية العام ١٩٦٨، في أعقاب الزيارة السرية، التي قام بها ياسر عرفات لموسكو، ضمن وفد ترأسه جمال عبد الناصر، في تموز/يوليو ١٩٦٨، ذلك أن زيارة عرفات هذه، مثلت إشارة البدء لاعتراف السوفيات بالمنظمة، وفصائلها.

الصين الشعبية

بالرغم من أن جميع الدول العربية رفضت الاعتراف بجمهورية الصين الشعبية، عند قيامها (خريف ١٩٤٩)، فإن الصين لم تحدد سلوكها، إجمالاً، تجاه الدول العربية، بمدى اعتراف الأخيرة بالصين. فبالرغم من أسبقية إسرائيل في الاعتراف بالصين الشعبية، كأول دولة من منطقة الشرق الأوسط، وقبل اعتراف أول دولة عربية بسبع سنوات (مصر)، فإن الصين الشعبية لم تتخل عن تأييدها للقضية الفلسطينية، كما أنها رفضت قبول رسالة التهنئة والاعتراف، التي سارعت إسرائيل إلى إرسالها لبكين. وكذلك فعلت الصين الشعبية، مرة أخرى، عندما هنأتها إسرائيل باستعادة مقعدها الدائم في مجلس الأمن الدولي، خريف العام ١٩٧١(١٠).

أدى العامل الأيديولوجي دورًا رئيسيًا فى تكييف السياسة الخارجية الصينية؛ ففي العام ١٩٦٤، أطلق الزعيم الشيوعي الصيني الشهير، ماوتسي تونغ نظرية «المنطقة الوسيطة»

الشهيرة، والتي اعتبر فيها أن التناقض الرئيس، في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ليس بين الاتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة، وإنما بين المعسكر الامبريالي، بزعامة الولايات المتحدة الأميركية من جهة، وبين الأقطار الأفريقية، والآسيوية، والأميركية اللاتينية، من جهة أخرى. فرأى ماو، في تلك الفترة المبكرة، أن أي هجوم أميركي على الاتحاد السوفياتي غير محتمل، طالما أن الولايات المتحدة لم تسيطر، سيطرة تامة، على هذه المناطق الوسيطة. كما أطلق الصينيون تعبير «الهلال العسكري»، الممتد من اليابان حتى الشرق الأوسط، مرورًا بكوريا الشمالية، وتايوان، والهند الصينية، وباكستان، وإيران، وتركيا، الذي ستسعى الولايات المتحدة للسيطرة عليه، من أجل إحكام عملية التطويق، ليس للاتحاد السوفياتي فحسب، وإنما للصين، أيضًا.(١١)

من هنا، أعطت الاستراتيجية الصينية، التي وضع أسسها ماوتسي تونغ، عناية فائقة للوطن العربي، واعتبرته بوابة آسيا من الغرب. وأدركت الصين الشعبية، كدولة آسيوية كبرى، أهمية قضية فلسطين بالنسبة للأمة العربية، وتأثرت سياسة الصين تجاه هذه القضية، إلى حد بعيد، بالبعد الأيديولوجي.(١٢)

طبقًا للأيديولوجية الصينية (الماركسية – اللينينية)، فإن آسيا، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية، هي بمثابة «ريف العالم»، بينما الأقطار المتقدمة في الغرب الرأسمالي هي «المدن»؛ وكما نجحت الثورة الصينية بحصار الريف الصيني الثائر لمدنه، الواقعة في قبضة القوة الاستعمارية الأجنبية، والرجعية المحلية، عن طريق الحرب الثورية المسلحة، فإن الطريق الوحيد لنجاح ثورات شعوب العالم الثالث، إنما يكون بحصار ريف العالم لمدنه، أي حصار الأقطار الرأسمالية في الغرب، بواسطة الثورات المسلحة في القارات الثلاث. معنى ذلك أن القضاء على الامبريالية، وتحقيق تقدم دول العالم الثالث، إنما يتأتيان عن طريق شن ثورات عالمية فحسب، أساسها العنف المسلح؛ ولهذا رأت الصين أن إيقاف الحروب الاستعمارية، ضد حركات التحرر الوطني، لا يكون إلا بالتأييد التام للحركات الثورية، وتحريك الجماهير، في كل مكان من العالم، في نضال طويل الأمد ضد الامبريالية.(١٣)

ترتب على هذه الأيديولوجية، التي تركِّز على أهمية حركات التحرر الوطني، وتعتبرها بؤرة التطور العالمي، آنذاك، عدة نتائج هامة، بصدد القضية الفلسطينية، أهمها تأييد الصين الشعبية للكفاح الفلسطيني المسلح، على أساس أنه جزء من حركة الثورة العالمية، الهادفة إلى إضعاف الاستعمار العالمي، الذي تتزعمه الولايات المتحدة؛ وعلى أساس أن الحرب الثورية في فلسطين هي نموذج للمفهوم الصيني، عن محاصرة «الريف الثوري الفلسطيني» لمدن العالم «إسرائيل».(١٤)

منذ مؤتمر باندونغ، (نيسان /إبريل ١٩٥٥) - الذي يُعد أول لقاء حقيقي بين الصين الشعبية، والدول العربية، وبالذات بعد لقاء شوإن لاي بالرئيس جمال عبد الناصر؛ وفيه قدم الوفد المصري تحليلاً لطبيعة القضية الفلسطينية، إلى شوإين لاي، الذي أبدى اقتناعه بعدالة المطالب العربية،عززت الصين الشعبية اهتمامها بمشكلات العالم الثالث، باعتباره مركز النشاط الثوري الحقيقي، في العالم الراهن؛ ومن هنا، كان اهتمام الصين بالقضية الفلسطينية، باعتبارها إحدى القضايا المتفرعة عن سعى الامبريالية الأميركية للسيطرة العالمية، وذلك طبقًا للمفهوم الصيني لجذور هذه القضية، مما دفع بالصين إلى اتخاذ سياسة محددة،وواضحة،إزاء هذه القضية.

لقد دأبت الصين الشعبية،في كل مناسبة، على تأكيد مساندتها للشعب الفلسطيني،وقضيته الوطنية،ضمن كل حركات التحرر الوطني في العالم. وخلال جولة رئيس وزراء الصين، شو إن لاي، في إفريقيا،نهاية العام ١٩٦٣،وبداية العام ١٩٦٤، أعلن لاي تأييده «لحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة، في عودته إلى وطنه «(١٥)

لذا، كانت الصين الشعبية أول دولة غير عربية تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، اعترافًا كاملاً، كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني. وقد منحت مكتبها في بكين حصانة دبلوماسية، كتلك الممنوحة للسفارات الأجنبية. وأقدمت الصين، في حينه، على نقلة استراتيجية نوعية، كان لها أثرها الواضح في تعزيز الشخصية الدولية للمنظمة. لقد عبَّرت حكومة الصين عن هذا الموقف، بأسلوب عملي، وكانت أول دولة أجنبية توجِّه دعوة رسمية لرئيس منظمة التحرير لزيارتها؛ ففي ١٧ آذار/مارس ١٩٦٥ قام وفد فلسطيني، برئاسة رئيس

المنظمة، آنذاك، أحمد الشقيري، بزيارة رسمية إلى بكين، وأجرى مباحثات مع رئيس الوزراء، شوإن لاي، ووزير الخارجية، شن لي؛ كما استقبله الزعيم، ماوتسي تونغ. وجاء في البيان المشترك، الذي صدر عقب الزيارة: «اتفق الفريقان على أن القضية الفلسطينية، في جوهرها، وهي، من الجهة الواحدة، عدوان سافر من قبل الصهيونية، تدعمها الامبريالية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية، وكفاح الشعب العربي الفلسطيني، والشعوب العربية الأخرى. ومن الجهة الأخرى، فإن إسرائيل هي أداة للعدوان، خلقتها الامبريالية الأميركية في فلسطين، مستخدمة هيئة الأمم المتحدة أداة لذلك، وتهدد الامبريالية الأميركية، بواسطة إسرائيل، الدول العربية، والبلدان الآسيوية، والأفريقية الأخرى».(١٦)

كما أكدت الصين دعمها، المادي والمعنوي، للشعب الفلسطيني، فجاء في البيان المذكور: «ويكرر الجانب الصيني التأكيد بأن شعب الصين يؤيد، بحزم، الشعب العربي الفلسطيني، في كفاحه العادل ضد إسرائيل، أداة الولايات المتحدة العدوانية، كما يؤيد مطلبه بالعودة إلى وطنه، واستعادة حقوقه كاملة في فلسطين، وفيما يتعلق بقضية فلسطين، قدمت الصين، وستستمر في تقديم التأييد لشعب فلسطين العربي، دون تحفظ».(١٧)

لقد أثار النشاط الدبلوماسي الصيني، في المجال الأفرو – آسيوي، بهذا الخصوص، نقمة الأوساط الإسرائيلية الرسمية، وقلق المسؤولين الأميركيين. وورد في أحد التعليقات على ذلك: «إن حكومة بكين تحاول استغلال النزاع العربي - الإسرائيلي، وأن تبرهن للعرب بأن تأييدها لهم أثبت وأقوى من تأييد الاتحاد السوفياتي".(١٨)

كانت الصين الشعبية هي الداعم الأساسي لمنظمة التحرير (على الصعيد اللوجستي، والتدريب). والتزمت الصين الشعبية بالمقاطعة العربية لإسرائيل «من الدرجة الأولى» (أي مقاطعة الشركات الإسرائيلية، وبضائعها، دون مقاطعة الشركات التي تتعاون مع إسرائيل)؛ وحافظت على هذا الالتزام، حتى مؤتمر القمة العربية في فاس (خريف ١٩٨٢)، الذي أقر (بموافقة المنظمة) مبادرة سلمية، استندت إلى قيام دولة فلسطينية، إلى جانب دولة إسرائيل(١٩).

الهوامش

١. محمد السيد سليم، الاتحاد السوفييتي والقضية الفلسطينية، السياسة الدولية (القاهرة)، عدد ١٧، يوليو / يوليو ١٩٦٩، ص ٣٩- ٤٥.

٢. د. صلاح دباغ، الاتحاد السوفييتي وقضية فلسطين، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، حزيران/يونيو ١٩٦٨، ص ٢٢.

٣. سليم، مرجع سبق ذكره.

٤. المرجع نفسه.

٥. الكتاب السنوى للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٧، ص ٥١٨.

٦. سليم، مرجع سبق ذكره.

٧. الدباغ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥.

٨. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٧،، ص ٥١٧ وما يليها.

٩. رفعت أبو عون، الاتحاد السوفياتي والثورة الفلسطينية ١٩٦٥ إلى ١٩٧٥، شؤون فلسطينية(بيروت)، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، العدد ٤٢/٤١، كانون الثاني/ شباط ١٩٧٥، ص ٥٧٦.

١٠. طارق إسماعيل، الصين الشعبية والقضية الفلسطينية، شؤون فلسطينية، بيروت، العدد ٣٦، آب /أغسطس ١٩٧٤، ص ١٧٩-١٨٢.

١١. سلافة حجاوي، «الصين والصراع العربي- الإسرائيلي حتى عام ١٩٨٠»، شؤون عربية، (تونس)، عدد٣٣-٣٤، نوفمبر/ تشرين الثاني- ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٣، ص ٣٦٣، ٣٨٠.

١٢. رباب يحيى عبد المحسن، «الصين الشعبية ومنظمة التحرير الفلسطينية»، رؤية، (غزة)، الهيئة العامة للاستعلامات، العدد ٢٨، آذار ٢٠٠٤، ص ١٤٨.

١٣. المرجع نفسه، ص ١٥٩.

١٤. المرجع نفسه، ص ١٦٠.

١٥. عبد القادر ياسين، كيف اخترقت إسرائيل سور الصين، النهار(بيروت)، ١٩٩٢/١٠/١٣.

١٦. أنظر: نص البيان المشترك الصيني- الفلسطيني في: أحمد الشقيري، "من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء"، بيروت، دار العودة، ١٩٧١، ص ٢٥٢.

١٧. المرجع نفسه، ص ٢٥٤.

١٨. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥٣.

١٩. عبد الفتاح القلقيلي (أبو نائل)، منظمة التحرير الفلسطينية في ميزان القوى السياسية الدولية، موقع مركز بديل الفلسطيني، حق العودة (رام الله)، العدد ٣١.

تجربة مركز التخطيط الفلسطيني من مهدها

أ.حسام أبو النصر*

في تموز عام ١٩٦٧ قرر المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الرابعة في القاهرة، إيجاد إدارة تخطيط مركزي للإعلام تنبثق عنها الأساليب التي تستعملها وسائل الإعلام الفلسطينية والعربية الرسمية والشعبية، وعاد المجلس الوطني الفلسطيني في دورته السادسة في القاهرة (شباط ١٩٦٩) إلى "التأكيد على ما ورد في قرارات الدورة الرابعة للمجلس الوطني بما يتعلق بمركز التخطيط وزيادة الاهتمام به ودعمه والاستفادة من أعماله.

وفعليا ظهر مركز التخطيط إلى الوجود في ١٨ أيلول ١٩٦٨ على يد مؤسسه يوسف الصايغ ثم تعاقب على إدارته كل من نبيل شعث ومنير شفيق وسلافة حجاوي، وكانت الغاية التي نشأ المركز في سبيلها هي وضع الخطط السياسية، والدبلوماسية والمالية، والثقافية، والعسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتحويل هذه الخطط إلى استراتجية شاملة وبالفعل وضع المركز خطة شاملة للاعلام الفلسطينية، وخطة استراتيجية للثورة الفلسطينية وكان المركز ينهج طريقة تأليف فرق عمل متخصصة من المتفرغيين في المركز وباحثين مرموقين من خارجه لدراسة مسألة محددة.

وبذلك تكون الضرورات التي ترتبت على توسع نشاط منظمة التحرير في مجال الاعلام أساساً هي التي دفعت إلى تشكيل مركز التخطيط (الدورة الرابعة)، ويكون اتساع نشاط مركز

---

* كاتب ومؤرخ، عضو الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والادباء الفلسطينيين.

التخطيط المذكور خارج نطاق الإعلام، والحاجة إلى أعماله، والتفاف المفكرين الفلسطينيين من حوله كقناة للمساهمة في النضال الفلسطيني هي التي بلورت الشكل والمهام الموكولة إلى هذا المركز، والتأكيد على الاهتمام به (الدورة السادسة). ومنذ ذلك الوقت تطور عمل وبنية مركز التخطيط إلى شكله الحالي.

مركز التخطيط والقيادة السياسية :

مركز التخطيط الفلسطيني هو مركز مختص بالدراسات والبحوث والمعلومات الخاصة بقضية فلسطين وما يمت لها بصلة. تأسس المركز بقرار صادر عن المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٦٨، كمركز تابع لرئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، لمساعدته وأعضاء اللجنة التنفيذية وغيرهم من القيادات الفلسطينية في مجال التخطيط للسياسات الفلسطينية وفي عمليات اتخاذ القرار.

كان للمركز شأن مهم في تنمية الوعي بالمسائل التربوية والعسكرية بالدرجة الأولى، وبالقضايا السياسية والإدارية بالدرجة الثانية. إلا أنه، بحكم تكوينه الوظيفي وصلته اليومية بالقيادة السياسية والاقتصار على تنفيذ ما تطلبه القيادة من تقارير وتقدير موقف تحول، بالتدريج، إلى سكرتاريا للقيادة، مهمته كتابة الرسائل والرد على الرسائل الواردة إليها، وكتابة بعض الخطب السياسية مثل خطاب ياسر عرفات في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤. ثم أن التكوين العلمي للجهاز البشري في مركز التخطيط خلال الحرب اللبنانية، وانخراط بعض أفراده في الحرب، أعاقا، في كثير من الحالات، إنجاز مشاريع ذات وزن مشهود.

أسهم مركز التخطيط الفلسطيني إسهاماً مهماً في إدخال التفكير المستقبلي أو البعيد المدى إلى عقول بعض القيادات الفلسطينية، وفي إشاعة نوع من الوعي بالقضايا ذات الطابع الاستراتيجي، وكان للتقرير السياسي الذي صدر بانتظام عن المركز شأن مهم في السجال الداخلي الفلسطيني وفي بلورة خطاب سياسي مختلف، كذلك كان لقسم الدراسات الاستراتيجية شأن في نشر جانب من المعرفة في هذا الحقل من التفكير، وإلى ذلك دأب مركز

التخطيط على إصدار التقارير الخاصة مثل تقارير قسم الأرض المحتلة والقسم التقني وقسم التخطيط التربوي، والتي كانت تُرفع إلى القيادة السياسية وتوزع على الهيئات ذات الصلة وعلى ذوي الشأن والاختصاص.

كما كان هناك دور قوي لمركز التخطيط في إثراء الحياة السياسية والفكرية على مستوى المجتمع الفلسطيني والعربي، وقدم المركز للقضية الفلسطينية والمجتمع الفلسطيني العديد من الدراسات والأبحاث النوعية، التي ساهمت في اتخاذ القرار الفلسطيني الصحيح، أو في دعم المفاوض الفلسطيني خلال المفاوضات، وكانت تتناول واقع القضية الفلسطينية والنظام العربي والدولي، وينظم المركز العديد من الفعاليات والأنشطة، كالمؤتمرات العلمية وورش العمل والندوات الفكرية والسياسية، التي تتعلق بالوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الفلسطيني والعربي والدولي.

ومنذ السنوات الأولى لتشكيله وضع خطط وتوجهات سياسة الإعلام الفلسطينية، وبوجه خاص على الساحة الدولية. وشارك في عمليات التخطيط التربوي، وما يتعلق بالمؤسسات التعليمية الفلسطينية، وفلسفة مناهج التعليم فيها. وقد أصدر المركز في ١٩٧٢ ميثاقاً في هذا الشأن بعد دراسات وبحوث مطولة قام بها الكثير من الباحثين والتربويين الفلسطينيين والعرب. وساهم المركز في إعداد وتقديم الدراسات والبحوث اللازمة للمشاركة في المؤتمرات العربية والدولية الشعبية والرسمية المختلفة، وكان يجمع البيانات والمعلومات عن هذه المؤتمرات وينسقها بالتعاون مع الدوائر المختصة في منظمة التحرير. ويعد أوراق العمل الخاصة بكل مؤتمر. ويشارك أعضاؤه أحياناً في الوفود الممثلة لمنظمة التحرير الفلسطينية، ويتمثل المركز في مختلف المجالس العليا الاستشارية في منظمة التحرير.

أصدر المركز نشرة شؤون استراتيجية ومع أن هذه النشرة اقتصرت على ترجمة أبرز ما كان ينشر في المجالات الغربية المتخصصة إلا أنها أصبحت زاداً معرفياً لا بأس به في مقاييس تلك الفترة.

وأصبح التقرير في شكله الجديد أداة هامة للوحدة الوطنية الفلسطينية. نمت العلاقة مع

غسان كنفاني وبسام أبو شريف وياسر عبد ربه وكمال ناصر، وترتب على ذلك مساهمة أكبر لمركز التخطيط في مشروعات الوحدة الوطنية وتطوير منظمة التحرير. وفي الحقيقة فقد كان لمركز التخطيط مساهمة فاعلة في تحقيق وحدة منظمة التحرير الفلسطينية وفي تحقيق التقارب الفكري السياسي بين فصائلها وفي اعداد الوثائق الأساسية للبرامج المشتركة والهياكل التنظيمية التي اقرتها اجتماعات المجلس الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية في السنوات ١٩٧١ ـ ١٩٧٦ .

أدت المشاركة القومية في اعداد التقرير، والالتزام القومي الواضح في صياغته إلى جذب الإهتمام العربي بمركز التخطيط، وباتت اجتماعات الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية تعقد في المركز، وكان الأخ أبو يوسف النجار يترأس هذه الاجتماعات . وقد عقد الاجتماع الأخير للجبهة العربية المشاركة برئاسته وبمشاركة نبيل شعث، وكمال عدوان وكمال ناصر في مركز التخطيط قبل إنصراف الثلاثة إلى منازلهم في الفردان ليلة الهجوم الاسرائيلي الإجرامي الذي أدى إلى استشهادهم. كان من دواعي أسى المركز، وباحثيه وقيادته أن التقرير السياسي كان قد رصد قبل استشهاد القادة الثلاثة خطة العدو لإغتيال قيادات الثورة في بيروت بل وأشار إلى خطورة إقامة بعضهم خارج دائرة مراكز الثورة في بيروت الغربية كالفردان والحمرا وساقية الجنزير حيث كان القادة الثلاثة يسكنون دون أدنى حماية.

نما مركز التخطيط بسرعة، رغم انتقال المركز إلى الفكهاني، بعد استشهاد القادة الثلاثة، لاشك فإن إنجازات المركز أدت إلى دعم الرئيس أبو عمار بزيادة ميزانية المركز مما سمح بزيادة عدد المتفرغين وإلى إتساع مساحة المركز إلى بناية كاملة من خمسة طوابق، ونما أيضاً الهيكل التنظيمي للمركز بإنشاء الدائرة السياسية التي ترأسها منير شفيق، فيما ترأس دائرة التخطيط التقني والأمني كمال السعدي، ودائرة التخطيط التربوي التي ترأسها نبيل بدران، ودائرة الأرض المحتلة التي ترأسها صبحي طه وأبو خالد العبيدي، ودائرة المعلومات ورئيستها حسنا رضا، وهيئة تحرير التقرير السياسي ورئيسها طاهر عبد الحكيم. وشُكلت لجنة قيادية للمركز تضم رؤساء الدوائر المتفرغين وكبار مستشاري المركز المتطوعين:

د.محجوب عمر ود.الياس شوفاني، وميشيل كامل ود.حسن الشريف، وكان يحضرها أيضاً حنا ميخائيل أبو عمر والدكتور الياس صنبر. وإنضم للمركز بعد ذلك ،نبيل الرملاوي رئيساً لدائرة المؤتمرات، ونواف سلام (السفير ورئيس بعثة لبنان للأمم المتحدة في نيوروك حاليا) كمستشار سياسي. وكانت اللجنة القيادية تجتمع يومياً في الساعة التاسعة صباحاً لتناقش الوضع السياسي وتتابع إنجازات المركز وتحل مشكلات، وكان الإفطار المفضل للجميع هو الكنافة المحشوة داخل كعكة من الحلاواني أبو علي الشهير قرب مدخل بناية مركز التخطيط.

وقد حل الإجتماع اليومي مشكلات التنسيق، وغياب المعلومات، وعدم وضوح الرؤية، واختلاط الاولويات والصلاحيات، وكلها مشكلات كانت تواجه مؤسستنا السياسية، وكانت كل دائرة تتشكل من متفرغين ومتطوعين وقد أدى نجاح المركز وسمعته إلى جذب الكفاءات الشبابية المتخصصة فلسطينية ولبنانية وعربية أخرى للعمل التطوعي في دوائره المختلفة. كما أن الأخ أبو عمار كان يرسل للمركز بعض العائدين من الخارج وكان أحدهم حاصلاً على دكتوراه في علم الآثار من جامعة براغ، لتعيينه، ومدير عام المركز نبيل شعث آنذاك أوجد لكل قادم عملاً مفيداً يقوم به، وأصبح التخطيط مركزاً لإستقطاب المثقفين الثوريين الفلسطينيين والعرب الآخرين وورشة عمل متصلة لهم وبهم .

مهام المركز :

كما قام المركز بمتابعة شؤون العدو وتطوره السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والفكري، وإعداد التوصيات والخطط اللازمة لمواجهة هذه التغيرات، وذلك بالتنسيق مع دائرة شؤون الوطن المحتل والأجهزة الفلسطينية العاملة في هذا المجال. ويقوم القسم التقني العسكري بمتابعة شؤون العدو العسكرية، ومتابعة الدراسات والأخبار العسكرية العالمية. ويصدر تقريراً يتضمن المعلومات العسكرية اللازمة للمقاتلين حول الأسلحة التي يستعملونها أو التي يستعملها العدو، كل ذلك في إطار تطويع المستحدثات العسكرية لأسلوب حرب الشعب، وتطوير تكتيكات هذا الأسلوب.

لعب مركز التخطيط دوراً مهماً في تنمية الوعي بالمسائل التربوية والعسكرية بالدرجة الأولى، وبالقضايا السياسية والادارية بالدرجة الثانية، إلا أنه بحكم تكوينه الوظيفي وصلته اليومية بالقيادة السياسية والاقتصار على تنفيذ ما تطلبه القيادة من تقارير وتقدير مواقف (على أهمية هذا الامر)، تحول بالتدريج إلى سكرتاريا للقيادة مهمتها كتابة الرسائل والرد على الرسائل الواردة اليها، وكتابة بعض الخطب السياسية مثل خطاب ياسر عرفات في الأمم المتحدة الذي أسهم فيه عدد من أصحاب الأقلام بينهم شفيق الحوت ومحمود درويش وكان لمركز التخطيط (نبيل شعث، ومنير شفيق،ومحجوب عمر) نصيب فيه. أما القيادة، فعلى الرغم من أنها تمتعت برحابة صدر لافتة حيال البحث العلمي حتى الذي لا يلائم هواها، إلا أنها طالما أهملت التفكير العلمي لمصلحة التفكير السياسي المباشر

علاقة مركز التخطيط ومركز الأبحاث :

بدأت فكرة البحث الفلسطيني بالظهور التدريجي في النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين عندما صارت الحاجة إلى الإجابة عن أسئلة النكبة شديدة الحيوية والإلحاح، وترافق ذلك، زمنياً، مع البدايات التأسيسية لحركة القوميين العرب (١٩٥٦) ولحركة فتح (١٩٥٩). لكن هذه الفكرة لم تتبلور، بصورة جدية، إلا في سنة ١٩٦٢ حينما بدأ العمل الحثيث لإنشاء مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت والتي ظهرت إلى الوجود، فعلاً، في سنة ١٩٦٣. ثم أن فكرة البحث الفلسطيني اتخذت تجسيداً جديداً وتجديدياً مع تأسيس مركز الأبحاث في سنة ١٩٦٦، ثم مع مركز التخطيط في سنة ١٩٦٨. وقد تمتع المركزان، إلى حد كبير، باستقلالية في تقرير البرامج النشرية، وبحرية نسبية في إقرار الخطط البحثية.

قدم البحث العلمي في مركز الأبحاث وفي مركز التخطيط اسهامات لامعة لا يمكن نكرانها على الاطلاق، وربما كانت الفترة التأسيسية للمركزين فترة الاخصاب الحقيقية والتي تستمر في كل منهما أكثر من عشر سنوات لكن مرحلة الضمور لم تبدأ جراء هشاشة الارادة الذاتية أو نتيجة لتدخلات القيادة السياسية، بل نتيجة لإندلاع الحرب الأهلية مما جعل البحث

والتخطيط مسألة لا تحظى بالأولوية فضلاً عن أن الكثيرين من أصحاب الكفاءات ممن لم يتمكنوا من إحتمال الأوضاع المضطربة غادروا مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية إلى الخارج لكن إذا كانت مؤسسات المنظمة لم تتمكن من إرساء تقاليد راسخة للبحث العلمي ولم تتمكن من حماية مؤسساتها القائمة آنذاك كما جرى لمركز الأبحاث لاحقاً. فالغريب أن المنظمات الاخرى التي تلقت ملايين الدولارات من العراق وليبيا والجزائر لم تتمكن من تأسيس مركز واحد ذي شأن على الرغم من محاولاتها المتكررة.

ولا ريب في أن سؤالاً لجوجاً ما برح يحوم في فضاء الكلام على هذا الشأن هو: إلى أي مدى كان مركز الأبحاث، واستطراداً مركز التخطيط، يتمتعان بالاستقلالية والحرية عن المؤسسة الأم، وهما تابعان، عضوياً، لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولا نجازف بالقول إن مركز الأبحاث ومركز التخطيط التابعين لمنظمة التحرير هيكلياً، واللذين يعملان تحت الإشراف المباشر لرئيسها، كانا يمارسان حيويتهما الفكرية باستقلال كبير، وبحرية في البحث والتفكير والنشر لم يتمتع بها أي مركز مماثل في العالم العربي، ولعل السبب كامن في أن هذين المركزين عملا بعيداً عن القيادة السياسية الفلسطينية المقيمة، آنذاك، في عمان، ورغم المناخ المضطرب قيض للبحث الفلسطيني أن ينشأ وأن يبني مؤسساته وأن ينشر على الناس خلاصة أبحاثه ودراساته، وهي أبحاث ودراسات ذات أهمية فائقة بلا شك، ولعل تجربة مراكز الأبحاث وتجربة مركز التخطيط تقدمان لنا لوحة أولية عن هذا الشأن الذي نحن في صدده.

عقد مركز التخطيط شراكة حميمة مع مركز الأبحاث، وكان مكتب الدكتور أنيس الصايغ مقابل مكتب د. نبيل شعث عبرالشارع في الطابق الخامس وكان هناك تعاون في عملهم ومتفقين على أن دور مركز الأبحاث يتعلق بدراسة الماضي والحاضر، وأن التخطيط يحتاج لمعرفة دقيقة بالماضي والحاضر ولكنه معني بالمستقبل، ولم تكن العلاقة تنافسية بل تكاملية وكان عدد من كتاب مركز الأبحاث يكتبون في مركز التخطيط وهناك من عمل في المركزين على فترات متفاوتة.

الصايغ ومركز التخطيط:

أسس يوسف الصايغ مركز التخطيط الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكان أول مدير للمركز في الفترة ما بين عامي ١٩٦٨ حتى ١٩٧١م، حيث كان عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني منذ تأسيسه عام ١٩٦٤م، وانتخب في لجنتها التنفيذية بين عامي ١٩٦٨ إلى ١٩٦٩م، ليتبع المركز مباشرة إلى رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة الذي يعين المدير العام ويكلفه المهام المطلوبة.

وتكون مركز التخطيط في عهد الصايغ من عدة أقسام بعضها دائم، وهي: القسم السياسي، قسم الأرض المحتلة، القسم التقني، المكتبة والمعلومات، القسم التربوي والاجتماعي، قسم المؤتمرات الدولية، قسم الإدارة والسكرتارية، ووحدة النسخ والطباعة. ويتبع المركز المعهد الفلسطيني للتنمية الإدارية التي بدأ كقسم للتدريب الإداري وتطور إلى معهد يدرب ويشرف على تدريب موظفي منظمة التحرير الفلسطينية على أعمال الإدارة الحديثة. واستحدث المركز قسماً للدراسات الاستراتيجية لمتابعة تطور الأفكار الاستراتيجية عالمياً. والقسم يصدر نشرة شهرية محدودة التداول بعنوان شؤون استراتيجية وهي تتضمن عرضاً للمفاهيم الاستراتيجية الدولية الجديدة ومناقشة لها. وإعتمد المركز أسلوب تكوين فرق عمل تكون أشبه بأقسام مؤقتة لمهام معينة تحددها اللجنة التنفيذية أو تتطلبها الظروف. وتتشكل فرق العمل هذه من عدد من العاملين المتفرغين في المركز وعدد مناسب من غير المتفرغين أو المتطوعين من خارجه حسب الحاجة، والعاملون في مركز التخطيط متفرغون كلياً أو جزئياً، وهم إما متعاقدون أو معينون على الملاك المالي للمنظمة، ولكن المركز كان يستعين بأعمال الكثيرين من خارجه بالمكافأة أو بالتطوع، وضم المركز باحثين وعاملين من أنحاء الوطن العربي كافة، ويستعين أحياناً بخبرة أصدقاء فلسطين من غير العرب.

لقد عمل مركز التخطيط برئاسة الدكتور يوسف الصايغ من أيام أحمد الشقيري إلى عام ١٩٧١م، وفي عام ١٩٧٠م، وضع خطة شاملة، أو مجموعة من خطط لعمل الثورة الفلسطينية في الأردن حيث كان الوجود والنشاط في بداياته وقد جمع عددا من الخبراء ومعظمهم من

أساتذة الجامعات لوضع الخطة الشاملة والجامعة لمجموعة خطط لدوائر م.ت.ف، والمكاتب التي تشكلت في عمان ما أن إنتهى وضع خطة حتى حملها بأكثر من ملف وصندوق وجاء بها من بيروت إلى عمان وانتظر في الفندق عدة أيام ليلتقي القيادة التي كانت منشغلة في إحدى الجولات الحامية مع الجيش الأردني وذلك في بدايات شهر أيلول سبتمبر ١٩٧٠ فما كان منه إلا أن عاد إلى بيروت منتظراً فرصة أنسب إلا أن تلك الجولات امتدت وصولاً إلى الجولة الأخيرة من معركة أيلول، وبعد بضعة أشهر في تموز يولويو ١٩٧١م، خرجت الثورة نهائياً من الأردن وانتقلت إلى بيروت الأمر الذي أدى عملياً إلى عدم مناقشة تلك الخطة التي أصبحت ملغاة، وأصبحت الثورة عملياً في مواجهة وضع جديد كلياً ليس في الأردن فحسب وإنما في لبنان أيضاً الذي أصبح مركز وجود الثورة والقيادة ومن ثم أصبحت الخطة أو الخطط التي وضعت للثورة في لبنان غير قادرة على التعامل مع الوضع الجديد كذلك، وعندما تأسس مركز التخطيط في منظمة التحرير في مرحلة أحمد الشقيري كان بهدف وضع خطة إعلامية لكسب الرأي العام العالمي للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٥م، أما التحول في مركز التخطيط بعد الإنتقال لمرحلة الثورة بقيادة المنظمة برئاسة ياسر عرفات والفصائل فيعني الدخول في وضع مختلف وعقلية وظروف مختلفة.

نبيل شعث ومركز التخطيط:

إلتقى شعث، بالدكتور يوسف الصايغ في الجامعة، فهو أستاذ الإقتصاد المرموق فيها، كما أنه شخصية لها وزنها في منظمة التحرير الفلسطينية، فحدثه عن مجلس التخطيط الفلسطيني الذي يرأسه، والذي يضم مجموعة من القادة السياسيين والمفكرين الفلسطينيين ومن بينهم اداورد سعيد وهشام شرابي، ومهمتهم وضع استراتيجية للنضال الفلسطيني، وترجمتها إلى خطة سياسية، عسكرية، اقتصادية، شاملة لمنظمة التحرير الفلسطينية، تعتمد من لجنتها التنفيذية، وتقوم بتنفيذها. دعا الدكتور صايغ، شعث، لزيارته في مكتب المجلس حيث عرفه بمساعديه، شريف الحسيني، وإبراهيم العابد، وطلب منه أن يشارك متطوعاً في هذا

العمل الكبير، وافق فوراً وبدون تردد وانخرط في عمل الفريق وساهم في لقاءاتهم وفي كتابة أوراقهم . ولم يرفض طلباً لعمل يستطيع أداءه، وكان هناك كثير من الاحتياجات لثورة تنطلق إلى العالم، وتحتاج إلى خطط ودراسات وتنظيم ومؤسسات، وكان الخبراء في هذا المجال ممن هم على استعداد لخدمة الثورة يعدون على الأصابع آنذاك.

ذهب شعث إلى د. صايغ، واقترح عليه أن يدعو الأخ أبو عمار، وقيادة فتح إلى ندوة مغلقة لدراسة العبر من تجربتنا في الأردن، وأن يشجع القيادة على التخطيط للمستقبل، وافق صايغ، ووافق الأخ أبو عمار، وعقد الندوة في بيت الصايغ بقرية شملان على سفح جبل سوق الغرب، وقد حضرها أبو عمار، وأبو جهاد، وأبو اياد، وأبو اللطف، وأبو السعيد، وأبو الهول، وهاني الحسن، وكمال عدوان، وصخر حبش، وقام شعث بدور المسير للجلسة الذي مارسه في برامج الإدارة العليا في المعهد القومي بالقاهرة.

إستمر عطاء شعث، حتى إستقال الصايغ، فأصدر أبو عمار قراراً من اللجنة التنفيذية بتعيين نبيل شعث مديراً عاماً لمركز التخطيط الفلسطيني في بيروت في أواخر ١٩٧١م، كان مقر التخطيط صغيراً لا يتسع إلا للدكتور الصايغ وسكرتيرته وباحثين هما: إبراهيم العابد، وشريف الحسيني، وقاعة إجتماعات صغيرة ولذلك انتقل شعث مؤقتاً من هذا المقر إلى مكان أوسع أمام مركز الأبحاث قريباً من شارع السادات، بمنطقة الحمرا في بيروت، وانطلق بعدها إلى الفكهاني بالقرب من جامعة بيروت العربية.

لم يكن شعث غريباً على مركز التخطيط الفلسطيني، فقد كان عضواً فاعلاً في المجلس الذي كان يشرف على المركز بقيادة الدكتور يوسف الصايغ، وساهم شعث في إعداد الخطة الشاملة للعمل الفلسطيني التي أعدها مركز التخطيط بمشاركة ادوارد سعيد، وهشام شرابي، وصلاح دباغ، وابراهيم العابد، وشريف الحسيني، وآخرين، حيث ساهم كل منهم في تخصصه. ولم تحظى الخطة بإهتمام كافٍ، وبقيت حبراً على ورق لذلك قرر شعث أن يغير أسلوب العمل وأن يشرك الجميع في إعداد الخطط وفي تنفيذها، وكان لابد من الاستعانة بمتخصصين ومثقفين، وقد أنجب الشعب الفلسطيني وكون جيشاً منهم في كل تخصص، ولكن

مركز التخطيط وُجد للثورة الفلسطينية، وكان يجب أن يكون مع الناس ويعمل معهم ولهم، فقرر الانتقال من منطقتي السادات والحمرا، حيث يسكن صفوة القوم إلى الفكهاني والجامعة العربية ومستديرة الكولا، حيث جماهير الثورة من الفلسطينيين واللبنانيين بالقرب من مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة، وحيث أبو عمار وقادة الفصائل، واصبح في القلب بين مختلف مكاتب ومراكز الثورة الفلسطينية وقريباً من مكتب ياسر عرفات الذي هو الرئيس المباشر لمركز التخطيط الفلسطيني وكان قد عمل على تكريس هذا النظام المرحوم احمد الشقيري الرئيس الأول لمنظمة التحرير أي إتباع مركز التخطيط والأبحاث لقيادته المباشرة.

وإعتمد شعث على المتطوعين أساساً، واستخدم راتبه المقرر في الميزانية واعتمادات من مكتب الأخ أبو عمار لتدبير مكافآت متواضعة للذين يحتاجون إليها، ولمتطوعين حيث استطاع المركز تعبئة عدد من الكفاءات العربية المتقدمة للعمل في المركز، وفي مقدمتهم، طاهر عبد الحكيم الصحفي والباحث الشيوعي، ورؤوف نظمي (عمر محجوب)، وميشيل كامل المفكر اليساري من مصر، وحسن الشريف، وحسناء رضا، وطلال مراد من لبنان، وسميع البنا من العراق، ومنير شفيق والياس شوفاني ونبيل بدران وباسم سرحان وغيرهم من فلسطين.

من التخطيط انتقل دور مركز التخطيط إلى تقدير الموقف السياسي وتقديم بعض الاستشارات للقيادة، فعندما تسلم الدكتور نبيل شعث إدارة مركز التخطيط دارت بينه وبين منير شفيق نقاشات طويلة حول ما يمكن أن يعمله مركز التخطيط وقد نجح في عهده بإصدار تقدير موقف سياسي اسبوعي وشهري أصبح مرجعاً لعدد من قيادات المقاومة ، كما نجحت مجموعة من الأعمال الميدانية التربوية، والاجتماعية، والنضالية، والادارية .

قرر شعث أن يكون إنتاج المركز الأول هو التقرير السياسي الأسبوعي الذي كان يسلم الأصل للقائد أبو عمار، ونسخة وحيدة تبقى في المركز، وكان المركز يرصد أهم المتغيرات ويشرح دلالاتها بشكل موضوعي ومختصر ثم ينتقل إلى التنبؤ بأهدافها ونتائجها وثم ينطلق

من ذلك إلى مقترحات للعمل المستقبلي في سياق الاستراتيجية الفلسطينية المتفق عليها وخطة العمل المقرة، فخصص شعث فريقاً في مركز التخطيط الفلسطيني لمتابعة التطورات والتغيرات الهيكلية اللبنانية لأهميتها الاستراتيجية البالغة لقضيتنا، كان من بين أعضائه د.حسن الشريف، ونواف سلام، وفواز الطرابلسي، والياس خوري، وهالة الصايغ، باشراف محجوب عمر ومنير شفيق.

لم يكن المركز يعمل بردة فعل وإنما كان يحاول الإنطلاق من رؤية شاملة ومن مبادرة منطلقة من القرار الفلسطيني المستقل في إطار عمله والتزامه القومي، وكان أيضاً ينطلق من الإلتزام ومن التفائل الثوري لإمكان للشكوى واللوم في العمل والنقاشات، كان شعث رئيس تحرير التقرير، وكان الصحافي المصري التقدمي طاهر عبد الحكيم هو المحرر الرئيس، ولكن المركز بأسره كان يشترك في تحرير التقرير وتطويره، وكان محجوب عمر مرشداً مهماً، ومتفائلاً دائماً، وكذلك حنا ميخائيل أبو عمر، وكان الياس شوفاني وصبري جريس من مركز الأبحاث يوفران الفهم العميق للسياسية الإسرائيلية والمعلومات عن القادة الإسرائيليين، وكان حسن الشريف وكمال السعدي يتخصصان بالجانب العسكري التقني وكانا يستعينان دائما بالقائد المناضل الشهيد جواد أبو الشعر، الزائر الدائم للمركز، والذي كان قائداً للقطاع الأوسط في لبنان ثم قائداً للميليشيا في لبنان، وبالمناضلين نعيم وبلال من قادة المناطق العسكرية المتميزيين. وكان أبو خالد العبيدي متخصصا في التطورات الفلسطينية داخل الوطن مستعيناً بإلياس شوفاني وصبري جريس ونبيل بدران وباسم سرحان، يتابعون المخيمات الفلسطينية في الشتات والجوانب الاجتماعية والديمغرافية والثقافية، وكانت حسنا رضا وأمل بيهم معنيتين بالمعلومات ورصد المتغيرات ولكن حسنا كانت تؤدي أيضاً دور مديرة مكتب شعث، ومسؤولة التنسيق بين الدوائر. وكانت ليزا البوري سكرتيرة تحرير التقرير السياسي ومساعدة طاهر عبد الحكيم، عائلة المركز الصغيرة المتعاونة بشبابها وشيوخها وشاباتها وتعدد جنسياتها كانت تعمل كخلية نحل في إعداد التقرير وانتاجه.

إهتم الأخ أبو عمار بالتقرير وكان يقرؤه كله أو أجزاء منه في إجتماعات اللجنة التنفيذية

والمركزية، ثم طلب نسخاً منه لأعضاء القيادة، ذاع صيت التقرير السياسي وتسربت أجزاء منه للكوادر والصحف، فإضطر المركز إلى استئذان الأخ القائد في توزيعه العام، محتفظين بما يجب أن يبقى سرياً في التقرير الخاص بالرئيس، وتحول التقرير العام إلى أداة رئيسة للتثقيف للقيادات والكوادر الفلسطينية، كان المركز يطبع آلاف النسخ من التقرير ويوزعها بحصص متفق عليها للتنظيمات والفصائل الفلسطينية واللبنانية، وكان هناك دائماً مطالبة من كل تنظيم بعدد أكبر من النسخ، وأُعتبر العدد الذي وزع على الجميع هو العدد الأول، وقرر المركز أن يكون العدد الخامس عدداً خاصاً يتكرر بموضوعات مختلفة مرة كل خمسة أسابيع. وقد ذاع صيت العدد الخامس لأنه كان تقريراً إستراتيجياً عن التحرير والعملية التفاوضية أو ما عرف لاحقاً بعملية السلام، وقد قام المركز بالاعداد للتقرير بمناقشته مسبقاً مع قادة الثورة والأخ أبو إياد والأخ أبو جهاد عضوي اللجنة المركزية وبخاصة مع الأخ فاروق قدومي أبو لطف رئيس الدائرة السياسية بمنظمة التحرير وعضو اللجنة المركزية لحركة فتح،كان أبو لطف مهتماً بدراسة إمكانية التفاوض لإقامة دولة فلسطينية مستقلة على الضفة الغربية وقطاع غزة، وكان قد التقى البروفيسور روجر فيشر أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد، والذي أتى لإقناع القادة الفلسطينيين بالفكرة قبيل انعقاد مؤتمر حركة فتح في دمشق، ولم يكن أبو لطف بعيداً عن فكرة الدولة في الضفة وغزة، كحل مرحلي على طريق تحرير فلسطين، وكان شعث رائداً لفكر الدولة الديمقراطية اللاطائفية، ولم يكن يرى أنه من الممكن دولياً وفي توازنات القوى القائمة التفاوض للحصول على دويلة مرحلية على طريق التحرير الكامل، ولكنه تعامل مع الفكرة بموضوعية كاملة، لم يتخذ التقرير موقفاً، رافضاً، متصلباً، من موضوع التفاوض على حل مرحلي يؤدي إلى دولة على جزء من فلسطين، وإنما ناقش أبعاد هذا الحل من حيث إمكانية التحقيق ومدى قبول الفكرة والثمن المطلوب دفعه للحصول عليها وبالأخص بعد تبني الميثاق لفكرة الدولة الديمقراطية على كامل التراب الفلسطيني.

أطلق العدد الخامس الموضوع كله للحوار الوطني، وكان توجه التقرير الأساسي يرتكز إلى

عدم توافر الإمكانية الدولية لتحقيق الدولة المستقلة على أي جزء من فلسطين دون تضحية بالثوابت الوطنية، وفي مقدمتها حق اللاجئين في العودة إلى بيوتهم وقراهم على كامل التراب الفلسطيني، أعادت حرب ١٩٧٣م، الموضوع كله للنقاش حيث إنتهى العدد الخامس من التقرير السياسي، حيث غيرت الحرب المعطيات السياسية الدولية والعربية، وتوازنات القوى، بما يتيح الفرصة للوصول إلى حل مرحلي يسمح بإقامة دولة فلسطينية على جزء من فلسطين دون التضحية بالثوابت الفلسطينية في التحرير والعودة، وكان سيناقش ذلك بالتفصيل في حينه.

وكان مركز التخطيط الفلسطيني قاعدة للوحدة الوطنية الفلسطينية وللعمق العربي لقضية فلسطين في بيروت في ذلك الوقت، كما أن الوثائق التي إعتمدها المجلس الوطني حول الوحدة الوطنية، والتي تجسدت في اطار منظمة التحرير الفلسطينية، تمت مناقشتها وصياغتها في مركز التخطيط الفلسطيني. والتقرير السياسي الأسبوعي الذي كان يصدر عن المركز اصبح هو التعميم السياسي التي توزعه الفصائل كافة على أعضائها.

كان خط المركز وحدوياً، وكان يقف بحزم ضد توجيه البنادق إلى أي تناقض ثانوي، لذلك كان المركز ضد الحرب الأهلية في لبنان، وخشية من أن يؤدي عزل الكتائب إلى تقويتها مسيحياً، وإلى تعميق تطرفها، وإلى اذكاء الحرب الطائفية بين المسيحيين والمسلمين في لبنان وبين موارنة لبنان.

تعرف شعث على الإمام موسى الصدر والتقاه في مقره، ثم دعاه شعث لزيارة مركز التخطيط بناء على طلب الأخ أبو عمار لإجتماع مطول حضره كوادر المركز، ومن بينها محجوب و شفيق ونواف سلام وحسن الشريف وكوادر فلسطينية أخرى، من بينها الأخ المناضل جواد أبو الشعر، وكان أبو عمار في حاجة للدعم السياسي الذي يمكن للإمام الصدر أن يقدمه لنا في لبنان بعد تصاعد الحرب الأهلية ، وكان أبو عمار يدرك حساسيات حلفائه من القوى اللبنانية التقدمية تجاه الصدر وحركة أمل، ولذلك أراد من شعث القيام بهذا الدور مع الصدر في ذلك الوقت .

انتشر استخدام السيارات المفخخة في شوارع بيروت الغربية، وكان لإسرائيل يد رئيسية فيها، ما زاد من الرعب المزروع في كل مكان في بيروت. إنفجرت سيارة ملغومة على مقربة من مركز التخطيط الفلسطيني، كادت ان تدمر البناية بكاملها واستشهد في الطريق عدد كبير من المارة، ولكن الإنفجار لم يؤد إلا لخسائر محدودة في مركز التخطيط لحسن الحظ.

ولم تثن الهجمات عن استمرار العمل، فقام شعث في مركز التخطيط بترجمة استراتيجية المنظمة إلى برنامج عمل لبناء علاقات فلسطينية مع القوى اللبنانية سنية، ومسيحية ، وشيعية متعددة لحماية الثورة ومحاولة وقف الانزلاق إلى الحرب الطائفية الأهلية.

كان عز الدين قلق ممثل م.ت.ف في باريس يلح على نبيل شعث لزيارة فرنسا، والقيام بمجموعة من اللقاءات والندوات السياسية المهمة فيها. كان شعث يحب صحبة قلق، ويستمتع بأفكاره وروحه المرحة ويطرب لفتحاويته فقرر شعث قبول دعوته، وكانت باريس مقراً لمجموعة فلسطينية فتحاوية متميزة برز فيها أيضا هشام مصطفى، وعفيف صافية، وجانين ألبينا، وايلان هاليفي، ود.محجوب عمر، وليلى شهيد، وأنيس فريج، وسلمان الهرفي، وهايل الفاهوم، وكان هناك الموسيقار باتريك لاما، وإبراهيم الصوص. وغادر شعث باريس متوجهاً إلى بروكسل بناء على دعوة نعيم خضر ممثل الحركة والمنظمة فيها، للقيام بحراك مماثل في بلجيكا، كانت رحلة ناجحة بكل المقاييس ولكن صحافياً فرنسياً سأل شعث في احدى المحاضرات عن حلفاء الفلسطينيين، وعما إذا كان الإتحاد السوفياتي هو الحليف الاستراتيجي، وكانت إجابته: أنه بدون شك الصديق الأكبر والأقرب، ولكن الحليف الاستراتيجي يصادق من يصادقنا ويعادي من يعادينا وهذا لا ينطبق تماماً على علاقتنا بالإتحاد السوفياتي، فنحن لا نعادي الصين، وكان الإتحاد السوفياتي يعاديها، ونحن نقاتل إسرائيل وهو لا يقاتلها، ونحن حريصون على استقلال القرار الفلسطيني. أكد شعث له أننا في الحسابات الدولية نقف مع الإتحاد السوفياتي في مواجهة الولايات المتحدة وحليفها إسرائيل، ولكننا ثورة ولسنا دولة بعد، وحليفنا الاستراتيجي هو الشعب العربي، والقوى الثورية التي تساند نضالنا في وطننا العربي وفي العالم». بعد هذا التصريح عاد إلى بيروت كان

ما نقل مما قاله في باريس، قد وصل بكل تحريف والتشويه المقصودين، وكانت التعبئة ضد شعث من فريق (سوريا ـ السوفيت) قد تصاعدت بدرجة لا تحتمل، فإستدعاه الرئيس فور عودته، وبطريقة مسرحية، لتأنيبه على هجومه على حلفائنا السوفيت!، وتولى الفريق ذاته الاعلان عن غضبة الرئيس ورغبته في طرد شعث من موقعه كمدير عام لمركز التخطيط الفلسطيني، وقدروا أن ذلك يسحب بساط حماية أبو عمار عنه، فإنطلقت المقالات تهاجم شعث بشكل كبير، بكونه أستاذاً في الجامعة الأميركية (الإمبريالية) في بيروت، كان هناك هجوم آخر عليه بوصفه من المدرسة الماوية الصينية المنحرفة!، وكان ذلك هو الإتهام الموجه دائماً لنائبه منير شفيق ومحجوب عمر. كان جزء مهم من الهجوم منصباً عليهما وكانت هناك محاولات لمقايضة شعث بوقف الهجوم عليه في حال طرد عمر وشفيق من المركز، وقد رفض شعث ذلك بالطبع رفضاً قاطعاً. وهنا بدأ شعث بمراجعة نقدية للذات وكان يحب أبو عمار ولا يريد أن يخسره، وقرر بعدها ترك بيروت وحاول أبو عمار إقناعه بالتراجع والبقاء في بيروت، حتى أحس أن شعث مُصر على قراره فوافق على ذهاب شعث للقاهرة ورفض إستقالته من مركز التخطيط، فوافق شعث على الحضور أسبوعاً إلى بيروت من كل شهر، وأن يفوض صلاحياته في غيابه لنائبه في مركز التخطيط منير شفيق، وبقي كذلك حتى قبل أبو عمار استقالته من مركز التخطيط الفلسطيني عام ١٩٨٠م، واعتبر شفيق أن المرحلة التي قاد فيها الدكتور شعث المركز كانت أكثر واقعية وعملية ولاقى التقرير السياسي الأسبوعي رواجاً واهتماماً واسعاً ما بين قيادات وكوادر الفصائل.

منير شفيق ومركز التخطيط:

بعد أن إنضم إلى مركز التخطيط الفلسطيني وتابع التطورات في الأرض المحتلة أوكل الأخ كمال عدوان إليه مسؤولية قسم الأرض المحتلة في المركز وقال : «يكون عندك مكتب، ويكون عندك معاونين»، أي أن الأمر كان أقرب إلى ما يعرف بالغطاء، على مسؤولية شفيق عن العمل السياسي في الأرض المحتلة، وهكذا إنضم إلى المركز وقد أصبح مديره العام نبيل

شعث، وبالفعل مارس مهمة رئيس قسم الأرض المحتلة ليتابع التطورات هناك من خلال مركز التخطيط ومع بعض الاخوة الموظفين الذين تمتنت العلاقات معهم وكان من ضمن مهماته كما ذكر الإشراف على الإذاعتين اللتين تبثان من القاهرة وهو ما اقتضى السفر تكراراً إلى مصر لمتابعة العمل .

أصبح شفيق سريعاً نائب مدير عام المركز ولم يكن لهذا الأمر أهمية سياسية أو تنظيمية بل مجرد إجراء إداري لتنظيم العمل، فقد كان يشغل الموقع قبله د. سعيد حمود الذي تركه وسافر، فأصبح الموقع شاغراً فقبل المهمة على مضض ولم يعد مسؤولاً عن العمل السياسي في الأرض المحتلة بعد استشهاد الأخ كمال عدوان، وهكذا أصبح وجود شفيق في مركز التخطيط مختلفاً بعد تولي الأخ أبو جهاد من جديد مسؤولية العمل في القطاع الغربي فقد استبعده من العمل فيه، وأحس شفيق بالحجر عليه في فتح بعد ندوة الجامعة العربية فصار عمله كلياً في مركز التخطيط، فحسب، وهو عمل مر بمراحل، ولم يكن شفيق يرى أهمية كبيرة لمسألة نشوء مركز للتخطيط في حركة تحرر وطني تخوض قتالاً.

بعد إستلام شفيق إستمر المركز في العمل في بيروت حتى مارس عام ١٩٨٢م، حيث أدى الاجتياح الإسرائيلي إلى تدميره واستشهاد وجرح عدد من العاملين فيه، فأعاد شفيق تأسيسه في تونس عام ١٩٨٥م، حيث كان يترأس الدائرة السياسية في المركز ويعي خبايا الأمور، وخلال الحرب اللبنانية إنخرط بعض أفراد المركز في الحرب، وكان يعيق ذلك في الكثير من الحالات إنجاز مشاريع ذات وزن مشهود، وعلى سبيل التذكر حينما عرض على منظمة التحرير الفلسطينية في سنة ١٩٨٠م، اقتراح بأن تقبل القرار ٢٤٢ معدلاً كمدخل للإنضمام إلى الجهد السياسي الدولي، طلب القائد ياسر عرفات من المركز دراسة الإقتراح، وبالفعل قام منير شفيق بتأليف فريق عمل أولي لهذه الغاية، وكان صقر أبو فخر واحداً من هذا الفريق، أما ما حصل بعد ذلك فيثير الأسى فمنذ أول اجتماع لهذا الفريق نشب اقتتال كلامي على المبدأ أي أن القبول بالقرار ٢٤٢ ولو معدلاً لا يجوز الخوض فيه مبدئياً ومع أن شفيق حاول جاهداً أن يجر فريق العمل إلى مناخ البحث المجرد بقوله : دعونا نبحث المسألة أولاً ثم نتوصل إلى

نتائج فربما تأتي محصلة بحثنا لتعزز فكرة رفض القبول بالقرار ٢٤٢ معدلاً، غير أن الطريقة الغوغائية لبعض الباحثين أعاق النظر العقلي والعلمي في مركز مرصود للتفكير العلمي، وتبين في نهاية المطاف أن قرارات مجلس الأمن وحتى الجمعية العامة للأمم المتحدة لا تقبل التعديل مطلقاً بل يمكن السير نحو إصدار قرار جديد، وهذا المثال مجرد علامة من علامات العياء لدى المثقف لا لدى السياسي هذه المرة، وقد نشب خلاف سياسي بين شفيق ورؤية القيادة فذهب مع محجوب عمر إلى أبو عمار فور انتهاء مؤتمر النقاط العشر مقدمين استقالتهم من فتح والمركز ومعترضين على ما جاء من اعلان حول النقاط العشر لكن أبو عمار رفض وأصر على استمرارهما، حتى أوقف شفيق عن إدارة المركز فيما بعد.

محجوب عمر ومركز التخطيط :

محجوب عمر لم يرأس المركز ولكن آثرت أن أفرد له مساحة، لما تركه من أثر في العمل الوطني والنضالي وكان دائماً يرفض أن يتقلد مناصب عليا، ويعمل بصمت، وهو أحد الذين أسسوا مركز التخطيط الفلسطيني، إسمه الأصلي رؤوف نظمي ميخائيل عبد الملك صليب، أما اسمه الذي صار حكاية من حكايات النضال الفلسطيني فهو «محجوب عمر»، وقد عمل معه صقر أبو فخر، خمس سنوات كاملة في مركز التخطيط الفلسطيني، من سنة ١٩٧٧ حتى سنة ١٩٨٢، وكانا في الطبقة نفسها من مبنى المركز، قبل ذلك أتيح لأبو فخر أن يلتقيه مرات قليلة.

كان محجوب شيوعياً، لكن، حين داهمته هزيمة حزيران ١٩٦٧، غرق في حالة من التأمل، وراح يراجع أفكاره وخياراته السياسية، وكان اسم «فتح» قد بات يتلألأ في سماء العالم العربي، واكتشف أن طريق «العاصفة» هو الرد الحقيقي على الهزيمة، فإختارها، وترك كل شيء والتحق بها.

هذه ليست حكاية، بل طريقة حياة اختطها محجوب عمر طوال حياته، في إحدى المرات، في مركز التخطيط، تأخر عمال النظافة عن القدوم إلى المركز جراء التقاصف اليومي إبان الحرب الأهلية، فإتسخت قاعات المركز ومكاتبه، وفجأة شاهد العاملون في المركز، محجوب وهو يبادر إلى ملء الجرادل بالمياه، ويدلقها في الغرف والممرات، ثم يقوم بشطفها. فخجلوا، وقاموا على

الفور بمساعدته، دليل تواضعه وتفانيه وحبه لعمله ليس فقط البحثي والوطني بل الإنساني.

وقد قال مرة لأبو فخر، في أثناء إحدى المجادلات أنه يكن احتراماً كبيراً لجمال عبد الناصر، وأنه بكى بحرقة حين مات، لكنه لا يحبه، وعندما رأى الدهشة في عين أبو فخر، تابع شارحاً: نعم، لا أحبه، لأنه ببساطة سجنني عشر سنوات، لكنني احترمه كثيراً، فقد كان زعيماً حقيقياً». علّمهم في المركز كيف يستمعوا بشغف إلى محمد عبد المطلب ولا سيما أغنية «ساكن في حي السيدة وحبيبي ساكن في الحسين»، وكان حين تغرق الطبقة الرابعة في مركز التخطيط بالصمت أحياناً جراء الانهماك في العمل، يتحرك من مكتبه، ويأمرهم بالتوقف عن العمل، ويصرخ: إنها «إستراحة أم كلثوم»، ويذهب لإعداد الشاي الأسود بيديه ويقدمه لزملائه بلا سكر، بعد أن يتجمعوا في مكتبه، وقد جرفته نشوة الطرب، فيغني المواويل الصعيدية المصرية الحزينة والجارحة، وهو الذي أطلق على مقهى أبو علي في الدور الأرضي من مركز التخطيط لقب أبو علي التوسعي،وأطلق على منطقة الفاكهاني والجامعة العربية اسم «المربع»، وكان يقول إنه المربع الأخير للثورة الفلسطينية، فإحترسوا من الإساءة للناس، وصدق حدسه، وفي هذا المربع تعرف إلى منى عبد الله العاقوري، المناضلة اللبنانية الفريدة التي كرست نفسها لمبادئها وله، فتزوجا، وكانت منى دائماً رفيقته وأمه التي تصغره عمراً.

وفي إحدى ليالي الإجتياح الإسرائيلي في سنة ١٩٨٢م، إلتقاه صقر أبو فخر في أحد الأماكن، وكانت القوات الإسرائيلية اجتازت نهر الأولي نحو الشوف، وقال له أن الأنباء المتواترة تشير إلى أن الجيش الإسرائيلي سيتوقف عند نهر الدامور. فضحك محجوب وقال له: فكّر قليلاً. لماذا سيتوقفون عند الدامور؟ ولماذا لا يصلون إلى بيروت؟ جهّز نفسك لحصار طويل وقتال شرس، فسيصل الإسرائيليون إلى بيروت قريباً،صدق محجوب.

جرى تفجير المركز من خلال سيارة مفخخة، أصيب عدد كبير واستشهد البعض، سمير غطاس يقول أنه كان في الطريق إلى المركز واستوقفه شخص، وخلال حديثه معه إنفجر المركز بعدها جرى بسرعة بإتجاهه، للاطمئنان على محجوب عمر، فوجد أن واجهة البناية كلها سقطت بفعل عبوة ٢٠٠ كيلو، (تي أن تي)، والشارع ضيق جداً، فبسرعة وصل لمحجوب فوجده

ملقى، وقال محجوب لغطاس: «انزل وشوف محمد البطل لأنه إحتمال كبير يكون مصاب»، وفعلا وجد البطل مصاباً، كان مركز التخطيط في بيروت في الفكهاني وبيت محجوب عمر بجانبه وحين إنفجرت العبوة كان عمر مع شفيق وسمير غطاس وساهموا في نقل الجرحى بالسيارات لإنقاذهم، ويقول أبو فخر أن محجوب كتب كتابة جميلة عن الناطور الذي كان يوزع منشورات المركز واستشهد ودمه على أحد التقارير، ومحجوب كان صاحب فكرة إعادة طبع التقرير والدماء موجودة عليه وبالفعل وزع صورة ذلك التقرير والدماء عليه.

محجوب رفض أن يكون الرجل الأول بل كان نائباً لمنير شفيق مدير عام المركز ولو كان محجوب يريد أن يكون في الصف الأول لحصل على ذلك بسهولة شديدة لكن جزءاً من شخصيته أنه ينأى عن المناصب.

وحين كان أبو فخر يسافر للقاهرة في أي مرة إلا وكانت زيارة محجوب ومنى عبد الله هدفه المعلن أو المكتوم والمضمر معاً. فبعد عودة محجوب من لبنان أقام في المنيرة بالقرب من السيدة زينب،وكان في القاهرة، تماماً كما كان في بيروت، مملوءاً بالحكمة والتواضع والصبر والإصرار، فأسس مركزاً بسيطاً للأبحاث والدراسات الفلسطينية، وقد زاره أبو فخر في هذا المركز الواقع فوق مكتبة اسماعيل عبد الحكم، مقابل روز اليوسف، ووجده يحاول ان يوجه طالباً سورياً ذكياً يدرس في الجامعة الأميركية، وكانت لدى هذا الطالب مشكلة في النطق، وكان محجوب صبوراً بطريقة عجيبة. وبعد إنتظار طويل أنهى محجوب لقاءه مع ذلك الطالب واتجه نحوه أبو فخر معتذراً، الذي قال: نيالك على هذا الصبر، مع أن هذه الصفة ليست غريبة، على الاطلاق، عن محجوب، ولم يكن مستغرباً أيضاً إعجاب محجوب بالحمار الذي كان يعده فيلسوفاً وصبوراً معاً، وكتب له قصيدة لحّنها أحدهم.

طوى محجوب سنوات عمره فارساً مكافحاً، ومناضلاً، ومفكراً، وكاتباً، وباسماً، في كل وقت، ومتفائلاً في جميع الأوقات، وكان أمثولة نادرة في الزهد، والتفاني، والتواضع والحنو، لهذا صارت سيرته حكاية تروى في صعيد مصر وفي جنوب لبنان وفي فلسطين التي امتلأت أزاهيرها بعطر هذا «الحكيم» الذي لا يتكرر.

محجوب ترك بيروت قبل حرب ١٩٨٢ إلى القاهرة ولم يكن في استراحة محارب بل واصل المدرسة التي بدأها فكان له مكتب في شارع القصر العيني وكان عبارة عن ورشة كبيرة جداً تعمل لصالح مركز التخطيط الفلسطيني كان عبارة عن مكتب يترجم كل المقالات وكانت تنشر بإسم رؤوف نظمي حول الاستراتجية الكبيرة والسياسية والدراسات التي تطبع في العالم وكان يصدرها في كراسات صغيرة جداً صادرة عن مركز التخطيط، ويطبع بكميات كبيرة لتوزع على المقاومة أو على المهتمين، وأسس مكتبة من أهم المكتبات الفلسطينية في المنيرة بعد أن أصيب بالشلل وأصبح ينقل شفهيا لزوجته منى المقالات، وهي تكتب عنه حتى رحيله.

سلافة حجاوي ومركز التخطيط:

أصدر الرئيس ياسر عرفات قراراً في تاريخ ١٩٩٢/١٢/١ يتضمن بندين رئيسيين البند الأول إعفاء منير شفيق من مهامه كمدير عام للمركز، وتعيين سلافة حجاوي مديراً عاماً للمركز، وهي لها تاريخ في العمل المؤسساتي والبحثي حيث كانت رئيس مركز الدراسات الفلسطينية في جامعة بغداد، فيما كانت شاعرة بارزة وتزوجت من الشاعر العراقي جواد كاظم.

استلمت حجاوي تركة المركز الثقيلة في تونس منذ العام ١٩٩٢م، خاصة بعد رحيل شفيق، ثم تم نقل مقر مركز التخطيط عام ١٩٩٤م، إلى أرض الوطن حيث تمت إعادة تأسيسه في مدينة غزة كمقر رئيسي، وقد عاد عدد من العاملين من تونس للقيام بهذه المهمة منهم فاروق شبلاق، سامية شبلاق، ايمان ظاهر، ليلى فايد، عمر المصري «أبو العز»، حسن غنام، محمود نجار، وسام أبو سعود، مزين الحسن.

وكان الدور الأكبر إعادة فعالية ونشاط المركز إلى أوجه في داخل الوطن بعد توقيع اتفاقية أوسلو وبالتالي نقل كل صلاحيته ومحتوياته إلى الداخل وبالتحديد في غزة، مقر إقامة القيادة آنذاك. وتمثل دور السيدة سلافه حجاوي في إعادة هيكلة مركز التخطيط، وإعادة ترتيب المكتبة المختصة بالقضية الفلسطينية، حقاً هي إدارية ماهرة» هكذا تصف مهنا من سبقتها في إدارة المركز لتؤكد على اتزانها الفكري وعملها بروح الفريق. وتقول سلافة حجاوي : «وقد شهدت

فتح وجميع فصائل منظمة التحرير الفلسطينية عبر مسيرتها الطويلة ما شاء لها أن تشهد من المشاكل والانشقاقات والصراعات، وكان واضحاً للباحثين والدارسين سبب كل مشكلة وكل صراع وكل إنشقاق، وأفخر بنفسي أنني عملت كباحثة مرموقة في مركز الدراسات الفلسطينية التابع لجامعة بغداد، وفي مركز التخطيط الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، الذي ترصدته إسرائيل في اجتياحها للبنان وقتلت نحو عشرة من كوادره».

ورُفّعت سلافة عام ١٩٩٤م، بقرار من الرئيس ياسرعرفات وفق تدرج الفئات في م.ت.ف والذي كان يتبع مالياً الصندوق القومي، ومنذ بدء عملها، أصدر المركز إلى جانب المذكرات والتوصيات والمقترحات المرفوعة إلى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، العديد من الدراسات والتقارير، وطورت حجاوي المركز والتحق عدد آخر من العاملين والباحثين ليعملوا في أقسام المركز حتى وصل العدد إلى أكثر من ٤٥ عاملاً وباحثاً، منهم جمال البابا، مجد مهنا، وخالد شعبان، عاطف المسلمي، عبد الحكيم حلاسة، أسامة نوفل، وائل صبيح، مطيع بسيسو، هاشم أبو عبيد، أحمد الطيبي، عثمان حسين، سمية سوسي، معين الطناني، كفا الوحيدي، نادية أبو معلا، غادة حجازي، سوزان عقل، سائدة أبو شقفة، سهير نصر، عطا الخضري، إسماعيل عاشور، رائد رجب، علاء المنسي، جيهان السرساوي.

و باشر المركز منذ بداية عام ٢٠٠١ في إصدار مجلة دورية باسم « مجلة مركز التخطيط الفلسطيني»، كما أصبح في المركز مكتبة فلسطينية وأرشيف متخصصان واسعان، وهي حصيلة ما تم استرجاعه من الشتات من كتب ووثائق وجزء منه يعود لمركز الأبحاث، خاصة أنه في تلك الفترة توقف عمله فتم تحويل جزء من هذه الكتب خاصة المسترجعة إلى مكتبة مركز التخطيط، ولذلك كان للمركز مكانة مهمة، خاصة بعد عودة السلطة، وأصبح يقوم بالمهمات التي بعضها كانت تقوم بها مراكز أخرى، ويقول محمود النجار أن في عهد حجاوي كان الرئيس يستعين بالمركز خاصة في موضوع المفاوضات وتزويده بالخرائط اللازمة والوثائق التي يطلبها بشكل دوري خلال لقاءاته واجتماعاته الدولية، خاصة وفي احدى المرات اتصل بالمركز طلب خرائط واحصائيات للمستوطانت خلال ٢٤ ساعة، مما تطلب من

أعضاء مركز التخطيط أن يوصلوا الليل بالنهار لتحضير التقرير الكامل في موعده وتسليمه للرئيس وفعلاً إستلمه وعدل عليه، واستعمله فيما بعد خلال لقاءات مع المبعوثين الدوليين .

في ٢٠٠٣/١٢/٩ أرسلت حجاوي رسالة للأبو عمار تطلب منه إعفاءها من مهام رئاسة المركز معللة ذلك بسبب ظروفها الصحية وعدم قدرتها على القيام بواجباتها الوظيفية، وطلبت تنسيب من يراه مناسباً لذلك، وطبعاً كانت هذه الحجج غير مقنعة للقائد عرفات فذيل على نفس الورقة عبارة « لمواجهتي رجاءً « أي طلب لقاءها وجها لوجه لتضع الأسباب الحقيقة، ومن خلال اطلاعي على بعض مذكرات وقصاقيص ورقية لحجاوي، كانت قد أعلنت تذمرها مراراً لما وصلت له الأمور السياسية وعملية إدارتها ولم تكن راضية عن أداء بعض دوائرها، والدليل على ذلك رسالة وجهتها سلافة لأبو عمار محتواها « الاخ الرئيس حفظه الله،،، ... إلى أين ذاهبون ؟ إلى دولة ام إلى الهاوية؟ إن التيارات التي أضاعت فلسطين من قبل، تفعل فعلها الآن من جديد، على شكل تحالفات غير مرئية ... في الداخل الفلسطيني، في الساحات العربية التي أنت أدرى بها... إنها كلها تلتقي وتتدحرج إلى حضن شارون.... الوضع خطير جداً كما أراه ... وهو بحاجة الى حكمتك السديدة ويديك القوية « كتب أبو عمار على الرسالة لمواجهتي، وقد يكونا التقيا فعلاً، وأطلعها بشيء ما على الأقل للبقاء، وفي رسالة أخرى عام ٢٠٠١ موجهة أيضاً للرئيس عنونتها سلافة: «ما هي أولوياتك...هل هي السيادة أم الأرض؟ وبدأت تشرح الحلول المرحلية في حالة الرفض أو الموافقة وإقامة الدولة وتطرح تساؤلات علها تجدالإجابة عليها .

المهم أن الرئيس أبو عمار لم يقتنع بحجة سلافة الصحية وأدرك أن السبب سياسي ومبني على رؤية للوضع العام، وهي رافضة له، لذلك أبقى على إستقالتها معلقة، ولم يقبلها ولم يرد على ذلك كتابياً، فبقيت سلافة على رأس المركز، حتى استشهد الرئيس ياسر عرفات عام ٢٠٠٤ ، بعدها أعادت طلب إحالتها للتقاعد في ٢٠٠٥/٨/٦ من رئيس الوزراء وترقيتها لأنها لم تتمتع بأية ترقية بعد عام ١٩٩٤، وفعلاً صدر قرار رئيس الوزراء أحمد قريع بترقيتها إلى درجة A٢ وإحالتها للتقاعد بالتزامن في ٢٠٠٥/٨/١١.

إستمر عمل مركز التخطيط الفلسطيني، وترأسه د. أحمد مجدلاني فيما بعد، وعُينت

مجد مهنا مديراً عاما للمركز وكان أغلب عملها في غزة، حتى التقاعد، وخلال ذلك حدث دمج لبعض المؤسسات، وأتبع مركز التخطيط لدائرة العمل والتخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية وعلى رأسها عضو اللجنة التنفيذية د.مجدلاني، وكلف عوني أبو غوش ومحمد عطاونة بمتابعة أمور المركز، فيما بقي عدد محدود من الكوادر في غزة الذين كانوا في عهد حجاوي على رأس عملهم حتى كتابة هذه السطور.

المراجع:

- * أسعد عبد الرحمن وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، مركز التخطيط الفلسطيني، القسم العام ، ج٣ ، دمشق، ١٩٨٤م.
- *محجوب عمر.. الجسر بين السياسة والبندقية، برنامج حبر على الرصيف، قناة الغد،٢١ يونيو ٢٠٢٠م.
- *محسن صالح وصقر أبو فخر وآخرون، منظمة التحرير الفلسطينية تقييم التجربة وإعادة البناء، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ٢٠٠٧م.
- *نافذ أبو حسنة، من الجمر الى الجمر: صفحات من مذكرات منير شفيق، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ٢٠٢١م.
- *نبيل شعث حياتي من النكبة إلى الثورة، دار الشروق، ط ١، القاهرة، ٢٠١٦م.
- * عصام شحرور، محاضرة يوسف الصايغ التنموية، مركز ماس،جامعة بيرزيت، ٢٠٠٩م.
- *صقر أبو فخر، محجوب عمر : الحكاية النادرة ،السفير ، بيروت، نيسان ٢٠١٢م.
- *صلاح أحمد فاخوري، الحرية الفكرية في منظمة التحرير الفلسطينية، السفير، بيروت، كانون الثاني ٢٠١٣م.
- مقابلات:
- *مقابلة مع محمود النجار أجراها أ.حسام أبو النصر ٢٠٢١ م.
- *مقابلة مع د.نبيل شعث أجراها أ.حسام أبو النصر، ٢٠١٨م.

أوراق فلسطينية

المقاومة الشعبية الفلسطينية ...
أرض مقدسة بدماء شعب لا يفنى

شذى يحيى*

"شعبنا لم يترك بلاده بإرادته. شعبنا طرد من بلاده. ليس على اللاجئين ولا على أبنائهم أن يشعروا بمسؤولية الهرب من أوطانهم إسرائيل هي المسؤولة ... هم طردوا طرداً ... أنا وجيلي رأينا هذه المأساة وعليكم ألا تكرروها".

إميل حبيبي

"إذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقية فإن البندقية ذاتها تنبع من إرادة التحرير ،وإرادة التحرير ليست سوى النتاج الطبيعي والمنطقي والحتمي للمقاومة بمعناها الواسع المقاومة على صعيد الرفض ،وعلى صعيد التمسك الصلب بالجذور والمواقف".

غسان كنفاني (الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الإحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨)

"ماهكذا فعل قائدنا أبو ركوة (الوليد بن هشام بن المغيرة) قبل ألف عام. فلما رأى الناس يؤمنون بأن الحاكم بأمر الله لم يسقط في يده ،ولم ينتظر أن يصبح الشعب مؤهلاً بل أقنعهم بأنه ثائر عليه أيضاً بأمر الله ،فتلقب بالثائر بأمر الله على الحاكم بأمر الله فحيد العزة بالعزة . والحاكم أظلم فتبعه خلق كثير".

إميل حبيبي (الوقائع الغريبة في إختفاء سعيد أبي النحس المتشائل)

"إنني أبحث عن فلسطين الحقيقية. فلسطين التي هي أكثر من الذكريات ... إننا كنا مخطئين عندما إعتقدنا أن الوطن هو الماضي. بالنسبة لخالد الوطن هو المستقبل".

غسان كنفاني (العودة إلى حيفا)

---

* باحثة وأكاديمية من مصر

في أكتوبر ٢٠٢١م أعلنت الحكومة الإسرائيلية ست مجموعات من المجتمع المدني الفلسطيني مدعومة من المجتمع الدولي على أنها « منظمات إرهابية « وكان من بين هذه المجموعات «منظمة الحق» وهي واحدة من أقدم منظمات حقوق الإنسان العاملة في فلسطين ومنظمة (DCI-P) وهي المنظمة الدولية للدفاع عن الأطفال فرع فلسطين والتي توثق لإنتهاكات حقوق الطفل. وذكرت وزارة الدفاع الإسرائيلية أن هذه المنظمات "تشكل شبكة من المنظمات السرية الناشطة على الجبهة الدولية نيابة عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ،وأن هذه المنظمات ترقى إلى مستوى كيانات لجمع الأموال للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ،من خلال تلقي التبرعات من الدول الآوروبية والمنظمات الدولية".

وكان رد مدير مؤسسة الحق شعوان جبارين على هذه الإتهامات في تصريح لشبكة CNN إنها محض هراء مضيفاً «إن هذه خطوة سياسية وليس أمنية. لا حدود للإحتلال الإسرائيلي لظلمه وجنونه لكنه لن يمنعنا أبداً من الدفاع عن شعبنا وفضح جرائم الإحتلال».

إضافة لمؤسسة الحق والدفاع عن الأطفال شمل الإعلان مؤسسة الضمير ومركز بيسان ،وإتحاد لجان المرأة الفلسطينية وإتحاد لجان العمل الزراعي أي أن الوصف شمل مؤسسات ناشطة في كل مناحي العمل الإجتماعي والثقافي والسياسي الفلسطيني لهذا فإن مكتب المفوض السامي لحقوق الإنسان بالأمم المتحدة أصدر بياناً نص على إن التسميات «أدرجت أسباباً شديدة الغموض أو غير ذات صلة بما في ذلك الأنشطة السلمية والشرعية تماماً كمبرر لوسم الإرهاب».

بعض المراقبين يرون أن السبب الحقيقي لمحاولات ربط المنظمات غير الحكومية بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هو تشويه سمعة المعارضة السلمية الفلسطينية. وهو شعور تم التعبير عنه في بيان مشترك صادر عن منظمة العفو الدولية ومنظمة هيومان رايت ووتش لكن هل الأمر بهذه البساطة؟!! هي مجرد محاولة لتشويه المعارضة من الأغلبية في بلد طبيعي؟؟! أو على أسوأ تقدير عنصري.

أم هو محاولة أخرى للقضاء على شكل من أشكال المقاومة قد يكون أقوى وأبقى من حمل

السلاح، ذلك النوع من المقاومة الذي وصفه غسان كنفاني في كتابه الأدب الفلسطيني المقاوم بأنه «يتخذ شكله الرائد في العمل السياسي والعمل الثقافي».

السلاح الباقي دوماً والمخيف لإسرائيل هو قوة إيمان الفلسطينيين بعدالة قضيتهم وبحقهم وعنادهم والتضحية بأرواحهم بل ربما أحياناً بعواطفهم كبشر، عندما تتغلب إرادة الحياة الكريمة على إرادة الحياة فقط وهذه القدرة الرهيبة على التحمل وتخطي الصعاب في سبيل هذه الكرامة، لعل هروب أسرى سجن جلبوع وما صرحوا به بعد القبض عليهم خير مثال في ذلك. المقاومة شيء والحرب شيء آخر المقاومة أبقى من الحرب عندما يقف عزل أمام جيش أو سلاح مقابل سلاح، «الإنسان أعجز من أن يقتل ضميره فيقتل الذاكرة» كما قال إميل حبيبي في سداسية الأيام السته ،وهذه هي نقطة قوة الفلسطيني فرغم كل إستراتيجيات إسرائيل التي تهدف إلى قتل المقاومة من جدار فاصل إلى تقطيع أوصال الضفة بالمستوطنات وتحويل غزة إلى ما يشبه السجن الكبير يبقى كفاح الفلسطينيين اليومي في المواجهة ببناء مجتمعاتهم وكياناتهم الإقتصاديه والثقافيه وتعزيز هويتهم هي المعضلة الكبرى أمام إسرائيل معضلة أكبر بكثير من أي عمل مسلح تقوم به قوة غير مكافئة ولا يتعاطف معها أحد في العام١٩٢٣م وصف جابوتنسكي العرب الموجودين في أرض إسرائيل على حد قوله «بأنهم ليسوا مجرد قطيع، بل هم شعب حي، والشعب الحي سيكون على استعداد لحسن استغلال قضايا مصيرية. فقط، عندما يتخلى هذا الشعب عن كل أمل في التخلص من المستوطنين الغرباء. وقتئذ ووقتئذ فقط سوف تفقد الجماعات (المتطرفة) بشعارها لايوجد مستحيل نفوذها وتأثيرها الحالي».

بعد مرور مئة عام من الهزائم والآلام ورغم كل شيء مازال الفلسطينيون شعباً حياً لم يفقد الأمل ولذلك يبقى وجود إسرائيل مهدداً رغم صلادته من الخارج ولذلك تطارد المؤسسات الصهيونية أي عمل ثقافي أو إجتماعي أو حتى إنساني أو أي أحد يطارد أو يوثق زيف أسطورة إسرائيل المحافظة على حقوق الإنسان والديمقراطية ،ورغم أن الظروف السيئة التي يمر بها المجتمع الفلسطيني يدفع دائماً بالرأي العام الفلسطيني لتفضيل العمليات

العسكرية ففي إستطلاع للرأي أجراه معهد ماكس بلانك في ديسمبر٢٠١٧م أيد ٤٤٪ من الفلسطينيين إستئناف الأعمال العسكرية ضد الكيان الصهيوني و٢٣٪ فقط فضلوا المقاومة الشعبية والاحتجاجات اللاعنفية وحتى مسيرات العودة إقتصرت على أماكن يقام فيها الجدار العازل ووصل الأمر بالبعض لإتهام هذه الإحتجاجات بمحاولة تهميش القضية أو تصويرها على أنها أمر داخلي إسرائيلي ربما يدعم هذا الإعتقاد في الشارع إضافة إلى اليأس من الحصول على أي مكتسبات بالمفاوضات غياب الدعم العملي من قبل النخبة الفلسطينية لهذه الإحتجاجات اللاعنفية الذي يجعل النموذج المحلي للمقاومة محكوماً بالبقاء على الهامش، كما يرى الباحث محمود جرابعة رغم الدعم المعلن للفصائل الفلسطينية للمقاومة الشعبية من حيث المبدأ والذي لا يجد صدى على أرض الحقيقة أن العدو الإسرائيلي أقصى الفلسطينيين العزل بالسلاح لينشئ كيانه هذه حقيقة لكن أهم أسلحته على الإطلاق كانت وستظل الفكرة والمعتقد، لم يعاني الفلسطينيون عند طردهم من النقص في السلاح فقط بل عانوا أيضاً من نقص مماثل في القدرة والمعرفة إضافة للنقص الأهم النقص فيمن يروي الحكاية، جانبهم من الحكاية، إضافة أنهم ومنذ البداية كانوا على طرف النقيض من المعتقد وما أرساه سايكس عندما وضع قاعدة أن المسلمين هم أعداء الحضارة الغربية مرتكزاً على ميراث هائل من ثارات الحروب الصليبية والمذابح العثمانية في أوروبا تلك التي وظفت لشرعنة الأطماع الإستعمارية.

وكما يرى المفكر البريطاني نورمان دانييل أنه «على الرغم من التطور الأكيد الذي لحق بالمنهج الفكري، فإنه لم يتمكن أبداً من التوصل إلى مستوى البحث الموضوعي المجرد لربما كان من المستحيل تجريد البحث عن الأهواء والميول الذاتية بسبب أن الحجج والمبررات وكذلك التضليل الإعلامي وآراء جميع المساهمين من المفكرين كانت لها وظيفة أساسية على مستوى الجماعة ... ومن البد أولا التسليم بأهمية العنصر الثقافي في أن الإدانة الشاملة للإسلام بسبب عنفه من قبل كتاب ومؤلفين يتشاطرون الحماس التقليدي حيال الحروب الصليبية، تشكل الدليل الساطع على إزدواجية المعايير في مجتمع عاجز عن مراجعة ذاته».

هذا النقص في القدرة إضافة لإزدواجية المعايير والخلاف في المعتقد لطالما أضعف موقف الشعب الفلسطيني في المعركة الطويلة الأمد بينه وبين الكيان الصهيوني لكسب تعاطف من هم خارج دائرة الصراع من جماعات الضغط الدولية، وسائل الإعلام، المراكز البحثية، هذه المعركة التي أسماها علماء السياسة (الصراع العربي الإسرائيلي) الآخر أو الحلبة الموازية بمعنى تشكيل إدراك قد لا يكون له علاقة مع الرؤية الواقعية للصراع كما هو على الأرض.

لبيان إشكالية «الصراع العربي الإسرائيلي الآخر» لابد من فهم حقيقة النزاع الذي يخوضه الطرفان منذ البداية لتفنيد كل منهما لحجج الطرف الآخر، الرواية تقول أننا أمام دعوة مقدسة لإسترجاع أرض محفوظة في صفحات معتقدات هي جزء من التاريخ والمكون الثقافي لقطاع كبير من البشرية على مر التاريخ من المفترض أن هذه الدعوة أو النبوءة تحققت بقيام ما يعرف بإسم دولة إسرائيل العام١٩٤٨م، في المقابل هناك شعب يعي وجوده منذ ألوف السنين على نفس الأرض ووجوده هذا حقيقي وليس مجرد أسطورة وهو يسعى لتأكيد هويته الوطنية المهددة. هنا أتى دور الرواية الصهيونية الأولى التي صورت فلسطين على أنها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض – لعل هذه المقاربة هي نفسها التي اعتمدتها إسرائيل في جناحها في إكسبو دبي ٢٠٢٠ والذي صمم على هيئة كثبان رمليه وقد ذكر مدير الجناح في حوار تلفزيوني أنه صمم لبيان التقارب بين الشعبين من حيث بنائهما لدولة مدنية حديثة في قلب صحراء غير مأهولة!!. وهو نفسه ما يفسر حشد كمية هائلة من المخترعات في الجناح كما يفسر بقاء الجناح الفلسطيني خاوياً بعدما رفضت السلطات الإسرائيلية خروج الصناع والحرفيين الفلسطينيين من الأراضي المحتلة – بعد إنكشاف كذب الرواية على إستحياء وأن للأرض شعب، إدعى أن هؤلاء البشر ماهم إلا مجموعة من الإرهابيين البدو الكسالى والحمقى القادمين من شتى مناطق الصحراء لإفساد أرض إسرائيل الدولة القائمة لا بقوة السلاح أو بسطوة جيش الدفاع وتهديد القنابل النووية بل هي موجودة بحق الحياة لمواطنيها في مكان آمن لأن هذا الحق هو دين على المجتمع الإنساني برمته، بهذا المنطق فإن وجود الفلسطينيين في قفصهم وراء الجدار كأعداء همج متوحشين يصبح أحد مقومات بقاء

ودعم دولة إسرائيل ربما أكثر من المحرقة أو كما كتب الصحفي المخضرم عاموس أيلون العام ١٩٧١م فإن المحرقة استمرت تساعد في شرح المخاوف والأذى، العواطف الجياشة، الآلام والمفاخر التي نسجت الحياة العامة في إسرائيل ... إن الذاكرة الباقية في الخلفية للمحرقة تجعل تهديد العرب بالإبادة يبدو شيئاً ممكناً وهو طابع أساسي للمزاج الإسرائيلي منذ الإستقلال، ولدعم هذا المزاج استمر في تصوير مفهوم القومية العربية والدعوة المقترحة لأمة عربية واحدة كخطر وكذريعة لنفي وجود الفلسطينيين كشعب والنظر إليهم كمجموعة عرقية تنتمي لهذه الأمة ولاعلاقة لها بالأرض المقدسة بل هم مجموعة من العمال المهاجرين من أمة تتمتع بامتيازات زائدة لا تفعل بها شيئاً تكره ما يمثله المجتمع اليهودي من حرية وديمقراطية وتخشى منه خوفاً على معتقداتها وقوانينها القبلية والعشائرية التي يدعمها دين متخلف وأناني ورجعي وهذا هو المبرر الحقيقي في رفض أن يكون لليهود وطن في ركن صغير من أرضهم الواسعة التي لا يفعلون بها شيئا، ويبدو أن بعض العرب أنفسهم اقتنعوا بهذه الرؤية لذلك يحاولون إثبات تطورهم وتفتحهم بقبول الوجود الصهيوني -على عكس الصهاينة الذين لم يقبلوا ولن يقبلوا ابداً بالوجود الفلسطيني ولا حتى على سبيل الأمر الواقع.

في رده على المفاوض الفلسطيني ياسر عبد ربه كتب رئيس الوفد الإسرائيلي لمفاوضات مدريد التي مهدت لإتفاقيات أوسلو إيليا كيم روبنشتاين بتاريخ ١٣يناير ١٩٩٣م «لقد قلتم إن النزاع نشأ عن انتهاك حقوق الشعب الفلسطيني... وليست هذه هي الطريقة التي نقرأ بها التاريخ فالحركة الصهيونية هي إمتداد لتاريخ طويل يرجع إلى عدة آلاف من السنين، وهي عندما بدأت عملها للعودة إلى البلد، لم تقم بذلك لكي تنتهك حقوق اي كان!... وقد تكلمتم عن الشعب الفلسطيني، وليست هذه هي الطريقة التي نسميه بها. ونحن ليس لدينا ما يدعونا إلى إيذاء مشاعركم، لكن وجود الشعب الفلسطيني ليس جلياً من الناحية التاريخية، والإستقلال الإثني لا يجب بالضرورة أن يفضي إلى إستقلال سياسي ... إننا بحاجة إلى وقت حتى تلتئم الجراح، ولابد من مرحلة إنتقالية، وأعتقد أن هناك إمكانية للنجاح.

إنكم تتحدثون في رسالتكم عن اتفاقيات جنيف عن حقوق الإنسان وسوف نعرض موقفنا بشكل تفصيلي لاحقاً إلا أنني يجب أن أقول لكم أننا نرى أن إتفاقيات جينيف لا تسري على الأراضي التي نحن بصددها، فهي ليست محتله، ولم تكن تتمتع قبلنا بسلطة ذات سيادة. ومع ذلك، فقد أعلنا مضينا في تطبيق البنود الإنسانية لهذه الإتفاقيات، ونحن نفعل ذلك».

إذن فالفلسطينيون على أقصى تقدير هم جماعة عرقية وجدت على أرض بلا سيادة وعندما جاء أصحابها الشرعيون لفرض السيادة حدثت معركة من وجهة النظر هذه هي مبررة أخلاقياً وليست مثل الفصل العنصري في جنوب أفريقيا أو مثل الكفاح ضد المستعمر في باقي أنحاء العالم، العرب هم المعتدون أو كما يقول المؤرخ الإسرائيلي ناتانيال لورش «فإنه ومنذ البداية فالمنظمة الصهيونية العسكرية جاءت كرد فعل للجوء العرب للعنف: كدفاع عن النفس ضد الهجمات من كل من القوات العسكرية العربية وغير النظاميين مجرد أسماء المنظمات المتعاقبة هاشومير (المراقب)، والهجاناة (الدفاع)، وجيش الدفاع توضح مهامهم الأساسية، وقد يكون التناقض أن حركة، دولة فيما بعد لم تنظر في العنف كأداة لتحقيق أهدافها قد انخرطت بإستمرار في صراع عنيف».

هناك جانب آخر من الرواية يمثله الأقل تطرفاً مثل المؤرخ اليهودي الفرنسي مكسيم رودنسون يرى أنه لا يمكن منح اليهود حقاً تاريخياً في أرض لأن جزءاً من أجدادهم قد عاشوا فيها منذ ألفي سنة ومن جهة أخرى فإن عليهم أن يعترفوا بأنهم ألحقوا ضرراً كبيراً بشعب آخر وحرموه من حقوق تعتبر مساوية له على الأقل. ومازال الشعب الذي ألحقوا به ضرراً يكن لهم حقداً وطالما إستمر هذا الحقد فإن حقوق الإسرائيليين ستظل مجردة ولا يمكنهم إلا أن يأملوا في أن يعترف بهذه الحقوق وأن يتقبلهم العرب وحينئذ ستصبح حقوقهم حقيقية».

لكن الإعتراف بهذه الحقوق من وجهة النظر الإسرائيلية معناه تقبل غرباء، عناصر غير منتمية كفيروس قاتل لايستطيع الكيان العضوي القومي للدولة استيعابه أو إذابته دون الإضرار به وبنقائه، فالدولة أو الأمة اليهوديةهي كائن حي ذا جسد مقدس ممنوع المساس به عن طريق التسلل والإختراق ولذلك فإن إسرائيل دولة بلا حدود جغرافية، المشروع

الصهيوني الذي يقدم نفسه على أنه مشروع حداثي علماني يرسم حدوده بالمساحة التي يراها آمنة بين المنتمي والغريب، فحدود إسرائيل هي حدود وجود القومية اليهودية، والصهيونية تحاول القول بأن إسرائيل في فلسطين التاريخية هي التفسير القومي الحداثي للأماني الدينية المرتكزة على مفهوم الخلاص الذي سيأتي في آخر الزمان. وهذا بالتأكيد غير مبرر بالنسبة للفلسطينيين الذين يعانون جرحاً معنوياً وظروفاً إنسانية صعبة لن تخففها بالتأكيد النزعات الروحية للغزاة ولا تمثل تبريراً مقبولاً لنكبتهم. والآلام اليهودية مهما كانت ليست بسبب مقبول لإقامة دولة يهودية على حساب الفلسطينيين الذين اختلطت دماؤهم وعظامهم بتراب أراضيهم وكما يقول إميل حبيبي «ليس هناك على الأرض أقدس من دم الإنسان يا بني ولذلك سميت بلادنا بالمقدسة». هذه الآلام والقدسية اليهودية المزعومة هي إحدى أهم الأسباب التي دفعت الضمير العالمي الذي تخاطبه النخب وصناع القرار الفلسطينيون على مدى مئة عام الى ان لا يلقي لهم بالاً، بالرغم من أن الضمير العالمي يناصر بصفة عامة الشعوب التي تدافع عن ذواتها وكياناتها واستقلالها فإن الفلسطينيين يعتبرون أنفسهم قد استثنوا من هذه القاعدة لمجرد أن مستعمريهم من اليهود، والحقيقة أن للمسألة الإسرائيلية بعد آخر في رأي سلامة كيلة، وهو محق، فإسرائيل تتعلق بمشروع إمبريالي هو السمة الأساسية في تكوين الدولة الصهيونية، والتي تأسست على ضوئها كل السمات الأخرى....فهذا الكيان من وجهة نظره هو مشروع إمبريالي تأسس بقرار إمبريالي وبدعم مالي إمبريالي مما جعل النضال السلمي والسعي من أجل حقوق مدنية مسألة لن تؤتي أكلها إلا بإقناع الممول بأن مصالحه تقتضي أن يدعم هذا الإتجاه على الأخص في إطار تراجع أفكار القومية العربية ومحاربة الإستعمار في الوطن العربي وخضوع أغلب دوله لأنظمة كومبرادورية مع إنحسار التأييد للقضية الفلسطينية في الشارع العربي وانشغاله بعواصفه الاقتصادية والاجتماعية.

لو إقتنع الممول بأن السلام لايمكن أن يفرض بالقوة من قبل المنتصرين بنفس اقتناعه أنه لا يمكن فرضه بالعنف من قبل المهزومين فإن المعادلة سوف تتغير كما يقول جان بول سارتر «الوضع الإستعماري ينتج المستعمرين كما يوجد المستعمرين»، والعنصرية تحمل في

جنباتها الممارسات الإستعمارية ويولدها في كل دقيقة الجهاز الإستعماري وتدعمها علاقات الإنتاج التي تقسم الأفراد إلى نوعين الأول الذي يشكل الإمتياز وتشكل الإنسانية لهم أمرين متلازمين والآخرين الذين يكرس حقوقهم بؤسهم وجوعهم المزمن وجهلهم بإختصار ما دون إنسانيتهم، وهنا تأتي الخطورة الحقيقية لمنظمات العمل العام وحركات المجتمع المدني والمؤسسات الإجتماعية على إسرائيل، كشف هذا البؤس الذي من الممكن أن يؤرق الممول الذي هو دائماًفي حاجة لمبرر أخلاقي يفسر به جشعه.

باحث كمكسيم رودنسون أبدى تفهمه للإرادة المشروعة لمقاومة الإحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية لكنه رأى أن هذه المقاومة قد تم التعبيرعنها بطريقة بدائية وغير موضوعية.

فعلى عكس بن جوريون مؤسس الدولة العبرية الذي أعلن في إجتماع للكنيست العام١٩٥٢م عن دهشته من إستمرار اللاجئين الفلسطينيين في إجتياز الحدود محاولين العودة إلى مدنهم وقراهم وبيوتهم وحقولهم رغم أنهم يطلقون الرصاص عليهم ويقتلونهم ما حدا بإميل حبيبي لإجابته بالعبرية وبدهشة «أنا أيضاً مندهش: ألا تعرف معنى حب الوطن؟!!». كان واضحاً من وجهة نظر رودنسون «أن العرب الفلسطينيين وقد تخلصوا من الوصاية التركية لايريدون أن يخضعوا لسيطرة الإنجليز أو الصهاينة فهم لا يبغون ان يتحولوا إلى إنجليز أو إسرائيليين حتى وإن كانوا يقبلون عن طيب خاطر بعض عناصر الثقافة الأوروبية التي يجلبها البعض معهم، إنهم يريدون الإحتفاظ بالشخصية العربية والعيش في دولة عربية ونظراً لأن تقسيم المجال العربي في آسيا في العام١٩٢٠م تم على النحو المعروف فقد اتجهوا مثل بقية العرب إلى تكوين جماعات قومية فلسطينية في إطار الجماعات القومية العربية المختلفة واتجهوا كما اتجه غيرهم لتكوين دولة عربية فلسطينية».

فما الذي حدث؟ وهل الذي حدث للشعب الفلسطيني كان بسبب الحركة الصهيونية فقط؟ وبسبب الدعم الإستعماري الإمبريالي المدعوم بالخلفية التوراتية لوحده؟ أم أن هناك أسباباً أخرى ساهمت في الوضع الذي يجد فيه الشعب الفلسطيني نفسه مرغماً عليه اليوم؟

بداية فإن حجة أمن إسرائيل مازالت قائمة تتستر خلفها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة

كذريعة للترحيل والإعتقال الكيفي للسجناء السياسيين وانتهاك أمن السكان الفلسطينيين بحروب مكشوفة ومقنعة ،واغتيالات ،وعمليات تخريبية ورغم ذلك ظل أمن إسرائيل وحقها في الدفاع عن نفسها هو مركز النقاش الدولي واستمرار هذه الأسطورة «أسطورة الأمن» يوحي بإلتزام عربي ما بالقضاء على إسرائيل وبالتالي فإن الحركات القومية العربية وعلى رأسها بالطبع الحركة الفلسطينية ظلت مرادفاً في الذهنية الغربية للعرب الراغبين في إبادة اليهود ،على سبيل المثال فإن تاريخ الصراع يتجاهل تماماً ما أكده ناحوم جولدمان في حواره مع لومند ديبلوماتيك الفرنسية في أغسطس١٩٧٩م من أن العرب والفلسطينيين لم يستشاروا في قرار تقسيم فلسطين العام١٩٤٧م وقال أن رغبتهم في التفاوض حول تسوية سياسية كان من الممكن أن تمنع قيام حرب١٩٤٨م ولكن هذه الرغبة رفضت من قبل بن جوريون، الحقيقة ومنذ البداية وكما قال عزرا وايزمان في مؤتمر فرساي بعد الحرب العالمية الأولى معنى أن يكون هناك وطن قومي لليهود هو «عدم وجود شروط تحول دون ان تكون فلسطين – في نهاية الأمر- يهودية تماماً كأميركا عند الأميركيين وإنجلترا عند الإنجليز».

وكانت وجهة نظر الغرب كما كتب السير رونالد ستورز المندوب السامي البريطاني في فلسطين في مذكراته «إن الصهيونية حركة عالمية ،أما الحركة العربية فلا وجود لها ،ورغم ما يقال عن أن معرفة العربية تفيدك فيما بين الهند والأطلنطي. فإن مزايا العرب وحقوقهم ومتاعبهم محلية بطبيعتها ... لذلك يشعر العربي الفلسطيني بمركب نقص شديد الوطأة عندما يعرض قضيته على الضمير العالمي وهو يدرك تماماً أنه يفتقد إلى الكفاءة والتنظيم ،فضلاً عن الموارد المالية أو تنظيم الدعاية المؤثرة على الرأي العام العالمي ،وأمام الصحافة التي تخضع للسيطرة العالمية التامة في القارتين (أوروبا وآسيا), لم تكن هناك فرصة أمام الفلسطينيين العرب لشرح قضيتهم أفضل من فرصة الدراويش في مواجهة مدافع كتشنر في أم درمان!....وقد سألني ذات مرة عضو من مجلس العموم بإحدى الحفلات عما إذا كانت حكومة الإنتداب ماضية قدماً في إقامة الوطن القومي لليهود لأن في دائرته آلاف من الناخبين اليهود الذين يهمهم الوقوف على ماتم إنجازه، وعندما ذكر العرب قال ليس لدي

ناخب عربي واحد».

ومالبثت تلك المشاعر العربية العميقة بالمرارة أن اتخذت طابعاً غريزياً أشعله وأساء توجيهه المحرضون ليتحول إلى صدام عنيف ،ولكن ألم يتسلح اليهود منذ البداية؟! ألم تقم حكومة الإنتداب بالسماح لهم بذلك؟!! ... ومع هذا التسليح يتساءل العرب عمن يكون المعتدي؟!!... في نفس الوقت فقد أنكر على الفلسطينيين مالم ينكر على غيرهم – في جزء آخر من مذكراته كتب السير رونالد ستورز «جاءني عدد من الشخصيات التي تهتم بتنظيم مؤتمر فلسطيني وتشكيل وفد فلسطيني يتجه إلى أوروبا وقالوا لي أنهم التقوا بالحاكم العام الذي أوصاهم بإختيار ممثليهم ووعد بتسهيل سفرهم. ولما كانت التعليمات الموجودة لدي تقضي بعدم انعقاد المؤتمر الفلسطيني فقد أجبرت على اتخاذ موقف عدم الإلتزام بشيء وأود أن أوضح أن الصعوبات السياسية التي تواجهها القدس تزداد تفاقماً بالنسبة للحاكم العسكري مالم يطلع بإستمرار وبدقة على المقابلات والمفاوضات التي تمس المصالح العامة، والتي تتم مع أعيان القدس من قبل السلطات داخل المنطقة نفسها».

هذه الأجزاء من مذكرات رونالد ستورز توضح حقيقتين الأولى أنه كما أسلفنا فإن الحركة الوطنية الفلسطينية برزت في وقت مبكر جداً وأنها كانت واعية بشكل كبير للمخططات الصهيونية لتأسيس وطن يهودي ،والثانيه أنه على عكس كل الحركات الوطنية الأخرى فإنه لم يكن هناك أي رغبة لأي طرف في الإعتراف بها وبمقوماتها مع ذلك فإنه جرت محاولات حثيثة من أطرافها لتنظيمها وإكسابها القوة المطلوبة للإعتراف بها ,فقد كتب الجنرال كلايتون أنه في يافا أنشأت حركة إسلامية مسيحية للسهر على مصالح المسلمين والمسيحيين على غرار اللجان اليهودية كما كانت بالفعل قد شكلت لجان من كبار الملاك الذين قادوا الحركة الوطنية في الفترة من١٩١٨م وحتى ١٩٢٩م ولكن عند هذه النقطة لابد من الإعتراف بأن هؤلاء الملاك شأنهم شأن كل البرجوازيات العربية القائمة حتى اليوم كانت تحكمهم المصالح الضيقة والمواقف المتأرجحة وضحالة الإمكانات الثورية ،لذلك فإنهم دأبوا على توجيه الجماهير بما يتماشى مع مصالحهم من خلال المؤتمرات والعرائض والوفود

والمظاهرات وكان هذا دوماً لتحقيق أهداف آنية ضيقة وليس لهدف ثوري جوهري هو مقاومة الإحتلال ،وقد كان للبريطانيين باع كبير في التعامل مع أمثال هذه النخب في مصر والهند وشتى المستعمرات ولذلك كان من السهل عليهم التعامل والتوفيق مع هذه النخبة في إطار عدم الإضرار بمصالحها ولعل ذلك يبدو واضحاً فيما كتبه ستورز في مذكراته عن انتفاضة ١٩٣١م حيث سهلت النخبة الفلسطينية وأيضاً العربية على البريطانيين الخروج من مأزقها ،كتب ستورز «كانت النتيجة البارزة للفشل في لندن وفلسطين ،هو انفجارالمشاعر في فلسطين فجأة حتى أن الدول الكبرى بعدما يقرب من عشرين عاماً من التجربة والخبرة ،احتاجت في وقت السلم إلى جيش عسكري واستخدام كل فنون الحرب للسيطرة على السكان المدنيين المحررين وكان العرب قادرين على مواجهة ذلك بحرب العصابات التي استمرت لستة أشهر ولم يستسلموا لقوة السلاح البريطاني ولا للضرورة الإقتصادية التي تتطلب جمع محصول البرتقال ولكنهم استجابوا لنصيحة رابطة الملوك العرب».

تلا ذلك محاولة إعلان المجلس التشريعي الفلسطيني التي كالعادة باءت بالفشل وهنا يكتب ستورز «وإعمالاً لمبدأ غياب الأمل يعني غياب الخوف ،قام العرب اليائسون بتنظيم إضراب سلمي ومالبث الوضع أن تفاقم حتى أصبحت بريطانيا العظمى موضع سخرية الدول واضطر المعتدلون من قادة العرب – الذين لا يجدون سنداً من الحكومة ويخشون الإتهام بمساعدتها – إلى الوقوف في صف المتطرفين».

منذ انعقاد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول في القدس والذي أقيم في ٢٧يناير ١٩١٩م دائماً ما كانت هناك خلافات عميقة وواسعة بين الوجهاء وأصحاب الأملاك والشبان المثقفين من الطبقة المتوسطة ولم يخفف من حدة هذه الخلافات إلغاء السلطات البريطانية للمؤتمر الثاني والذي كان مقرراً إقامته في فبراير١٩٢٠م وألغته السلطات البريطانية وظلت النخب وخلافاتها وانقساماتها حول مناصب مثل المفتي ورئيس البلدية تفت في عضد الشارع بينما نجح الشارع أكثر من مرة في الحصول على مكاسب والإيقاف المؤقت للهجرة اليهودية حدث ذلك أيضاً في انتفاضة ١٩٨٧م وانتفاضة٢٠٠٠م ، ومنذ تلك اللحظة ورغم اختلاف

الوجوه والظروف والأزمنة ظل الشارع الفلسطيني المؤثر هم الشباب وجماهير العمال والفلاحين والبرجوازية الصغرى هو الذي يتحمل العبء الأكبر من المقاومة والدفاع عن الوجود والهوية أمام المد الجارف الذي تمثله القوى الإمبريالية والصهيونية والتأييد العالمي كل يحاول الحفاظ على مصالحه ومكاسبه.

واليوم أصبحت المقاومة الشعبية بمثابة خيار استراتيجي لا بديل عنه في ظل خلافات الفصائل وصراعات القادة وانسداد الأفق التفاوضي والصعود اليميني المتطرف لإسرائيل ،إن أبسط أشكال مخاطبة الضمير الإنساني وكسب الرأي العام هو مقاومة الظلم والقمع والعنف الدموي بأشكال سلمية مع زيادة تكلفة استعمال الوسائل القمعية على الخصم ومحاولة افقاده لشرعية أعذاره أمام مؤيديه. ومادامت هناك أجيال جديدة من شعب حي سيظل هناك أمل بلاخوف.

"الغريب بيروح بس بده طولة روح" كما يقول أهل فلسطين.

بيتا، نموذج متجدد من المقاومة الشعبية

عبد الغني سلامة*

مقدمة

في بداية أيار ٢٠٢١، اندلعت موجة جديدة من المقاومة الشعبية، وتحديدا في قرية بيتا، جنوب نابلس، للدفاع عن جبل صبيح التابع لأهالي القرية، وحمايته من غول الاستيطان. وحتى إعداد هذا المقال، ما زالت انتفاضة بيتا مشتعلة ومتوهجة..

وهذه ليست المرة الأولى التي تنتفض فيها قرية بيتا، ولا هي المرة الأولى في التاريخ النضالي للشعب الفلسطيني، فقد قدّم الشعب الفلسطيني نماذج رائعة في المقاومة الشعبية، كان أبرزها ثورة الـ٣٦ ضد الانتداب البريطاني، والإضراب الكبير، والذي دام ستة أشهر.. وأيضا في الانتفاضة الأولى، أواخر العام ١٩٨٧.. كما أنَّ الانتفاضـة الثانية (٢٠٠٠)، كانت قد بدأت على نهج المقاومة الشعبية، لكنها سرعان ما تحولت إلى انتفاضة مسلحة.

ومن الأمثلة أيضا انتفاضة «بِلْعين»، والتي اندلعت في العام ٢٠٠٥، واستمرت لسنوات طويلة، وشكلت نموذجا حيا للنضال ضد سياسات الاستيطان ومصادرة الأراضي، وضد جدار الفصل العنصري. وقد تميزت بأنماط نضالها المدني والشعبي الفريدة والمستجدة، وباستقطابها دعم قوى نشطاء السلام وتأييدهم حول العالم، ما جعلها رمزا وعنوانا لمرحلة جديدة في النضال الفلسطيني، هو عصر «المقاومة الشعبية»، ذات البعد المعولم.

* باحث وكاتب فلسطيني

وبعد بلعين بدأت القرى الأخرى المتضررة من الجدار والتي يتهددها غول الاستيطان بالتحرك، وأخذت تمارس أشكالا مشابهة سواء في الفعاليات الميدانية أم في التحرك داخل الأطر القانونية والمحاكم، فهذه القرى استفادت من تجربة «بلعين» وتقوّت بها وكانت تنسق معها في كثير من الفعاليات. الأمر الذي دفع بالمتضامنين الأجانب ووسائل الإعلام للتحرك نحوها.

وفي العام ٢٠١٣ نصب خمسون ناشطا فلسطينيا من قرية بيت إكسا مخيما مؤقتا أسموه «باب الكرامة»، مبدعين طريقة جديدة في المقاومة الشعبية، وفي العام نفسه، بنى مئات من نشطاء لجان المقاومة الشعبية قرى مؤقتة أخرى في مناطق مهددة بالمصادرة، وخاصة في الأغوار، وبالأسلوب ذاته، وأطلقوا عليها تسميات عديدة، منها «باب الشمس».

كما انتفضت الكثير من القرى الفلسطينية، خاصة تلك القريبة من جدار الضم، أو المهددة أراضيها بالمصادرة، ونذكر منها مثلا كفر قدوم، وبورين، والزاوية، وبدرس، وبيت أمر، والمجدل، وبيت فوريك، وبيتا.

وفي أيار ٢٠٢١، خرج المقدسيون في مظاهرات شعبية حاشدة، ردا على هجمات جماعات استيطانية متطرفة كانت تستهدف الفلسطينيين في المدن المختلطة، خاصة في القدس، وبالتحديد في شارع يافا.. ثم تحولت إلى حراك شعبي لحماية باب العامود ومدرجاته، وتكريسه كحيز عام للمقدسيين، ونقطة انطلاق للدفاع عن البلدة القديمة.. ثم اتسع الحراك صوب حي الشيخ جراح، لحماية سكانه من مخططات الاقتلاع، وبهدف حماية المدينة المقدسة من مخططات التهويد..

وبعد تصاعد الهبة المقدسية، بدأت تتحول إلى حراك شعبي أوسع، أخذ ينتقل إلى مدن الضفة الغربية وغزة، بل حتى وصل إلى المدن الفلسطينية داخل الخط الأخضر، وكان على وشك التحول إلى انتفاضة شعبية شاملة، ليس فقط في الضفة وغزة، بل وفي كل فلسطين.. ولو قيض لهذا المسار الاستمرار والنضوج، لأمكنه إحداث تحول خطير في شكل الصراع، كان ممكنا له أن يُحدث تغييرا جذريا وشاملا في المعادلة السياسية.

معنى المقاومة الشعبية

المقاومة هي رد فعل طبيعي عفوي يمارسه الشعب بكافة فئاته وشرائحه لرد الظلم ومواجهة العدوان والدفاع عن النفس، وضد الاحتلال. وللمقاومة تجليات كثيرة وأشكال لا حصر لها، ومن الخطأ أن نحصرها في قالب محدد أو تحتكرها مجموعات مسلحة، ومن البديهي أن تكون أساليب المقاومة ومستوياتها منوطة بإمكانيات الشعب، وقدرته على الاستمرار، وتحمل تبعاتها، مع ضرورة ارتباط المقاومة بهدف سياسي محدد وواضح وقابل للتحقيق.

كما شكّلت المقاومة الشعبية أداة حقيقية فاعلة في الصراع ضد الاستغلال والديكتاتورية والنظم الاستبدادية، ومقدمة للثورات الاجتماعية، والثورات المسلحة، والتي ثبتت جدواها غير مرة؛ فسكان «عكا» هم الذين تصدّوا لنابليون لا جيش الجزار، وأهل «رشـيد»، في مصر، هم من صمدوا أمام الجنرال «فريزر»، بينما عجز عن ذلك جيش «محمد علي»، والمقاومة الشعبية في «بورسعيد» هي التي حمت الجيش الثالث، المصري، بعد أن فتح الجيش الإسرائيلي ثغرة «الدفرسوار» في حرب العام ١٩٧٣، وجماهير «لينينغراد» السوفييتية هي التي انتصرت على «النازيّين» في الحرب العالمية الثانية، والمقاومة الشعبية السلمية هي التي حررت «الهند» من الاستعمار الإنجليزي، وهي التي أطاحت بنظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا.. والأمثلة كثيرة.

ولو أخذنا الحالة الفلسطينية، ونظرنا إلى اشكال المقاومة الأخرى، سنجد مثلا أن المقاومة المسلحة تعتمد على مجموعات مسلحة معينة، ويكون دور الجماهير مقتصرا على تقديم أشكال الدعم والحماية، وتوفير الحاضنة الشعبية.. أما المفاوضات السياسية (وهي أيضا شكل من أشكال المقاومة) فهي تعتمد أيضا على مجموعات الفرق المفاوضة فقط، ويكون دور الجماهير مقتصرا على التوحد والمساندة.. فنرى في الحالتين أن دور الجماهير ثانوي، أو حتى مغيب، بينما في المقاومة الشعبية دور الجماهير هو الأساس، حيث أنه يتطلب، ويحتمل، مشاركة كل الجماهير بأدوار فاعلة ومهمة.

المسألة الثانية أن المقاومة المسلحة تعني تصعيد الجبهة العسكرية، والتي غالبا ما تصل

إلى مستوى الحرب، وفي هذه الحالة تتعطل الحياة المدنية، وتتوقف الدراسة، والمستفيات، والأعمال، والحركة.. مع خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، وتدمير البنية التحتية، دون خسائر جدية ومهمة في جبهة العدو، نظرا لتفوقه العسكري الفادح، وهذا يعني منح العدو انتصارات عسكرية، سيحقق من خلالها مكاسب سياسية.. ولنا في الحروب العدوانية التي شنها الجيش الإسرائيلي على قطاع غزة أمثلة واضحة.

بينما في المقاومة الشعبية، تكون التضحيات البشرية والمادية أقل بكثير، وبما لا يُقارن مع حالة الحروب، بل وتظل الحياة المدنية ماضية دون توقف، وهذا يعطي الشعب قدرة أكبر على الصمود والاستمرار.

جدوى المقاومة الشعبية

لا تقوم المقاومة الشعبية على حسابات الربح والخسارة، ولكنها تنظر باهتمام إلى جدوى أساليبها، من ناحية إرهاق العدو واستنزافه، وتكبيده خسائر سياسية، ومن ناحية النظر في الإمكانيات المتوفرة، ومحاولة تجنيب الشعب تقديم خسائر فادحة، أو تضحيات مجانية..

في الحالة الفلسطينية، سنجد مثلا أن الانتفاضة الشعبية الأولى حولت مشروع المقاومة من مشروع فصائلي يعتمد العمل العسكري، إلى عمل شعبي واسع ومنظم، وتمكنت من إحداث تحولات نوعية في نهج المقاومة وأساليبها. كما أحدثت تغيرات جوهرية في وعي العالم بالقضية الفلسطينية ونظرته تجاه إسرائيل، وبدأت تعمل في إحداث تغيرات في المواقف الإسرائيلية، وأسّست جبهة عربية مساندة للنضال الوطني في المحيط العربي والإسلامي وحتى العالمي.

وفي حالة بلعين كمثال آخر، سنجد أنها لم تلحق بإسرائيل خسائر في الأرواح، وقد فقدت شهيدين فقط، وهذه بلا شك ميزة إيجابية تُحسب لها؛ فبفضل أسلوبها المميز في النضال.. لكنها وضعت سمعة إسرائيل الدولية في موقف حرج؛ فالاحتلال أطلق الرصاص على الأهالي العزل، وأسقط الكثير من الضحايا الأبرياء، ودفع جراء ذلك من سمعته ورصيده على الساحة

الدولية. وتبددت «أكذوبة الديمقراطية الإسرائيلية» أمام حجارة المتظاهرين الفلسطينيين والأجانب ويافطاتهم، وخسرت إسرائيل الكثير من القوة الأخلاقية التي كانت تدّعيها في حربها ضد الفلسطينيين.

وقد أثمرت الجهود السياسية والدبلوماسية لانتفاضة بلعين على الساحة الدولية في إثارة القضية في المحاكم الدولية، فقد أصدرت محكمة العدل الدولية عام ٢٠٠٤ قرارا بأن الجدار الذي تقيمه إسرائيل على الأراضي الفلسطينية بحجة منع النشطاء الفلسطينيين من شن هجمات على أراضيها مخالف للقانون الدولي.

كما نجح أهالي «بِلْعين» عام ٢٠٠٧ في استصدار قرار من المحكمة العليا الإسرائيلية يَنُص على عدم قانونية الجدار في مساره؛ لهذا فقد أوصت المحكمة بهدمه وإعادته إلى الخلف بطول ٥٠٠ متر أي ما يقارب ١١٠٠ دونم. ومن خلال ذلك تمكن الأهالي من إعادة نصف ما هو مهدد بالمصادرة. وقررت إلغاء خطة بناء ١١٠٠ وحدة سكنية في مستعمرة «موديعيت عيليت»، وهذا بحد ذاته يعد إنجازا هاما لأهالي «بِلْعين» و«نعلين» وانتصارا جزئيا لأسلوب النضال المدني الذي اتبعته هاتان القريتان وغيرهما من القرى الحدودية. وبعد صدور قرار المحكمة تمكن أهالي «بِلْعين» من إجبار سلطات الاحتلال على هدم بعض البيوت المؤقتة التي أقامها المستوطنون في الأراضي المصادرة وإعادة بعض البيوت المتنقلة إلى داخل محيط المستوطنة.

أما الهبّة الشعبية المقدسية، التي اندلعت في أيار، فقد قدمت نموذجا رائعا في المقاومة الشعبية السلمية، وحققت من خلالها منجزات مهمة، أبرزها إزالة نقاط التفتيش في باب العامود، ووقف قرار المحكمة العليا الإسرائيلية الذي كان سيؤمن غطاء قانونياً لمصادرة بيوت المقدسيين في الشيخ جراح، وإجبار شرطة الاحتلال على منع المستوطنين من اقتحام المسجد الأقصى وباحاته، وقد سبق للمقدسيين من خلال النضال السلمي كسب معركة البوابات الإلكترونية، ومنع مخطط التقسيم الزماني للأقصى، والأهم نضالهم الدؤوب والملحمي في الثبات والصمود في القدس.. وهذا التراجع الاسرائيلي أمام المقدسيين يكتسب أهمية كبيرة، ويؤكد على نجاعة وقوة المقاومة الشعبية وقدرتها على فرض الحقائق، وأن

الاحتلال لا يتراجع من تلقاء نفسه، ولا بوساطة أو ضغوط دول أخرى، ولا بالمفاوضات؛ بل يتراجع وينكفئ فقط بالمواجهة والإرادة الشعبية.

سمات المقاومة الشعبية في القرى الحدودية

في القرى والبلدات الفلسطينية المحاذية للجدار، أو المهددة أراضيها بالمصادرة قدم الأهالي صورا مشرفة من المقاومة الشعبية، أشبه بالعصيان المدني، فهي لا تقتصر فقط على التظاهرات الشعبية، بل وتشمل أشكالا إبداعية عديدة، من رفع العلم الوطني، إلى الصعود على الجرافات لمنعها من التحرك، أو الوقوف في طريقها، أو احتضان البعض لأشجار الزيتون، في محاولة لمنع الجيش من اقتلاعها، إلى الاعتصام في الأراضي، ورشق الجنود والمستوطنين بالحجارة، وإشعال إطارات الكاوتشوك، إلى جلب المتضامنين الأجانب، ووسائل الإعلام المختلفة..

ومقابل هذا الحراك الشعبي يواجه الجيش الإسرائيلي المتظاهرين بعنف شديد، فيطلق عليهم قنابل الغاز والرصاص المطاطي، والحي، فيقتل، ويجرح، ويضرب، ويعتقل، ويهدم، ويستخدم كل آلته القمعية.

السمة الأهم لتلك الأشكال من المقاومة الشعبية أنها أصبحت نموذجا للكفاح الوطني الفلسطيني، وصورة حية لإرادة الشعب وعزيمته التي لا تخبو. تؤكد للذات أولا وللعالم ثانيا أن قضية فلسطين حية، وأن شعبها لم يستسلم، وأن النضال لم يتوقف.

ويلاحظ أن المتظاهرين لا يرفعون سوى العلم الفلسطيني، في إشارة تأكيد على الوحدة الوطنية، وأنهم لا يرددون الشعارات الرنانة ولا يلقون الخطب العصماء، ولا يضيعون وقتهم في الصراعات الداخلية، في إشارة للسمو على الخلافات والحسابات الفصائلية، ولا يسعون لاقتحام معارك الفضائيات.. بل يركزون كل جهدهم على الفعل الميداني، على القتال بالكلمة والحجر واليافطة، وبسواعدهم وأسنانهم وإصرارهم على التمسك بالهدف، ما يعني أن المقاومة الشعبية وحدها القادرة على ترتيب الأولويات، وبشكل سليم، ووضع الهم الوطني

في المقام الأول، وفوق أي اعتبار آخر.

وهذا بالضبط ما يحتاجه الفلسطينيون في هذه المرحلة تحديدا.

بيتا.. الرباط على الجبل

لم تنعزل بيتا عن الكفاح الوطني الفلسطيني يوما واحدا، وقد كانت على الدوام، كسائر القرى والبلدات الفلسطينية، شعلة للنضال والمقاومة، وفي الانتفاضة الأولى سطرت صفحات كفاحية مشرفة، وتصدت لقطعان المستوطنين، واعتداءات الجيش، وكان لها نصيب وافر من القمع والتنكيل الاحتلالي، فقد قدمت عشرات الشهداء، ومئات الأسرى والجرحى، كما تم إبعاد عدد من أبنائها.

وفي الانتفاضة الثانية، لم تتأخر عن الركب النضالي.. وها هي اليوم تسجل صفحات جديدة في تاريخ الكفاح الوطني.

منذ مطلع أيار، وهي تتصدر ساحات الكفاح، وقد اعتلى أبناؤها جبل صبيح، ضمن معركة كسر عظم مع الاحتلال، للحيلولة دون مصادرته، وتحويله إلى مستوطنة.

في السطور التالية، سأقتبس مما كتبه الناشط والصحافي الفلسطيني نادر صالحة، لكونه متابع ومشارك فيما يحدث هناك، وهو من الصحافيين القلائل الذين واكبوا الحدث، وعن كثب، وعلى مدار الأيام والساعات، وقد رصد مئات الصور والمشاهد، وكتب ونقل صورة حية عما أسماها معركة الجبل.

يصف صالحة استمراية انتفاضة بيتا: «في أيار، انفجرت معركة الشيخ جراح، وبيتا تقاتل. اشتعل الداخل بعدها وبيتا تقاتل، اندلعت معركة سيف القدس وانتهت، وبيتا تقاتل. اهتز المجتمع الفلسطيني وهاج وماج لمقتل نزار بنات وبيتا تقاتل، راقت أحوال البلد وبيتا تقاتل، جاء العيد وبيتا تقاتل، فر المستوطنون من الجبل، وبيتا تقاتل. سقط منهم شهيد شهيدان ثلاثة وما زالت تقاتل! حلّق ستة أسرى أبطال في سماء الحرية في معجزة التحرر من سجن

جلبوع وبيتا تقاتل، اشتعلت السجون وبيتا تقاتل، أعيد اعتقال الأسرى وبيتا تقاتل، استولى الإحباط على الناس وبيتا تقاتل، سيدخل الأسرى إضراباً كبيراً، وبيتا تقاتل.. ننام ونصحو وبيتا تقاتل. جاء وسينقضي موسم التين والعنب وبيتا تقاتل، في عز الصيف والشتاء بيتا تقاتل. البيتاويون لا يفعلون شيئاً.. فقط يقاتلون».

ثم يصف صالحة دور المرأة الفلسطينية في انتفاضة بيتا: «أطلقت مجموعة من نساء جنين مبادرة بعنوان: «عونة من نساء جنين لـنساء بيتا»، وقد أرسلن مواد تموينية لمساعدة الأهالي ودعما لنساء بيتا اللواتي يجهزن كل يوم عشاء لشباب الجبل، وقد كتبن على الطرود عبارة: «من جنين العطاء والتحدي إلى بيتا التضحيات والصمود.. نحبكم».. كيس الرز وعلبة الزيت يعني نحبكم، فخورون بكم، نتقاسم معكن يا نساء بيتا زادنا وقوت أولادنا. كيس الرز وعلبة الزيت يعني بنات البلد قلبهم عالبلد، ونساء البلد في جنين وطولكرم والخليل ورام الله وكل مدن وبلدات فلسطين في قلب المعركة يُطعمن العاصفة بأكفهن. في مواجهة الاحتلال، نحن عائلة واحدة».

أما عن دور المرأة والعائلات في بيتا، فكتب صالحة: «منذ أكثر من ١٥٠ يوما وبيتا تقف جبلا حتى لا يسقط الجبل. تقتطع نساؤها من لقمة عائلاتهم ليطبخوا للمرابطين على الجبل، يجمع الأطفال من مصروفهم اليومي لشراء الوقود لإنارة الجبل، يقدم شبابها أرواحهم فداء لأرضها».

وعن مشهد آخر لمقاومة بيتا الشعبية، كتب صالحة: «أرسل الجنود الإسرائيليون طائرات الدرون الكبيرة لتلقي حمولتها من الغاز المسيل للدموع، غازٌ سافل. يرسلونه إلى الأهداف البعيدة في المواجهات حيث تجمعات الشبان في بساتين الزيتون، وحيث لا تستطيع بنادق الجنود أن تصل.

في بيتا، وفي بداية معركة الجبل سميت هذه الطائرة «سميرة»! سألت، لماذا سميرة؟ هكذا، «سميرة»؟! أحد حراس الجبل سماها «سميرة». وكلما جاءت وحامت، صاح الشبان «أجت سميرة»، و»ديروا بالكم من سميرة».

كنت استغرب مشاهدة أطفال بيتا مع «النقيفات» والشباب مع المقاليع يستهدفون «سميرة» بحجارة المقاليع والنقيفات بهجوم منظم. كثافة إطلاق نحو السماء في وقت واحد.. التكنولوجيا الشاهقة والمتوحشة في مواجهة أكثر الأسلحة بدائية وبساطة. الذكاء الصناعي أمام ذكاء الفطرة. دقة الـ GPS أمام حظ اليد المدربة.

اليوم سقطت «سميرة» شرّ سَقطة، وماتت شَرّ مَيتة. اصطادها شباب بيتا قبل أن تفرغ حمولتها. الانتصارات الصغيرة هذه تهشم صورة القوة الغاشمة وما يُراد أن تفهم بأنه «ما لا يُقهر». الأسرى الستة العظماء فعلوا ذلك تماماً. هكذا ببساطة، فكوا شيفرة الخزنة، واخترقوها. والفتية على الجبل اصطادوا الدرون المتوحشة وحطموها، ولقنوا «سميرة» درساً».

وعن دور النساء في المعركة، كتب أيضا: «شباب بيتا، حسناً، ماذا عن نساء بيتا! سيدات أرض المعركة الوفيات، وحارساتها الآسرات.

خلف كل شاب بيتاوي سيدة بيتاوية تقاتل بقلبها وروحها. خلف كل لحظة مواجهة على الجبل، كل تلويحة مقلاع، كل صرخة، كل إشعال إطار، كل صاعدٍ وكل نازلٍ على الجبل خلف كل منهم قلب امرأة يخفق بشدة، معلق بين الأرض والسماء. بل وأكثر من ذلك.. ومما لم تسمع عنه في الحكايات. هل أتاك حديث حورية (أم شادي)! تقول: ننشغل ليلة الخميس بأمرين، تأمين احتياجات إسناد الطعام والماء لمواجهات الجمعة في الجبل. وننشغل في توضيب بيوتنا وتنظيفها وإعدادها على أكمل وجه، بما فيها إعداد القهوة والتمر. فقد يتحول البيت إلى مأتم يوم غد. قد يستشهد أحد الأولاد! يجب أن يكون البيت مُعداً لاستقبال المعزين بما يليق بأولادنا!

أقسى ما يخشينه الجمعة رنة هواتفهن. رنة الهاتف الجمعة راجفةٌ تشلع القلب وتخطف اللون. أهو النبأ؟ وهذا لعمري حديث تقشعر له الأبدان، ويحني الظهْر.

مبادرة ضيافة الجبل السخية، مبادرة نسوية بيتاوية خالصة. بدأت فكرة إسناد مقاتلي الجبل بمبادرات شخصية لنساء البلدة بأن يرسلن ما يُعددن من طعام في منازلهن إلى الجبل

لإطعام الحراس.. إنا معكم ونبارك سعيكم.. أدركن بأن هذا العمل أكبر مما توقعن، بحاجة إلى تنظيم وإدارة أوسع بعدما اتضح أن المئات من شباب البلدة لن ينزلوا عن الجبل قبل تحريره. ستكون معركة طويلة..

على نفقتهن الخاصة نهضن بالحمل وحدهن، إحدى السيدات تعهدت بصالة تملكها عائلتها، أحضرت السيدات الزوجات والأمهات أفرانهن والصواني والأواني وما لزم من معدات مطبخ بيوتهن إلى الصالة. تبين أنهن بحاجة إلى ١٥٠ كغم لحوم لكل جمعة، و٣٠٠٠ رغيف خبز وما يلزم من احتياجات أخرى. وهذا كثير على عاتقهن، لكنهن نهضن بالحمل. في الشهور الثلاثة الأولى ولغاية إخراج المستوطنين كانت السيدات يُحَضرن ثلاثة آلاف وجبة في كل يوم جمعة. أحضرن أطفالهن للمساعدة، واجتمعت في الصالة قرابة ١٥٠ سيدة بيتاوية يعملن كخلية نحل لإعداد طعام الحراس والضيوف. تتروح أعمار فريق العمل من أطفال في الثامنة إلى سيدات تجاوزن السبعين. كانت تدخل بعض السيدات بمونة بيتها من اللحم، وتلك ببعض الخضار، وأخرى بـلترين زيت، وهذه بكيس أرز، وتلك بالسمن، وهكذا.. مهمة الأطفال كانت تعبئة الأرغفة في الأكياس الورقية، صفيحة واحدة في كل كيس، وترتيبها في الكراتين. تبريد الماء يتم في ثلاجاتهن المنزلية وبعض المحال التجارية التي يتم التنسيق معها. تغيير جرار الغاز، وتحريك الأفران الكبيرة، و»عتالة» مئات الكيلو غرامات من المواد كانت من مهام القوارير. ساعات العمل المطلوبة لانجاز هذه المهمة الاسبوعية يتكلف ١٤ ساعة عمل. ٤ ساعات مساء الخميس، و١٠ ساعات عمل الجمعة بدون توقف لمائة سيدة. كل هذا يحدث على طاولة في صالة حيث لا مطبخ حقيقي، ولا غاز حقيقي، ولا تجهيزات مناسبة لهذا الحجم من العمل.

أحدهم جاء بربطة خبز، قال هذا ما استطيع. أهالي البلدات القريبة ساهموا أيضاً في توفير بعض الاحتياجات. بعضهم كانوا يأتون فجراً، خفية، يضعون الأكياس والخبز، وقناني الزيت، الملح، الخضار، وبعض الأواني وما توفر.

في الأشهر الأولى انفقت السيدات على طعام معركة الجبل كل ما استطعن، لقد أُستنفِذن

تماماً.. «هذا إسهامنا في معركة لله». يكلف طعام يوم الجمعة لوحده ما بين لحوم، خبز، عصائر، مياه، ولبن قرابة ٧ آلاف شيكل. هذا لا يشمل خصومات المحال التجارية ومساهماتها والتبرعات العينية. هذا بالإضافة لتحضير ستين وجبة يومية خلال أيام الاسبوع، وأيضاً بطعام خاص لطواقم الإغاثة الطبية والمسعفين الذين خصوهم بطعام «خمسة نجوم» لطول الفترة الزمنية التي يقضونها على أهبة الاستعداد لإنقاذ الأبناء. قرابة ٣٠ مسعفاً وسائقاً وطبيباً متواجدين طيلة أيام المواجهات في أرض المعركة. شباب وحدة الكوشوك أيضاً من فئة «الخمس نجوم» يريدون طبخاً وليس صفيحة فقط، بسبب صعوبة المهمة التي يقومون بها وطول المدة التي يقضونها تحت الشمس وتحت الدخان..

هاتيك العظيمات حملن تكاليف كل ذلك بشكل شخصي وبمبادرات فردية. هذه تدفع ٢٠٠ شيكل، تلك ٥٠٠، وهكذا حتى يغطين قيمة المواد الأساسية. يفعلن ذلك كل أسبوع. إجمالي ما أنفقت هؤلاء السيدات يقدر بـ ١٠٠ ألف شيكل، عن طيب خاطر وحب خالص، ودون أن يُشعرن أحداً بثقل الحمل. قالت حورية: «ارتبكنا.. صرنا نتصل على بعض، شو بدنا نعمل يا مريم.. قديش أمنتوا لحمة؟ شو بدنا نعمل يا رماح.. شو صار معك يا شروق؟ طمنيني يا انشراح! بكرا الجمعة يا بنات، معناش وقت، يارب بيّض وجوهنا، والله ذاكت فينا الدنيا».

لم تتلق نساء بيتا أية مساهمة تذكر من قبل المؤسسات الرسمية ولا النسوية، ولا مؤسسات المجتمع المدني، ولا الجمعيات ولا التنظيمات. نهضن بالحمل وحدهن، ومن شرفاء القرى المحيطة. بعض مغتربي البلدة قدموا مساهمات.

السيدات اللواتي التقيناهن في مطبخ إعداد طعام الحراس من تنظيمات سياسية مختلفة، لن تشعر بذلك، ولن يُشعرنك بذلك. هنا بيتا. وكلهن متعلمات، متحدثات لبقات، أقلهن حاصلة على درجة البكالوريوس، صاحبات مشاريع صغيرة، معلمات، محاميات، مُبادرات، ربات بيوت أنيقات. نسويات من طراز رفيع. وزيادة على ذلك لديهن أفكار لإنشاء مؤسسات وجمعيات تدعم ثقافة الصمود والمقاومة الشعبية. هن حركة نسوية بعنوان «أقل الواجب»، هكذا يُعرفن عن أنفسهن. تأمل الاسم، وتأمل الثقافة التي يكرسنها. تقول لك: معركتنا معركة

صمود وهوية. سنفعل كل المستطاع لتبقى بيتا عنوان الكبرياء والصمود وحب الحياة رغم كل شيء.

من مبادراتهن في خضم معركة الجبل، مبادرة تطعيم أهالي البلدة. بادرن إلى حملة تطعيم وأدرنها من ألفها إلى الياء لتطعيم أكبر عدد ممكن من أهالي البلدة. بادرن بالاتصال مع الهلال الأحمر، تلقين التدريب اللازم لتنظيم الحملة، وإدخال البيانات، وتحضير المكان، والعناية بالقادمين لتلقي التطعيم، وتوفير الضيافة لكل من جاء، وأيضاً تدريب توعوي حول الطعومات. خلال ثلاثة أيام نظمن حملة سوشيال ميديا.. ونجحن في تطعيم ١٢٠٠ من أهل البلدة دفعة واحدة. بعد انتهاء التطعيم سهرن حتى منتصف الليل لثلاثة أيام متوالية لإدخال البيانات وتدقيقها. ذهلوا في وزارة الصحة، وذهلنا نحن لما فعلن.

يتحدثن عن إيقاف الطبخ في منازلهن، لأن الأولاد والزوج والأخ سيصلهم طعامهم ساخناً على الجبل.. «وخسارة نطبخ في البيت، الجبل أوْلى». مريم، لديها سيارة، كانت تتكفل في البدايات بجمع الوجبات من منازل صديقاتها في تجمع «أقل الواجب» وتوصله إلى الجبل بنفسها. بعض السيدات حرصت على توفير السجائر إلى الحراس. كانت إحداهن تفاجئهم بكرتونة آيس كريم في القيظ من وقت لآخر. تم فرز «وحدة الفرن»: مريم، شروق، أم وهاج على غرار وحدات الجبل المقاتلة.

من الأرقام القياسية التي سجلنها أنهن عجنَّ ٨ شوالات طحين على أيديهن في يوم واحد لإعداد المعجنات في يوم خاص دلالاً للحراس. لديهن دزينة من أفراح مؤجلة لأبنائهن والأقارب والأحباء. إحدى السيدات مصابة بالسرطان وتتلقى جرعات العلاج الكيميائي، ولكنها حضرت كل الجمع. وفوق كل ذلك، مستمرات.. نساء بيتا الآسرات.

لم تتلق هؤلاء السيدات أي دعم خارجي، غياب تام للمؤسسة الرسمية والـ NGOs والمؤسسات النسوية لدعم هذه التجربة الفريدة والمجيدة. لا تتخيل كم الأفكار لدى هؤلاء السيدات لتطوير مشاريع صغيرة ومأسسة هذا العمل لتعزيز استدامة هذه الثقافة وهذا النهج. الموضوع مش طبخ.. هذا فعل مقاومة، وثقافة انخراط في معركة الكبرياء، وقدرة

عالية على الإدارة، ونموذج نسوي حضاري وثقافي اجتماعي مُقاوِم».

وعن تضحيات أهالي بيتا، وصف صالحة أحزان الضحايا، وبشاعة المحتل: «هذه غزل؛ طفلة محمد الوحيدة، رضيعة لم تتم ٨ شهور من عمرها، وقد أصبحت يتيمة، فقدت أباها لإن جندياً على بعد ١٠٠ متر كان واقفاً يحمل بندقية، ولأنه يستطيع أن يضغط على الزناد، أراد أي ذريعة. لا أعرف ما الذي أغاظه ليقرر أن يفجر رأس محمد! أأغاظته رشاقة محمد في استخدام المقلاع، أو لون بلوزته؟ أم تسريحة شعره؟ أو أن الضابط المسؤول عنه وبخه صبيحة هذا اليوم، أو أن رسالة نصية وصلته فعكرت مزاجه، فأراد أن يروح عن نفسه ويراقب المشهد من منظار قنصه. سيعود لحبيبته أو لرفاقه في الكتيبة بقصة مشوقة يرويها وهم يلعبون الورق! أياً يكن السبب، فالسبب الوحيد غير الممكن أن محمداً قد هدد حياته، فبادر لقطف رأس والد غزل الطفلة دفاعاً عن النفس. هذه النفس الدنيئة. هكذا سيقول في تقريره في نهاية عمل اليوم: لقد هدد حياتي. لقد كان يحمل حجراً! يا لله. كان بامكانه التصويب على قدمه، أو يده، ليؤذيه حقاً. لكنه صوب نحو الرأس تماماً..

بكاء زوجة محمد وأبوه وأمه وبنته غزل سيغمر العالم، وإن هطل فيها المطر، فهذه دموعهم. وإن خفقت ريح، فهذه زفراتهم. هذا هو قمر بيتا السابع؛ محمد علي خبيصة».

وفي جانب آخر، وصف صالحة تضحيات بيتا: «جرحى بيتا، ملفات مُزمِنة.. الأكلاف الباهظة خلف مشاهد الجسارة والبطولة والصمود في ملحمة بيتا غير مستوفية لحقها الأدنى في التغطية والمُعالجة. إنه ملف الجرحى، ملفٌ ينزف ألماً وامتهاناً ومظلومية. كل تفصيل فيه جرحٌ فوق الجرح. من المعيب أن يدفع هؤلاء فوق كلفة الاشتباك والتصدي بأعمارهم ولحمهم الحي كلفة إضافية بتحمل مضاعفات الإصابات الجسمية والنفسية والمعنوية والمالية وحدهم. المقاومة الشعبية عمل تكاملي رسمي وشعبي.

تجاوز إجمالي عدد الإصابات في بيتا حلال الشهور الأربعة الأولى ٤٠٠٠ إصابة حسب الهلال الأحمر. منها ١٥٥ إصابة بالرصاص الحيّ، ٧٠٠ إصابة بالرصاص المعدني المغلف بالمطاط.. ٢٠٠ إصابة سقوط عن الصخور نتج عنها كسور في الحوض والأطراف. إصابات الاختناق بالغاز

غير المسجلة بالآلاف. هذا حسب ممثل رابطة جرحى فلسطين (فجر) في بلدة بيتا.. الشبان الأكثر استهدافاً، ويشكلون ٧٠٪ من الإصابات. إضافة للعُمال وأساتذة المدارس والموظفين وعناصر الأجهزة الأمنية».

وعن دعم وإسناد القرى المجاورة، كتب صالحة: «ما يلفت الأنظار في مواجهات بيتا تواجد فرقة ترتدي زي فريق «البروفيسور»؛ الأفرهول الأحمر وقناع دالي. هذه وحدة للدعم من خارج بيتا، إنهم شباب بلدة أوصرين. حضروا للقتال ومساندة الحراس. متخصصون في إعادة القنابل المسيلة للدموع والمقاليع. قاتلوا ببسالة كانت محط اعجاب.

علق إعلام المستوطنين على هذه المشاهد بخطورة حضور هذا الزي في المعركة، وتوظيف الأيقونة الدرامية العالمية لاكاسا دي بابيل في إعلام المقاومة الشعبية. يقولون: «انظروا، جديد بيتا، النسخة البيتاوية من لاكاسا دي بابيل»!، «من هو «اليهودي» الذي نصحهم بذلك! لقد تجاوز الحدّ».

خلاصة

الحل فقط بالمقاومة الشعبية، على ألا تقتصر على قرى بعينها، ولا أن تكون موسمية، أو ردات فعل.. ويجب أن تكون شاملة، ومستمرة، وسلمية..

تطبيع بدون تسوية العلاقات الإسرائيلية العربية تبلغ السقف الزجاجي

د.محمد حسني

شهدت السنتان الأخيرتان تطورات متسارعة في العلاقات الإسرائيلية – الخليجية، بلغت ذروتها باتفاق أبراهام (سبتمبر ٢٠٢٠) ولم تتوقف عندها. العلاقات الإسرائيلية العربية ليست بالأمر الجديد، جانب منها علني ورسمي، مع مصر والسلطة الفلسطينية والأردن، كان بمثابة قمة جبل الجليد الطافية. أما الجانب الأكبر، قاعدة الجبل الجليدي، فتمثلت في علاقات غير معلنة بمعظم الدول العربية.

ظل هذا الجانب من العلاقات سرّيا، وبالأدق غير معلن رسميا، بطيئا وهشا، يتوقف عند اندلاع مواجهات بين المقاومة الفلسطينية وإسرائيل، مثله في ذلك مثل الدول ذات العلاقات الرسمية، التي تتسم هي الأخرى بالفتور. كما أن العامل المشترك هو أن العلاقات ظلت على مستوى النخبة الحاكمة، دون أن تحقق أية إنجازات على المستوى الشعبي.

إلى أي مدى يمكن أن تمتد مسيرة التطبيع، وإلى أية درجة يمكن أن تصمد؟

في مؤتمر حضره سفراء من آسيا وافريقيا وأميركا الجنوبية، بوزارة الخارجية الإسرائيلية ديسمبر ٢٠١٨، قال نتنياهو " إننا في خضم مسيرة تطبيع مع العالم العربي، دون ان يكون هناك للأسف تقدم مع الفلسطينيين. ..١

وفي حوار مع إذاعة الجيش الإسرائيلي،في ٢٠٢٠، قال بنيامين نتنياهو، رئيس الحكومة السابق:

"لقد قال أولمرت أنه من الوهم أن تعقد دولة عربية السلام مع إسرائيل قبل أن نعقد السلام مع الفلسطينيين. أما أنا فأؤمن بالعكس وفعلت العكس، وها هي الدلائل مختلفة"٢

زعم نتنياهو أنه يتبنى توجهاً جديداً (out-in) لحل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.٣ كان هذا التوجه موجوداً في بداية الصراع. عندما حاول بن جوريون وموشيه شاريت عقد محادثات مع زعماء الدول العربية. هذا التوجه يعارض المنطلق العكسي، وهو أن حل الصراع يوجب حل نواة الصراع (in)وحينئذ للتوجه للخارج(out).

لم تتأثر اتفاقية أبراهام من أحداث القدس وغزة، وهو ما استغله نتنياهو في الدعاية لنفسه، كما انه قام بما يشبه الاحتكار في الزيارات الخليجية.٤

استمرار الاستيطان

وفي سؤال عن وقف الاستيطان صرح بنيامين نتنياهو لإذاعة الجيش أنه لن يتخلى عن خطة ضم الأراضي بل أرجأها فحسب، وأنها جزء من خطة القرن للرئيس الأميركي ترامب.

"الكثيرون في العالم توافقوا على فكرة "الأرض مقابل السلام" وهي فكرة خطيرة، أما أنا فقد كونت صيغة أخرى (السلام مقابل السلام) سلام ينطلق من ذاته، دون انسحاب، يقول الفلسطينيون إننا يجب أن نعود لحدود ٦٧ ولتقسيم القدس وهو أمر عبثي، وقد وافقوا في العالم أجمع على ذلك، أما أنا فرفضت.."

"فإذا كنا قد قبلنا بأفكار اليسار، فإن إسرائيل تضعف نفسها بحدود ٦٧، التي أطلق عليها آبا إيبان حدود أوشڤيتس٥. إنه تحول تاريخي نحن غير مطالَبين بالانسحاب او التفاوض مع الفلسطينيين.

سخر نتنياهو من فكرة الدولة الفلسطينية "إذا كنا نحن المسيطرين على الجو والبر فهل تسمى هذه دولة".٦

خلال السنة الماضية، واصلت إسرائيل عمليات ضم الأراضي، تضمنت البناء في القدس الشرقية ومستوطنات الضفة وهدم بيوت الفلسطينيين في المناطق C، وتحويل تمويلات للمستوطنات، ومبادرات برلمانية لتسوية أوضاع البؤر الاستيطانية العشوائية. ٧

ردود الأفعال الفلسطينية

توالت تصريحات قيادات السلطة الفلسطينية، ومن بينها تحذير أبو مازن من مغبة تجاهل الفلسطينيين وعقد اتفاقات بين إسرائيل ودول عربية، وحمّل كل من إسرائيل وإدارة ترامب المسؤولية عن ذلك لتبنيها هذا التوجه ودعمه.٨

قوبلت اتفاقية أبراهام باستهجان شعبي ورسمي فلسطيني، حيث استدعت سفيريها من "أبو ظبي" و"المنامة". في المقابل ظهرت تعليقات غير رسمية تهاجم السلطة الفلسطينية، وتتحدث عن تنمية المناطق الفلسطينية بشكل خاص، وإنشاء صناديق دعم الشركات الناشئة، دون التعاون مع السلطة.

ولا يزال الموقف الرسمي لكل من الإمارات والبحرين هو "حل الدولتين" والتعاون مع السلطة الفلسطينية، وحتى الدعوة لإقامة دولة فلسطينية، دون الخوض في تفاصيل طبيعة هذه الدولة، ولا تتخذ أية مواقف حقيقية لتحقيق ذلك.٩

بينما علق وزير الخارجية السعودي على الاتفاق الإسرائيلي-الإماراتي بالتحفظ بسبب سياسات الضم الإسرائيلية، وأكد على انه لن يكون هناك تطبيع للعلاقات دون اتفاق مع الفسطينيين.١٠ كما صرح الملك عبدالله انه لا يمكن تحقيق السلام في الشرق الأوسط بدون دولة فلسطينية.١١

فلسطينيو٤٨.. المنسيون

في ٢٠١٨، أجرى معهد ميتقيم(مسارات) استطلاعه السنوي، والذي أظهرت نتائجه أن ٥٤٪ من الإسرائيليين اليهود يعتقدون أنه من الممكن فتح مسارات سياسية مع الدول العربية دون حل المشكلة الفلسطينية، في حين أن القليل بين العرب(في حدود ٤٨) مقتنعون بذلك. وهو ما يعني في رأي بروفيسور بوديه أن نتنياهو نجح في إيهام بل وفي خداع الجمهور اليهودي في الدولة. ١٢

في أبريل ١٩٦٥ سُئِل سيف الدين زغبي، رئيس بلدية الناصرة، وعضو الكنيست منذ تأسيسه، عن رأيه في دور العرب في عملية السلام، فرد يائسا :".. لا يستشيرنا أحد في الشؤون الخارجية، كان يجب أن نكون جسرا للسلام، يجب أن نهتف يوميا للسلام.. لو كان الوضع مختلفا ربما كان عرب

إسرائيل سيسهمون في ذلك.١٣

في السبعينات والثمانينات حل شعار "السلام والمساواة" محل "جسر السلام". يعتقد ألكسندر يعقوبسون، محلل الشؤون العربية بجريدة هآرتس" أن مواقف العرب في إسرائيل من عملية السلام نبعت من منطلق فلسطيني لذا فقد عارضو اتفاقية السلام مع مصر في ابريل ١٩٧٩. لأن اتفاقيات السلام تضر بالقضية الفلسطينية. ١٤ وخلال التصويت على اتفاقية أبراهام في خريف ٢٠٢٠ بالكنيست صوّت جميع أعضاء الأحزاب العربية قي القائمة المشتركة ضده.

وقد صرح عضو الكنيست أيمن عودة (القائمةالمشتركة) في اليوم التالي لتوقيع اتفاقيات التطبيع بالبيت الابيض: لم يأت بعد اليوم الذي نحتفل فيه بالسلام، لكنه لم يأتِ بعد، سيستمر الاحتلال غدا، وسيحيا الفلسطينيون تحت الحكم العسكري، وسيستمر المجندون في الوقوف عند الحواجز، ويقتحمون بيوتهم. سيستمر المستوطنون في نهب الأراضي. المراسم الفخمة في واشنطن ليست اتفاق سلام تاريخي ، بل اتفاقية سلاح تاريخية.١٥ كما علق الكاتب سلمان مصالحة ان اتفاقية التطبيع بين إسرائيل والإمارات لا ترمي لحل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.١٦

"السقف الزجاجي"

"محاولات بنيامين نتنياهو للالتفاف على القضية الفلسطينية- هي بمثابة أمنية فمن أجل إحداث تغيير حقيقي يجب الدفع بالعملة الصحيحة."

هكذا يرى إيلي پوديه الخبير في الشؤون العربية، الذي شرح الفرق بين مفهومي "العلاقات الطبيعية" و"التطبيع" في الوعي العربي، وكذلك الدلالة السلبية لكلمة "تطبيع"، والحركات السياسية التي تناهض "التطبيع" في بلدان مثل الأردن ومصر مثلا.

يرى پوديه أن توجه نتنياهو محض أماني ففي الوضع الراهن العلاقات بين إسرائيل وجيرانها ليست علاقات طبيعية بالمرة، بل "عادية"، فالعلاقات سرية -بالادق غير معلنة التفاصيل- وبين الأنظمة وليست الشعوب.١٧

أما زعم نتنياهو أنه يتبنى استراتيجية جديدة لحل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني (out-in). فيؤكد پوديه أنها ليست بجديدة، كما لم تفلح أبدا، لا في عهد بن جوريون ولا بعده. وحتى بعد عقد اتفاقية السلام مع مصر، لم يحدث تقدم للشأن الفلسطيني. أما عن الأردن فجاء السلام معها تاليا على اتفاقيات أوسلو وليس العكس. علاوة على أن العلاقات الدبلوماسية التي عقدتها إسرائيل، في أعقاب أوسلو، مع المغرب وتونس وقطر وعمان، قُطعت إثر اندلاع الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠. ١٨

وهو ما يعني، والكلام لـ پوديه " أنه لا يجب قطع الصلة بين الدول العربية والمسألة الفلسطينية، حتى لو تبينّا مؤخرا علامات انفصالها عنها". ويرى أن سياسة نتنياهو نحو العالم العربي كانت تهدف لتأكيد هذا الأمر، والالتفاف حول المشكلة الفلسطينية. مستغلا موقف الدول العربية من "العدو المشترك" إيران.

فالتقدم الحقيقي، وليس مجرد العلاقات الدبلوماسية لن يتحقق دون أن يكون هناك حل للصراع الاسرائيلي-الفلسطيني، أو على الأقل تحقيق تقدم ملموس نحو ذاك الحل.

يستند التحليل السابق إلى عدة عوامل

-لا يزال للشأن الفلسطيني دور حساس وإيديولوجي في السياسة وفي الشارع العربي.

-يعاني معظم الحكام العرب من مشكلات الشرعية، لذا فلن يجرأوا على انتهاج سياسات معلنة من شأنها إثارة المعارضة العلنية وزعزعة موقفهم. ربما كانت لديهم مشكلات أهم من المسألة الفلسطينية والتي يريدون إزاحة عبئها، لكنهم لا يستطيعون المخاطرة بتجاهلها. في كثير من الأحيان تحرص إسرائيل على تسريب الأخبار برغم وعودها بالكتمان. ١٩

-تتسم العلاقات المذكورة بالسرية وانها تقوم بين حكومات وليس شعوب.

والمتغير هو إعلان "عدو مشترك"-يقصد به إيران- وليس مصالح مشتركة ، مثل الطاقة والبيئة والموارد المائية.

والخلاصة أن العلاقات الإسرائيلية-العربية تواجه سقفا زجاجيا-حسب تعبير پوديه- لا يمكن تحطيمه سوى بحل المسألة الفلسطينية او على الأقل التقدم في سبيل حلها. ٢٠

النصف الثاني من عام ٢٠٢٠:

شهدت الفترة المذكورة إقامة علاقات دبلوماسية مع الإمارات العربية المتحدة والبحرين والمغرب، ودفع مسيرة التطبيع مع بلدان أخرى، ماعدا مصر والأردن. التعاون في المجالات الاقتصادية بتشجيع ودعم الحكومات، وتدشين خطوط جوية مباشرة بين إسرائيل والإمارات والبحرين بموافقة السعودية على المرور بمجالها الجوي، وكذلك خط تجارة بحرية، زيارة آلاف الإسرائيليين للإمارات وإعفاء متبادل من التأشيرات. ٢١

الانتخابات الأميركية:

مع اقتراب الانتخابات الأميركية عملت إدارة نتنياهو على تحفيز اتفاقيات التطبيع، استغل رغبة إدارة ترامب التي تبنت خطا للتطبيع متجاهلا للقضية الفلسطينية، كما توسط الأميركيون في مفاوضات الحدود البحرية مع لبنان.

في أعقاب فوز بايدن، استغلت إسرائيل الفترة الانتقالية للحصول على اعتراف إدارة ترامب بالمستوطنات.

كما توقعت إسرائيل توصل إدارة بايدن لاتفاق نووي مع إيران، وهو ما تعارضه إسرائيل وتسعى في المقابل لزيادة العقوبات على إيران. في السياق نفسه باعت إسرائيل الأسلحة لآذربيجان المتاخمة.٢٢

مثّل دخول بايدن البيت الأبيض تحديا أمام إسرائيل في سبيل استمرار توجهاتها في السياسة الإقليمية نحو عقد تحالف مع أنظمة عربية ضد إيران. وفق تقديرات د. روعي كيبريك ود.جيل مرسيانو،إن إدارة بايدن تطمح في استقرار الشرق الأوسط وتطبيع العلاقات بين إسرائيل والبلدان العربية، في سبيل انسحاب تدريجي من انخراطها في مشكلات الشرق الأوسط. في المقابل تسعى الحكومة الإسرائيلية الجديدة أن ترمم ما خربه نتنياهو، بإهماله للديمقراطيين والتصاقه بإدارة ترامب.بينما أُحبطت مساعي أشكنازي لإعادة التقارب مع الاتحاد الأوروبي بعد تجمدها بسبب مسلك نتنياهو. ٢٣

النصف الأول من ٢٠٢١

كانت أحداث القدس وغزة تؤكد مركزية الصراع الإسرائيلي -الفلسطيني برغم المحاولات السياسية لتهميشه. كما كشفت قصور مسار العلاقات الذي ركز على النخبة الحاكمة دون مراعاة الشارع العربي.٢٤

سببت العمليات في القدس استهجانا دوليا، بلغت أبواب محكمة لاهاي المطالبة بالتحقيق الميداني للأحداث. أشعلت الممارسات الإسرائيلية جولة جديدة من "العنف"، كشف عن الصعوبة المتزايدة للمساعي الإسرائيلية للفصل بين الفلسطينيين في كل من القدس الشرقية وقطاع غزة والضفة الغربية والداخل الإسرائيلي. ٢٥

تقول د.ميخال يعري، متخصصة في الشؤون السعودية، جامعة تل أبيب: "لو كان بمقدور الانظمة الخليجية الضغط على السلطة الفلسطينية للجلوس إلى مائدة المفوضات، لكنها لا تستطيع إجبارها على التوقيع على وثيقة تخالف مطالبها".تميل السعودية للكلام عما أسمته "سلام منطقي" بدلا من سلام عادل. ٢٦

بدرت محاولات من جانب كل من وزير الخارجية جابي أشكنازي ووزير الدفاع بني جينتس لإصلاح العلاقات مع الأردن بعد توترها. في الوقت نفسه توسعت العلاقات مع مصر على الصعيدين السياسي والاقتصادي في مجالات الطاقة والأعمال. استمر التعاون الأمني بين مصر وإسرائيل في سيناء وقطاع غزة. كما كانت التطورات حول الانتخابات الفلسطينية الوشيكة، والتصعيد في القدس وغزة، تؤكد الدور السياسي الأساسي لمصر في الوساطة بين الداخل الفلسطيني أو بين إسرائيل وحماس. وقد لمس المحللون هيمنة معارضة التطبيع على الشارع المصري. ٢٧

يرى حاييم هرتسوغ (حزب المعسكر الصهيوني)، زعيم كتلة المعارضة بالكنيست، إنه من أجل دفع مسيرة التطبيع وجعلها معلنة، يجب أولا التقدم في المسيرة السياسية مع الفلسطينيين. : ٢٨

ويقول عضو الكنيست العربي عيساوي فريج، عضو لجنة الخارجية والأمن عن حزب ميرتس:

"في لحظة حل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، ستختفي "الحجة" الإيرانية سينتهي الجمود وستظهر العلاقات إلى العلن. إن إسرائيل تتجاهل مبادرة السلام العربية، وتتخذ إجراءات، على سبيل المثال،

حول المسجد الأقصى، فهي تزيد العداوة وتمنع تطبيع العلاقات. ويدعم د. نمرود جورن، رئيس معهد ميتقيم الفكرة ذاتها. ٢٩

ينتقد د. يوڤال بنزيمان، المتخصص في أبحاث الصراع بالجامعة العبرية، توجه حكومة نتنياهو، ويرى أن التعاون الاقتصادي والعسكري لن يصمد طالما تندلع جولات اخرى من المواجهات مع الفلسطينيين، ولن يكون هناك سلام إقليمي دون حل المشكلة الفلسطينية.٣٠

دعم الرأي الأخير عدد من الخبراء والمحللين من بينهم موران زاجا الأستاذة بجامعة حيفا وعضو بمعهد ميتقيم،، ود. حاييم كورن، سفير اسرائيل بمصر(سابقا)، وجاك حوجي: محلل الشؤون العربية في إذاعة الجيش الإسرائيلي، الذي ضرب مثالا بالمغرب ، حيث يزورها نحو ٣٠ الف سائح اسرائيلي، وهو تطبيع على الأرض وليس على الورق. ٣١

عقدين من التجاهل

يرجع التوجه الذي تبناه نتنياهو إلى عام ٢٠٠٠، فلأكثر من عقدين لم تقدم إسرائيل أية مبادرة سياسية لدفع عملية السلام، حيث راج شعار "لا يوجد شريك" بمعنى أنه لا يوجد على الجانب الفلسطيني من يريد المشاركة في التفاوض. خلال إدارة شارون ثم أولمرت، عملت الحكومة على تغيير طبيعة العلاقات الإسرائيلية-الفلسطينية، من جانب واحد. منذ اعتلاء نتنياهو السلطة وهو يتعنت في تجاهله للفلسطينيين، ويسعى لإثبات صواب سياسته بأي ثمن.٣٢

كان رئيس الوزراء السابق إيهود أولمرت قد صرح مرارا وتكرارا أن أبو مازن شريك شرعي للتسوية، وطبق ذلك بالفعل في مباحثات أنابوليس ٢٠٠٧. وإن كان أولمرت لم يحرز تقدما، فالمحللون يرون أن السلطة الفلسطينية تتعاون أمنيا بامتياز مع إسرائيل، وتسعى للحل السياسي، بينما لم تكن هناك استجابة إسرائيلية منذ ٢٠٠٨ خلال حكم إيهود أولمرت. ٣٣ ومنذ أن تولى نتنياهو لم يحقق شيئا في سبيل التسوية بل طرح مصطلحات جديدة منها "دولة الحد الأدنى" ٣٤

نفتالي بينيت.. هل يبشر بجديد

أبدى رئيس الحكومة الجديد نفتالي بينيت اهتماما بالسياسة الخارجية،

في السابع والعشرين من أغسطس الماضي قام بينيت بزيارة للولايات المتحدة التقى خلالها بالرئيس جو بايدن وكل من وزير الخارجية ووزير الدفاع، وتركزت المباحثات حسب الصحف الإسرائيلية على الملف النووي الإيراني.٣٥

عرض بينيت خلال زيارته التي تعد الاولى منذ تولي كليهما منصبه، خطة تسمى "الموت عن طريق ألف جرح" وتهدف إلى إثخان إيران بسلسلة من العمليات الصغيرة بطرق عديدة وعلى كافة الأصعدة بدلا من هجوم عسكري موسع.٣٦

وعلى صعيد العلاقات مع الدول العربية، أعلنت الخارجية الإسرائيلية في أغسطس الماضي عن عزمها تطوير العلاقات مع المغرب، وفتح سفارتين في مراكش وتل أبيب٣٧. في ١٣ سبتمبر التقى بينيت الرئيس المصري في شرم الشيخ، تباحثا خلالها في سبل تعميق العلاقات واهتم بينيت بتوسيع نطاق التجارة المتبادلة، وذكرت صحيفة معاريف ان المباحثات تضمنت عدة موضوعات من بينها السلام بين إسرائيل والفلسطينيين.٣٨ في الثاني من نوفمبر وخلال قمة المناخ العالمية، التقى بينيت ولي عهد البحرين سلمان بن حمد آل خليفة.٣٩

الموقف من التسوية

ينتمي بينيت إلى الجناح الديني-القومي، ويؤيد فكرة "أرض إسرائيل الكاملة" ويهودية الدولة، ومن ثم يؤيد مواصلة الاستيطان، والحلول العسكرية ضد الفلسطينيين، كما يعتبر فكرة إقامة "دولة فلسطينية " في حد ذاتها كارثة على إسرائيل.٤٠

يعارض بينيت الانسحاب لحدود ١٩٦٧، وتقسيم القدس، اما النظرية التي يطرحها منذ ٢٠١٢، فهي مزج خلاصة المواقف اليمينية المتطرفة، حيث تنفي حقوق الفلسطينيين تماما، وتسعى لضم كل الأراضي الفلسطينية باستثناء معازل في الضفة وغزة شريطة أن تظلا منفصلتين، وتحت هيمنة

الجيش وجهاز الأمن العام الإسرائيليين، والتمهيد للدفع بغزة تحت السيطرة المصرية.٤١

يمجد بينيت القوة العسكرية والحفاظ على حالة الضعف لدى الخصم، باستخدام كافة الوسائل سواء العمليات الحربية، أو الاغتيالات ومعاقبة أسر عناصر المقاومة وهدم بيوتهم، ويعتبر أن الحدود القانونية تكبل قبضة الجيش الإسرائيلي.٤٢ تبنى بينيت سياسة عنيفة تجاه قطاع غزة، بزعم أن ذلك رد على إطلاق بالونات حارقة. كما استمرت الغارات الجوية على سوريا والتي لم تعلن إسرائيل مسؤوليتها عنها.

رأي عام أكثر يمينية

في أكتوبر ٢٠٢١، أجرى معهد ميتقيم، استطلاعا حول السياسة الخارجية الإسرائيلية عقب تولي الحكومة الجديدة، والذي أظهر النتائج التالية:

- بشأن تأثير اتفاقيات التطبيع بعد مرور عام على توقيعها وإمكانيات دفع السلام الإسرائيلي-الفلسطيني
- تقدير المشاركين في الاستطلاع لآداء وزارة الداخلية انخفض عن العام الماضي، حيث عبر ٢٤٪ عن رضاهم عن أداء وزير الخارجية الجديد يائير لابيد.
- ٣٣٪ يرون أن على وزارة الخارجية السعي لتعميق التعاون الإقليمي
- ٢٣٪يؤيدون ضرورة إدماج مواطني إسرائيل العرب في العلاقات الإقليمية
- الأغلبية (٥٩٪) تعارض مشاركة أعضاء كنيست عرب في لجنة الخارجية والامن.
- ٢١٪ يؤيدون استغلال اتفاقيات التطبيع لدفع التعاون الاقتصادي مع الفلسطينيين
- ١٥٪ يؤيدون تنمية مشروعات مشتركة مع الأردن
- ١٤٪ يؤيدون دفع العلاقات الاقتصادية مع السلطة الفلسطينية.٤٣

وعن قطاع غزة على وجه التحديد:

- ٩٪ يؤيدون بقاء الوضع على ما هو عليه

- ٣١٪ يرون إعادة سيطرة السلطة الفلسطينية عليه
- ٢٢٪ يرون ضرورة ربط المجتمع الدولي بالجهود لإنعاش الاقتصاد في القطاع
- ١٣٪ يرون ضرورة التفاوض مع حماس لتسوية بعيدة الأمد وضرورة التدخل في الأزمة السياسية-الاقتصادية في السلطة افلسطينية
- ٣٨٪ يرون عدم ضرورة التدخل في الأزمة السياسية-الاقتصادية للسلطة الفلسطينية، ١٨٪ يؤيدون العمل على إضعاف السلطة، مقابل ٢٨٪ يؤيدون دعمها. ٤٤

عام على توقيع اتفاقيات أبراهام

٣٤٪ يرون أن الاتفاقيات تشكل نقطة تحول في الوضع الإقليمي لإسرائيل.

يحتل دفع العلاقات مع الدول العربية أهمية أكبر من دفع مسيرة السلام مع الفلسطينيين، الأمر المستمر منذ ٢٠١٩

٥٣٪ يرون ضرورة استعانة إسرائيل بدول التطبيع لدفع السلام مع الفلسطينيين

٤٠٪ يرون دفع عملية السلام إن اقترنت بحزمة حوافز دولية مناسبة. ٤٥

أعطى المشاركون أهمية محورية للملف الاقتصادي في العلاقات مع الإمارات

كما عبروا عن طموحهم في تقوية العلاقات الاقتصادية مع المغرب.

وتعد الدولتان على رأس الدول التي يرغب الإسرائيليون في زيارتها، رغم انخفاض نسبتها من ٢٣٪ العام الماضي إلى ١٠٪، تليها لبنان ثم مصر ثم السعودية والأردن

لكن ما يقارب من نصف المشاركين قد عبروا عن عدم رغبتهم في زيارة أية دولة عربية بالمرة. ٤٦

انخفض تقدير المشاركين للعلاقات الأميركية-الإسرائيلية وترى الأغلبية أن إدارة ترامب كانت أفضل بالنسبة لإسرائيل. وجاء ترتيب الدول من حيث أهمية علاقتها بإسرائيل: (الولايات المتحدة، روسيا، ألمانيا، بريطانيا، الصين، مصر، فرنسا، الأردن). يرى الأغلبية ضرورة إصلاح العلاقات مع الأردن التي تعثرت خلال فترة ولاية نتنياهو الأخيرة. وقد ارتفعت اهمية الأردن عن استطلاع العام الماضي، من

٧٪- ١٢٪ مقابل انخفاض السعودية من ٨٪إلى ٣٪.٤٧

يعتقد ٤٦٪ أن الاتحاد الأوروبي هو خصم أكثر منه صديق، خاصة فيما يتعلق بالاستيطان والعلاقات مع الفلسطينيين. وعن الشأن الإيراني : يرى ٣٤٪ أهمية تشكيل جبهة إقليمية ضد إيران، مقابل ٣١٪ يؤيدون عملاً عسكرياً مستقلاً. كما أن ٦١٪ يرون ضرورة تحسين العلاقات مع تركيا. ٤٨

الخلاصة:

تتبنى الحكومات الإسرائيلية سياسة يمينية في علاقاتها الخارجية والإقليمية

تنتهج سياسة الالتفاف حول القضية الفلسطينة، في علاقاتها مع البلاد العربية، بغية تحقيق أكبر مكاسب، دون تقديم أي شيء في المقابل.

تتجاهل عن عمد كل نصائح الخبراء والمحللين المخضرمين الذين يرون استحالة صمود أي اتفاق إسرائيلي-عربي يتجاهل التسوية مع الفلسطينيين

جاءت حكومة بينيت لتسفر عن توجه أكثر يمينية من سابقه نتنياهو، فعوضا عن تجاهل القضية الفلسطينية، يطرح بينيت تصفيتها نهائيا بضم معظم الضفة وعزلها عن غزة، ثم إلقاء أعباء الأخيرة على النظام المصري.

كما يتبنى بينيت سياسة عنيفة ويمجد هيمنة الجيش الإسرائيلي وجهاز الأمن العام على المناطق الفلسطينية.

تواصل الحكومة الجديدة التوجه نحو الارتباط بالانظمة الاستعمارية، والأنظمة التابعة لها. كما تشحن أطرافاً إقليمية ودولية ضد إيران.

الرأي العام الإسرائيلي يكاد لا يختلف عن توجه حكومته، في مواقفها اليمينية، سواء في علاقاتها الخارجية عامة، أو في موقفها من تسوية الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني.

الهوامش

1 - פרופ' אלי פודה תקרת הזכוכית" ביחסי ישראל ומדינות ערב, 2019/2/28

https://www.haaretz.co.il/blogs/mitvim/BLOG-1.6979363

بروفيسور إيلي پوديه قسم الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية بالجامعة العبرية ورئيس الرابطة الإسرائيلية للدراسات الإسلامية والشرق أوسطية وعضو مجلس إدارة مركز ميتڤيم.

2 - אנה ברסקי: נתניהו: "כפי שלא האמינו שאביא הסכם שלום - אביא גם את הריבונות" 2020/08/16

https://www.maariv.co.il/news/politics/Article-784165

3 - עמוס ידלין ואסף אוריון: נורמליזציה במקום סיפוח, בלי זכות וטו פלסטיני

17 באוגוסט 2020 , מבט על, גיליון 1367

4 - מגמות חצי שנתיות ינואר – יוני 2021، גיליון מספר 7، עורכים: ד"ר רועי קיבריק וד"ר גיל מורסיאנו

https://mitvim.org.il/report/trends-january-july-2021-hebrew

5 - أكبر معسكرات الاعتقال النازية. يكثر في الخطاب الصهيوني استدعاء ذكريات النازية لإثارة عقدة الذنب لدى العالم، وإثارة عقدة الاضطهاد لدى الإسرائيليين.

6 - אנה ברסקי: הנ"ל

7 - מגמות חצי שנתיות יולי – דצמבר 2020، גיליון מס' 6، עורכים: ד"ר רועי קיבריק וד"ר נמרוד גורן

https://mitvim.org.il/report/hebrew-trends-in-israels-regional-foreign-policies-6-july-december-2020

8 - אסף גבור :בוושינגטון נחצה העולם הערבי לשניים, מקור ראשון, 2020/09/16.

9 - קייטי וקסברגר(רויטרס), הפגנה בעזה נגד הסכם הנורמליזציה עם האמירויות، הפורום לחשיבה אזורית 2021/3/16

https://www.regthink.org/articles/tension-between-palestinians-and-gulf-people

10 - דניאל סלאמה: סעודיה: "לא תהיה נורמליזציה עם ישראל בלי הסכם עם הפלסטינים"، 2020/8/19

https://www.ynet.co.il/news/article/Sk00GOscGD

11 - "אין שלום בלי מדינה פלסטינית" 18/06/21

https://www.mako.co.il/news-military/israel-q2_2018/Article-2b4dae30fb12461004.htm

12 - פרופ' אלי פודה תקרת הזכוכית"

13 - אלי רכס, '"ערביי ישראל כגשר לשלום' – גלגוליה של תפיסה", המזרח החדש, ל"ז (תשנ"ה, 1995), עמ' 79 – 86.

14 - אלכסנדר יעקובסון, "מישהו זוכר שבגין הציע לפלסטינים אזרחות ישראלית?", הארץ, 10 באוקטובר 2020, נצפה ב-2 באפריל 2021.

15 - ח"כ עודה: הטקס בבית הלבן הוא לא הסכם שלום היסטורי אלא עסקת נשק היסטרית", אתר המפלגה הקומוניסטית הישראלית, 16 בספטמבר 2020, נצפה ב-2 באפריל 2021.

16 - סלמאן מצאלחה, "מה הקפיץ את חברי המשותפת?", הארץ, 23 באוגוסט 2020, נצפה ב-2 באפריל 2021.

-ג'לאל בנא, "התנגדות הרשימה המשותפת להסכם - טעות בלתי נסלחת", ישראל היום, 17 באוקטובר 2020, נצפה ב-2 באפריל 2021.

17 - פרופ' אלי פודה תקרת הזכוכית":: הנ"ל

18 - הנ"ל

19 - הנ"ל

20 - הנ"ל

21 - מגמות חצי שנתיות יולי – דצמבר 2020، גיליון מס' 6، עורכים: ד"ר רועי קיבריק וד"ר נמרוד גורן

https://mitvim.org.il/report/hebrew-trends-in-israels-regional-foreign-policies-6-july-december-2020

22 - הנ"ל

23 - מגמות חצי שנתיות ינואר – יוני 2021، גיליון מספר 7، עורכים: ד"ר רועי קיבריק וד"ר גיל מורסיאנו

https://mitvim.org.il/report/trends-january-july-2021-hebrew

24 - יואל גוז'נסקי ואודי דקל שנה ל"הסכמי אברהם": נדרש להכתיב את הקצב

2021/8/15| גיליון 1508

25 - מגמות חצי שנתיות ינואר – יוני 2021، גיליון מספר 7، נ"ל

26 - הפוטנציאל הלא-ממומש של יחסי ישראל עם מדינות ערב

סיכום כנס של מיתווים - המכון הישראלי למדיניות חוץ-אזורית והמכון ליחסים

בינלאומיים ע"ש לאונרד דיויס, שהתקיים ב -29 במאי 2018 בירושלים. עמ' 2

27 - מגמות חצי שנתיות ינואר – יוני 2021، גיליון מספר 7،

28 - הפוטנציאל הלא-ממומש,. עמ' 1

29 - הנ"ל עמ' 1- 2

30 - הנ"ל

31 - הנ"ל עמ' 3

32 - ד"ר יובל בנזימן: ניסיון ממשלת נתניהו לנתק את יחסי ישראל-ערב מתהליך השלום הישראלי-פלסטיני

מאמר במסגרת סדרת פרסומים פברואר 2018

د. يوفال بنزيمان: محاضر ابحاث الصراع بالجامعة العبرية بالقدس

33 - 3 "אולמרט: אבו מאזן הוא פרטנר לגיטימי," נענע 10 , 16 באוקטובר 2006 .-

"אולמרט: אבו מאזן פרטנר לשלום," וואלה, 21 בספטמבר 2007 .5

-אולמרט: אבו-מאזן פרטנר, מעולם לא תמך בטרור," וואיינט, 27 במרץ2012

34 - פרופ' אלי פודה תקרת הזכוכית" נ,ל

35 - איתמר אייכנר, הסוף לוויזה לארה"ב? בנט ובלינקן סיכמו לקדם פטור לישראלים, באתר ynet.

36 - בנט הזמין את ביידן לבקר בישראל: "הנושא האיראני לא סובל דיחוי" - וואלה! חדשות, וואלה!, 27-08-2021

עמליה דואק, בנט לאחר הפגישה: "ביידן אוהב את ישראל וקשוב לצרכים שלנו, נוצר קשר אישי", באתר מאקו, 27 באוגוסט 2021

37 - לפיד: קשרי ישראל ומרוקו ישודרגו ליחסים דיפלומטיים מלאים וייפתחו שגרירויות - וואלה! חדשות, וואלה!, 12-08-2021

38 - בנט בתום פגישתו עם נשיא מצרים א-סיסי: "יצרנו תשתית לקשר עמוק להמשך הדרך", באתר מעריב אונליין, 13 בספטמבר 2021

39 - ברק רביד, לראשונה אי פעם: רה"מ ישראל נפגש באופן רשמי עם יורש עצר של בחריין, באתר וואלה!, 2 בנובמבר 2021

40 - אילנה קוריאל, בנט בגלזגו: "ישראל בתחילתה של מהפכה בנושא שינויי אקלים", באתר ynet, 1 בנובמבר 2021

41 - קובץ וידאו נאום תפיסת הביטחון של בנט: איך מכריעים את חמאס, בערוץ היוטיוב של בנט, 27 במרץ 2019.

תוכנית ההרגעה, גרסת PDF, באתר המכון למחקרי ביטחון לאומי

מורן אזולאי, יוזמת בנט: סיפוח 60% מהשטח, 2% מהפלסטינים, ynet, 23 בפברואר 2012

42 - בכיר פלסטיני: דברי טראמפ מנוגדים למעשיו. בנט: מדינה פלסטינית - אסון לישראל, ynet, 26-09-2018

נפתלי בנט - Naftali Bennett, he-il.facebook.com

קובץ וידאו נאום השר בנט בכנס הINSS: תפיסה ביטחונית תקיפה מול גישת "ניתוק מגע", בערוץ היוטיוב של בנט, 8 באוקטובר 2018.

43 - מדד מדיניות-החוץ הישראלית לשנת 2021, ממצאי סקר מכון מיתווים(9), אוקטובר 2021

/https://mitvim.org.il/report/hebrew-2021-israeli-foreign-policy-index-of-the-mitvim-institute
עמ 2

44 - הנ"ל, עמ 4

45 - הנ"ל, עמ 4

46 - הנ"ל, עמ 3

47 - הנ"ל, עמ 2

48 - הנ"ל, עמ 3

أوراق ثقافية

تأصيل الرواية الفلسطينية في مواجهة الآخر

يحيى يخلف

الثقافة الفلسطينية في مطلع القرن (في العهد العثماني)

شهدت فلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر نهضة تربوية وثقافية ساهم في صنعها انتشار المدارس التي أنشأتها البعثات التبشيرية المسيحية من مختلف الطوائف في ألأراضي المقدسة.ومنها المدارس المسكوبية الروسية التابعة للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الروسية في عدة مدن أهمها المدرسة المسكوبية في الناصرة والمسكوبية في القدس ،ومدارس الفرندز في رام الله بإدارة جمعية كويكرز الأميركية وجمعية الفرندز الدينية . ومدرسة الفرير الثانوية التي أسستها جمعية أخوّة الفرير في مدينة القدس عام ١٨٧٦ تعنى باللغة الفرنسية ومدرسة شميدت التي أسستها جمعية يسوع وجمعية الأرض المقدسة الألمانية عام ١٨٨٦ وتعنى باللغة الألمانية ،وساهمت هذه المدارس في ظهور أجيال جديدة ،ونخب ثقافية تجيد اللغات الأجنبية ،وتطلّع على ثقافتها.

وممن تخرج من هذه المدارس على سبيل المثال خليل بيدس، خليل السكاكيني،مي زيادة ،بندلي الجوزي، كلثوم نصر عودة، روحي الخالدي و الكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة. (كانت بلاد الشام وحدة واحدة قبل تقسيمها من قبل المستعمر)

أثرت هذه النخب الحياة الثقافية، ولعلّنا هنا نتوقف عند بعض الادباء الفلسطينيين الذين برزوا في أواخر القرن التاسع عشر في فلسطين ،ومنهم خليل بيدس أول من ترجم عن اللغة الروسية رواية بوشكين (ابنة الآمر) ،وأول من كتب رواية فلسطينية هي رواية (الوارث).

صدرت رواية الوارث عام ١٩٢٠ سنوات قليلة بعد صدور رواية (زينب) أول رواية عربية صدرت في مصر للكاتب المصري محمد حسين هيكل عام ١٩١٤

ولعلنا نذكر أيضا روحي الخالدي المقدسي الذي أتقن اللغة الفرنسية،وعيّن قنصلا للددولة العثمانية في مدينة بوردو الفرنسية،

وكتب أول دراسة عربية نقدية تعنى بالنقد المقارن في كتابه :تاريخ علم الأدب عند العرب والإفرنج وفيكتور هوجو .

وفي زمن الاحتلال البريطاني لفلسطين تأسست في القدس الكلية العربية عام ١٩١٨ التي لعبت الدور الأكبر في تخريج نخب ثقافية مميزة ا،وتعاقب على اداراتها والتدريس بها جهابذة وقامات فكرية من بينهم : خليل السكاكيني،أحمد سامح الخالدي،اسحق موسى الحسيني مصطفى مراد الدباغ نقولا زيادة والشاعرالعراقي معروف الرصافي،ومن الطلاب الذين تخرجوا منها ولمع نجمهم كأدباء أغنوا المشهد الثقافي الفلسطيني والعربي : احسان عباس، نقولا زيادة ،توفيق صايغ، جبرا إبراهيم جبرا ،خيري حماد ،محمد يوسف نجم ،ناصر الدين الأسد .

كان للتعليم النوعي في مدارس القدس ونابلس أيضا أثر كبير في تخريج طلبة متفوقين أكملوا دراساتهم في الجامعة الأميركية في بيروت أو الجامعات الفرنسية من بينهم : الشاعر إبراهيم طوقان، والمفكّر قدري حافظ طوقان، والمترجم عادل زعيتر الذي ترجم سبعة وثلاثين كتابا من أمهات الكتب لجان جاك روسو ،غوستاف لوبون ، إميل لودفيغ، فولتير، أناتول فرانس، مونتسكيو .

هذه لمحة قصيرة عن مبدعين ومفكرين وقامات ساهمت مع محيطها القومي في مسيرة النهضة العربية، وساهمت في حماية الهوية، وشّكلت ملامح الشخصية الوطنية الفلسطينية، ولعبت دورا في التعبير عن كفاح الشعب الفلسطيني قبل النكبة.

نحن والآخر

في كتابه عن الأدب الصهيوني ،قال غسان كنفاني إنّ الصهيونية الثقافية هي التي استولدت الصهيونية السياسية، وأنّ الأدب الصهيوني ضبط خطواته على إيقاع خطوات الصهيونية

السياسية والعسكرية فيما بعد.وذكر أنّ رواية الخروج (Exodus للكاتب الصهيوني الأميركي ليون أوريس وموضوعها تأسيس إسرائيل صدرت في أميركا ووجدت رواجا كبيرا وشهرة واسعة، واحتفت بها هوليود وتحولت الى شريط سينمائي ،وصارت مرجعية الذاكرة الغربية لسنوات طويلة حول الصراع في الشرق الأوسط.

كما سعت الخارجية الإسرائيلية بدعم من دوائر مساندة لاسرائيل الى حصول الكاتب الإسرائيلي شموئيل عجنون على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٦ .كجزء من الدعاية الصهيوية.

بعد نكبة فلسطين تشظّت الهوية الفلسطينية ،وتحولت الى هويات في دول الشتات ، تحولت الى هوية لاجئين مرجعيتها منظمة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا).

ولم تستعد الهوية عافيتها وتجد مرجعيتها إلاّ بعد تأسيس منظمة التحرير عام ١٩٦٤،وانطلاق الكفاح المسلح عام١٩٦٥.

هكذا كان الحال، ولم تستطع دول آسيا وافريقيا أن تقدم روايتها الى العالم إلاّ بعد فكفكفة الاستعمار كما يقول ادوارد سعيد.ونقصد هنا روايتها السياسية والإنسانية.

نعود الى الرواية الفلسطينية في مجال الآدب ذكرت أن أول رواية فلسطينية ،رواية «الوارث» لخليل بيدس صدرت مع صدور أول رواية عربية ،رواية زينب لمحمد حسين هيكل.

رواية الوارث اتخذت من شخصيات يهودية وشخصية عربية مادة روائية،واتخذت من القاهرة مكانا لأحداثها،وأعادت تدوير شخصية شيلوك في حكاية تاجر البندقية لشكسبير بنسخة عربية.

ونظرا لأن الفن الروائي العربي كان مستجدا،فقد صدرت الرواية الفلسطينية الثانية عام ١٩٤٣ على يد الكاتب المقدسي اسحق موسى الحسيني بعنوان : مذكرات دجاجة ،وصدرت عن دار المعارف في القاهرة ،وقدم لها طه حسين وأثنى عليها.

سيمر زمن طويل قبل أن يظهر رائد الرواية الفسطينية غسان كنفاني ويدخل الرواية الفلسطينية بوابة الإبداع، وقبل أن يقدم جيرا رواياته التي توفرت بها عناصر فنيّة عالية،ومن

بعده يظهر اميل حبيبي برائعته :الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل.

ورافق ذلك ظهور قامات وتألقها في مجالات الآداب والفنون في داخل الأرض المحتلة وخارجها، ومنها محمود درويش، سميح القاسم ،راشد حسين،توفيق زياد، معين بسيسو ،ادوارد سعيد ، إبراهيم أبو لغد ،أحمد دحبور،عزالدين المناصرة، مريد البرغوثي، إسماعيل شموط،والقائمة تطول.

وفي مجال الرواية ظهر جيل حديد أعاد تأسيس الرواية الفلسطينية،أعني جيلنا حسب الناقد فيصل دراج ،وطوّرها، فملأت المشهد الثقافي العربي ،والإنساني.

وبعدها ظهرت أجيال جديدة.

الثقافة الفلسطينية بشكل عام والرواية الفلسطينية بشكل خاص منفتحة على التنوع الثقافي، وتفتح نوافذها على ثقافات العالم،وتدعم الثقافات المهددة،وقد وقعنا على بيان التنوع العالمي الذي صدر عن منظمة اليونسكو ٢٠٠١ بل شاركنا في صياغته وكنّا وقتها نشارك بها كعضو مراقب.

لكننا لانعتبر الآخرالاسرائيلي العنصري المحتل لأرضنا،والذي صنع نكبتنا والمتنكر لحقوقنا وهويتنا والمعادي للسلام ،والذي ينشر ثقافة الموت والتمييز العنصري جزءاً من ذلك التنوع الثقافي،ولا نعتبره جزءاً من الأخلاقيات الثقافية العالمية.

علي اسحق سيرة وقصتان

رغم أن اختياره عنوان «ملاحظات متفرج» لمجموعته القصصية الوحيدة التي طبعها متأخرا تحت ضغط الأصدقاء، لم يكن علي اسحق متفرجا، كان شريكا فاعلا منذ البدايات المبكرة للعمل الفدائي، والثقافي الإعلامي فيما بعد. لعل طريقه كان واضحا منذ استشهاد والده في خمسينات القرن الماضي، ولكنه، العنوان، يشبه جلوسه اللاحق على مقهاه المفضل قبالة مبنى البلدية في رام الله، حيث أطلق شبكة واسعة من الصداقات مع مالك المقهى وعمال البلدية والمارة، كان مقتصدا في حديثه ولكنه امتلك تلك النظرة المرحبة، النظرة التي تصغي اليك وتدفعك للكلام.

الصمت المتأمل المدجج بالسخرية المحمولة على سرعة بديهة خاصة، السخرية التي تتجمع مثل نظام دفاع، أو شبكة حماية لزمن جميل ومعافى كان أحد البنائين في ورشته العظيمة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي.

هذا الملف يحتوي على قصتين من مجموعة الراحل علي اسحق «ملاحظات متفرج» إضافة الى سيرة مختصرة لرحلته النضالية الغنية، وهي محاولة لتكريم نموذج نضالي وثقافي مبدع احتفظ بخصوصية المثقف ونزاهة المناضل كأمانة لم يفرط بها.

المحرر

علي اسحق

ولد في قرية الريحانية شمال فلسطين في ١٩٤٤/١/١ لأبوين فلسطينيين وكان أبوه من أصول شركسية، تهجر عام ١٩٥٣ بعد استشهاد والده في السجون الاسرائيلية، واقام في مخيم اليرموك جنوب مدينة دمشق ودرس هناك، نشأ في ظروف اللجوء والقمع ومن ناحية أخرى سعي جيله نحو المعرفة والثقافة والإنتماء الوطني وكان اصدقاؤه قد اتجهوا للكتابة شعراً وقصة، فكتب القصة القصيرة وانتمى للمقاومة في بداياتها الأولى. وعمل في مجلة « الى الامام» نائبا لرئيس التحرير، ثم مسؤولاً لإعلام جبهة التحرير الفلسطينية ورئيساً لتحرير مجلة «الأفق» الصادرة في قبرص، مثل الرئيس ياسر عرفات والقيادة الفلسطينية موفداً والتقى قادة دول ومسؤولين فيها في آسيا وافريقيا وأوروبا ومثل القضية الفلسطينية في العديد من المحافل الثقافية والسياسية الدولية، وأصبح عضواً في اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف منذ أواسط الثمانينات حتى وفاته في ٢ تموز ٢٠١٩. كان مؤسسا وأمينا عاما لجبهة التحرير الفلسطينية، وكان على صلة واسعة بالمثقفين العرب.

أحلام الزنوج

-١-

- هل ستعلن حربنا؟

ألقى سؤاله باستهزاء وألم.

- سؤالك فلسطيني جداً! إنك تحلم أيها الزنجي، فمثل هذه الحرب لن تراها مطلقاً.

كان الجواب يحمل ألماً أكبر في طياته. سكت الرجل الثاني ولعب بأصابعه، نظر بشير إلى بشرة يده البيضاء..

«إنك تحلم أيها الزنجي»

كان باستطاعة بشير أن يقول أن عيني صديقه بلا بريق؟ خابيتان كنجمتين في فجر رمادي، تتململان، تتململان، ثم تموتان. شاهده يقف أمام النافذة، يطل على الطريق. ثم ينسحب ليغادر المقهى بصمت.

«الزنجية حلقة كانت ضائعة من سلسلة التاريخ. اكتشفها الانسان المعاصر وانتشى باكتشافه.

جاز.. أقنعة من فولتا العليا وساحل العاج. منحوتات من الكاميرون وجنوب نيجيريا... وأيضاً...

تماثيل للسيد المسيح وصلبان من خشب زيتون القدس وبيت لحم.

لكن ترى لماذا يضطهد الانسان الزنجي؟» رمق رسوم راقصات الباليه الزنجيات المطبوعة على ورق الجدار.

«وكلنا زنوج! إن دمي أسود، أكثر سواداً من القار المفروش فوق شوارع المدينة. قد أضحك.. قد أكون مهرجاً.. لكن ما من شيء يستطيع أن يستثير سروري».

حاول أن يتساءل:

«ما هو الحل؟»

لكن صيغة السؤال خذلته:

«منذ متى وأنا على هذه الحالة؟»

لم يجب. بل:

«لا أريد أن أعرف.. هل ما تزال قمة افرست أعلى قمة في العالم؟ وكيف اعرف إذا لم أرَ».

-٢-

مهترئ

تنفس بغضب:

أجل.. ماذا تروم؟ فلسطيني قديم مهترئ لا يلقى اعتناء أحد.. سار بخطوات صلبة، صدره في مواجهة الريح

الكثيفة الباردة.

قبضتاه مشدودتان، تعصر اليمنى مفتاحاً صغيراً. الرصيف يطقطق تحت نعليه.. يمتد حاضناً الشارع بين صفوف الأبنية الرمادية المجللة بآثار المطر. قلبه في صدره حار ورطب، يشعر بإيقاع ضرباته المنتظمة العنيفة.

سره أن يعبث الهواء بشعره الفاحم الطويل، يلقيه على جبهته وعينيه. يردّه إلى الوراء.

كان الهواء محملاً بذرات الصقيع، مر في مسيرته فوق قمم الجبال المرتفعة المتوجة بأكداس الثلوج.

تسللت يمناه القابضة على المفتاح واستقرت في جيبه، وتحركت اليد الثانية في الهواء:

«ماذا تروم»؟

وأكد: «كل شيء»

كان يحس بأنه محتاج إلى شيء.. يجب أن يفعله وإلا فإنه لا محالة سيهلك، قد يتوقف قلبه عن الخفقان! وزفر زفرة طويلة:

ستموت أيها الزنجي في الشوارع الغريبة...

قرص الشمس في محاقه الأخير، يلقي نوراً ضعيفاً بلا حرارة.

تحجبه جحافل غيوم، تمر عنه. يضيء وينطفئ. رفع وجهه إلى السماء:

إنها عالية جداً..

الريح تدفع الغيوم. تصفعها وتسوقها. قطيع من البيزون الهائج يدوس ما يصادفه ينطلق إلى الأمام: يسابق بعضه بعضاً، يريد الأمان.

ستمطر السماء.

وفكر: أن العقل لا يصور لنا الشر، قد نجلس ونحدق في الفضاء، فترتسم لنا دنيا جميلة، فردوس أرضي خال من كل شيء عدا الجمال والخير، ولكننا مع ذلك نشعر بالرهبة والمرارة لأننا نعلم بيقين أننا لن نستطيع أن نحقق ما نصبو إليه.

واحتد مفسراً:

ما أراده الآباء المهزومون نضج في نفوسنا نحن.. هذا كل شيء ولكن علينا أن نعمل.

طفحت قوة الشباب على وجهه، فعرض خده للريح غير مبالٍ بلسعاتها، لن يقف في طريقنا عائق. ثم:

حقاً إني مشرد يجوس ميلاد رزقه. لكن العالم خطة.

صفا الكون أمامه. راق كل معكر وبانت الألوان في ثنايا الأشياء الجامدة.

«عرض نفسك لتحدٍّ فستجد طريقك واضحاً». وأكد على كلماته التي لم ينطقها:

«من الممكن أن تفعل، وليكن عليّ وعلى الجميع وقت اللزوم».

ثم بحث عن طريق المنزل كان يشعر أنه يتحرك سابحاً في قرارة بحر صافٍ. اليدان تجذفان، والقدمان دفة تعين له الاتجاه. عيناه قادرتان على ملاحظة الدقائق ومعرفة كافة مدلولات الأشياء.

سيقول الزنجي كل شيء.. لقد فكر بما فيه الكفاية. هل سيهزأ منه الزنوج إن قال:

هذه الأرض لنا؟

تلفت يبحث بعينيه. لقد غاص بعيداً في قلب المدينة. استدار وحث قدميه. الريح تدفعه من الخلف. تقذف به.. تحمله وتندفع كما تندفع بالقطن الأسود الذي يلبد السماء.

وجد بشير طريقه.. إنه يطير.. تخلخلت ضلوع الزنجي. وتنفذ الريح إلى جسمه ويهمهم:

أنا على حق.. الوحيد الذي على حق.. ويقرر من جديد:

سأساعد الآخرين.. سأضع المفتاح في أيديهم.. سأقول لهم كل ما أعلمه..

-٣-

الوجوه غاضبة..

رجال يهزون أيديهم أمام أعين رجال البوليس.. يهتفون..

بعضهم يقذف بالحجارة من بعيد.

سيارة اطفاء حمراء تعول..

يخرق صوتها الطويل أسماع الرجال..

السيارة تتوقف..

يأمرها ضابط صغير..

رجال الإطفاء يوجهون خراطيم المياه بتصويب دقيق..

الوجود الغاضبة تبتل..

الماء البارد يخترق الثياب..

الرجال يتراجعون إلى الوراء..

جنود مسلحون بقضبان طويلة من الخيزران والتروس يتقدمون..

يضربون..

علامات سوداء تشكلت على بعض الوجوه..

دماء سالت من بعض الرؤوس.

الجنود يتقدمون.

-٤-

بشير لا يزال في طريقه يحلم بأرضه عبر شوارع متصالبة. تخطى رتلاً من سيارات. مشى فوق ساحة خالية باتجاه المدينة.

رجال يزدحم بهم الشارع!

ماذا هناك؟

تساءل وأزاح بعضهم من أمامه. تقدم.. شاهد حاملي العصي والتروس.

زنوج في أوطانهم.. لكن ما علاقتي؟

صاح جندي:

- إلى أين؟

- إلى المنزل.

- من هنا.

صعد الرصيف.. واجهة مكتبة.. بضع خطوات..

- قف.

- ماذا هناك؟ إني ذاهب إلى المنزل.

- قف أيها المشاغب..

- لست مشاغباً.

- هويتك؟

- هذه هي.

مدها بيده.. اصطكت ضحكة في الهواء البارد:

- هوية حمراء.. فلسطيني!

وتابع صاحب الضحكة:

- هوية حمراء.. رأس الشغب.. قف مع هذا الكوم.

احتفظ الجندي بالهوية.. وصلت سيارة شحن كبيرة. أمر الجندي الكوم - بعصاه - ليصعد. وامتلأت السيارة.

دمشق ١٩٦٢

ملاحظات متفرّج

المشهد الأول «ليس جنونا»:

«ظهور» رجل في حوالي الأربعين. يرتدي كوفية وعقالاً وعباءة. صالون لمنزل حديث.

يسير الرجل بخطوات بطيئة، يتأمل محتويات الغرفة. يعود نحو الباب ليفتح ولتدخل منه امرأة تتبعها ابنتها.

الأم: مرحبا.

زيد: مرحبا.

تقف راوية قرب الباب.

زيد: كيف حالك؟ يتكلم مع الأم بينما ينظر صوب راوية، وأنت.. ما بال الصغيرة؟

العفو.. وذلك المتغطرس لم أره منذ مدة طويلة؟

راوية: تقصد أخي؟ سوف يكون هنا...

الأم: إنه لا يغادر البيت.

راوية: لكونه يحب البيت.

زيد: كلنا نحب بيوتنا.. نغادرها.. ثم نعود إليها.

راوية: تعودون فعلاً، لكن ليس حنيناً. بل عجزاً.

الأم: من الأفضل ألا يقودنا حديثنا إلى المشاكل.

راوية: لم تخافين إثارة ما هو موجود ومفروض؟

الأم: ما هو الموجود والمفروض؟

راوية: الذي نتحدث عنه.

الأم: من الممكن أن ننأى عنه دائماً.

كمال: «في الباب» لِم كل منكم يجعل من نفسه نعامة؟ اعترفوا لم هذه الكبرياء؟

هناك المشاكل وهناك العجز إزاءها.. هل العجز هنا قدر؟

الأم: كمال ما هذا الهراء؟

كمال: تعرفين جيداً أنه ليس هراء. وكما في السلام عجز، ففي الحرب عجز أيضاً. (ينظر إلى زيد) واختيار أحدهما في الوقت الملائم ليس إلا من قبيل الذكاء. أو ليس كذلك؟

زيد: التاريخ يشهد أننا قد اخترنا الملائم في الزمن الملائم.

كمال: لست غريباً، هذه كلمة حق تتفوهها، والدليل أن ظلالنا قد أمست أشباحاً مرتاعة فوق الرمال!

زيد: ماذا تقصد؟

كمال: «يشير بيده» هذه الصورة مثلاً «رجل مسلح» الم يكن الزمن ملائماً؟

الأم: جزء من تاريخنا.

كمال: وأدتموه عندما كان رجلاً.

زيد: إنه حي في نفوسنا. سوف نصنع له المجد..

راوية: لن نصنع المجد أبداً، ولكننا سوف نغنيه، في المدارس. نرتله في الاذاعات، ونبشر به في الصحف.

زيد: وأنت.. ما هذا الهراء؟ «يشير إلى خاتم في أصبعه» لن أسمح لك أبداً..

كمال: لن تسمح لها!

الأم: كمال..

كمال: اتخمنا.. أستطيع أن أقول كفى.. ولتعلموا الآن إنكم لن تموتوا إلا لثمن.

زيد: نموت؟

كمال: نعم.

زيد: «يضحك» كيف؟

كمال: بيدي.

زيد: «مرتاعاً وتقتلنا.

كمال: أجل «تجلس راوية وراء البيان مطمئنة وتدير ظهرها للحوار».

الأم: أجل.. أجل.. كنت أشعر بذلك. كان قلبي يحدثني عما سيفعله هذا الصبي يوماً.

زيد: ما عدت أريد شيئاً «يدير ظهره. يقصد الباب» قوم من المجانين. قوم من المجانين.

كمال: إلى أين؟ «يقف زيد. قرب الباب» كنت تريد أشياء كثيرة، وحصلت على أشياء كثيرة. كنت الشقيق، وكانت الأم، حلقتان في سلسلة.. ثقوا أني أحبكم. ومع ذلك فلنقطع هذه السلسلة «مسدسه في يده، يطلق طلقة في صدر زيد، الذي يتمايل قليلاً ثم يسقط. تجلس الأم على مقعد ولا تتفوه بكلمة. إنها ميتة. يصوب المسدس نحوها، يلقيه على الأرض. تتصاعد موسيقى من البيانو نرى ظهر راوية ثم ستار النافذة. اختفاء».

المشهد الثاني: «حوار خصب»

«ظهور» شارع في صباح مشمس. أشجار خضراء باسقة على الرصيفين. نهر على اليسار. قطعة خشبية يحملها تيار الماء «قطع» وجها كمال وراوية، تتراجع الكاميرا إلى الوراء، نستطيع أن نقول أن راوية في الثامنة عشرة وكمال في العشرين. كمال يتقدم راوية خطوتين. يصعدان الرصيف. يسيران بمحاذاة النهر صامتين. أصابع كمال تمسك على سيجارة، أصابع راوية تمسك على منديل. يلتفت كمال:

كمال: نسير.. إلى أين؟ هل انتهت هذه الرحلة؟

راوية: لا تقل هذا.

كمال: انتهت الرحلة.. بداية عشوائية.. ثم.. إن ما يشعرني بالتعاسة «يلقي السيجارة ويفرد يديه أمامه. فترة صمت، أختي.. حبيبتي.. ما أقسى أن يعيش إنسان في هذا العصر بقبضتين نحيلتين؟

راوية: كمال «تنظر إلى وجهه» «قطع» «وجهها. دمعتان فوق الوجنتين» إياك.. هذه الأرض واسعة. اذهب.

كمال: وهذا الليل؟

راوية: الليل مثوى كبير يؤوي الكثيرين.

كمال: الليل ستر. آه يا دون كيشوت العصر. عشت هذا الحوار.. ماذا بعد؟ انتهت رحلتنا بينما قطرات الندى لا تزال تترقرق فوق أوراق الدفلى.

راوية: كمال...

كمال: كان شيبوب أسرع عداء عند العرب!

«صمت» «قطع» «وجهان» «قطع»:

سيسرون جداً برؤيتي أعزل، وحيداً بينهم لا حول له ولا قوة..

«يقفان حذاء الحاجز «قطع» أنبوبة تصب ماء مزبداً في النهر «قطع».

كمال: وماذا بعد؟ هل الليل أبدي؟

راوية: لا شيء خالد..

كمال: لا الأمل ولا الرجاء.

راوية: بل سيعيش الأمل.

كمال: يجب أن يعيش الأمل وإلا فما معنى الحوار؟

راوية: إذن يجب أن لا تدعهم يمسوك.

كمال: لا.. سأشعر دائماً بالعار فيما لو..

راوية: سأعيش وحيدة.. لا من يفهمني.

كمال: الأبطال يختارون مصيرهم «صمت» «قطع» «قمم الأشجار تتماوج أمام هجمة هواء.

راوية: حقاً هل تملك القدرة على الاختيار؟

كمال: أختي الحبيبة. يجب أن نعيش في ضمير ما. آلاف وآلاف، بل ملايين.. عاشوا في وقت ما قبل آلاف السنين.. أتعرفين؟ «صمت» لو ذهبت لكنت قاتلاً عادياً.. سوف أموت.. وهذا حسن. ليعرف جميع الناس ما يجب أن يفعلوه إذا ما أشرقت عليهم الشمس.

راوية: موتك لن يعلم الآخرين.

كمال: إنني القدوة. كوني المبشر «قطع» «تمتد يده لتبسط فوق يدها على حافة سور النهر. تقلب كفها لمتمسك بأصابعه لتلثمها «قطع» ومنظر ثابت للشارع وهما يستعدان.

وأغنية من خارج الكادر.. اختفاء تدريجي.

المشهد الثالث: حوار خصب أيضاً:

« تنتقل الكاميرا بقطع متتابع للمناظر تنقل معالم الغرفة. منتصف الليل.. دقات ساعة. «ظهور» وجه راوية في السرير. ساعة حائط. العقربان الأسودان منطبقان فوق بعضهما. الباب مغلق: ستار النافذة يتماوج أمام هبات هواء آتية من الحديقة وموسيقى من خارج الكادر والأثاث. صورة المقاتل المسلح على الجدار. الصورة مجسمة. راوية.. تميل بيدها وترفع غطاء آلة التسجيل، ومن الدولاب تخرج شريطاً. الشريط يلتف على بكرة الآلة. تغلق النافذة. جالسة على مقعد. رأسها بين راحتيها. شعرها الأسود منهمر على وجهها. تفتح خلاله معبراً لبصرها. الشريط الدائر. تتوقف الموسيقى الاتية من خارج الكادر».

صوت كمال عبر المسجلة:

«مشاهد شبه مسرحية. كلمات قد لا تكون جميلة لكنها تعيسة. كان الأمل يراودنا. رددنا كلمات الفرح مراراً. طرب الليل لصوت مغنينا. رفعنا بنادقنا في وجه الظلام. قتلنا الغدر.. «اختفاء يتبعه ظهور» «موسيقى من خارج الكادر».

نساء أمام قضبان سجن «قطع» سجين يبتسم «قطع» طفل وطفلة في حقل زهور. يقترب منهم حمل «قطع» أحذية جنود في استعراض عسكري، «قطع» سيارات مدرعة «قطع» طائرات «قطع».

خيمة بدوية.. ناقة.. مهباج يسحق حبات القهوة. بدوي يرشف من فنجان «قطع».

مقاتلون في ثياب مموهة يقتحمون مكاناً «قطع».

بائع صحف في شارع عام «قطع» مظاهرة صاخبة وقطع، تلفزيون في مقهى «قطع» بار «قطع» محل لبيع أجهزة الراديو «قطع» جواز سفر «قطع» هوية شخصية «قطع» حاجز وأسلاك شائكة «قطع» منظر رصيف في مدينة تتكدس الجثث فوقه. رجال ونساء يتعرفون على قتلاهم. اختفاء تدريجي يتبعه ظهور تدريجي لا تتوقف الموسيقى.

رجل في غرفة مستطيلة من دون نوافذ.. أربعة أبواب تسجلها الكاميرا. يمشي العجوز بخطوات بطيئة «قطع» يداه وراء ظهره «قطع» الكبر والعتي في وجهه «قطع» خزانة كتب. مكتب خشبي. أوراق فوق المكتب.

صوت العجوز يعد خطواته.

واحد.. اثنان.. ثلاثة.. «قطع» العجوز يمشي أربعة.. خمسة..

يستدير.

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

يقف.. يسرع إلى مكتبه ويجلس.. يغمس الريشة في الحبر.. يكتب «قطع» منظر لحركة الريشة وهي تخط كلمتي «عرض وتحليل» «قطع» العجوز وراء المكتب مكب على أوراقه.. يتمتم «القضية» «قطع»

انتهى الشريط المسجل.. البكرة تدور بسرعة.. صوت طرف الشريط الدائر. أصابع راوية على المفتاح.. اختفاء.

المشهد الرابع: إضافي

«ظهور»:

باحة سجن.. رجال ينصبون مشنقة.. تظهر الكلمات على الشاشة:

حوار خصب.

الممثلون..

المخرج..

سيناريو وحوار..

المنتج..

«اختفاء تدريجي لتبدأ فصول القصة»

سان بدرو – الدومينيكان

١٩٧١-٣-٢٢

مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية.. عوْدٌ مصري إلى العمق

سعد القرش

في مهرجان الإسكندرية السينمائي الحادي والثلاثين (سبتمبر ٢٠١٥)، اقترب منا شاب، وأعلن بفرح عن دور مهم أسند إليه في مهرجان للفيلم العربي سيقام العام القادم (٢٠١٦) في مدينة مصرية. هنأته بالمهرجان وبالمنصب، ولكن الدكتور محمد كامل القليوبي (١٩٤٣ ـ ٢٠١٧) أنصت، ولم يبالِ بحماسة الشاب الذي لم يتوقف عن سرد تفاصيل الدورة الافتتاحية، وذكر أسماء أبرز الضيوف والمكرمين المصريين والعرب. وقال لي القليوبي: «ستكون الدورة الأولى والأخيرة، أراهنك». ولم يعقد المهرجان، وظل ذلك المشروع مجرد حلم عمره أقل من سنة واحدة، ثم فقد صلاحيته كمشروع.

لا يكفي الدعم والتمويل بأشكاله المتنوعة والباذخة لإقامة مهرجان، وإذا بدأ فالاستمرار أكثر صعوبة، وتلزمه فلسفة ينطلق منها، باختلافه ـ أولا ـ عن الأنشطة الأخرى في مجاله، وثانيا بمنحه روح التحدي والتجاوز سنة بعد أخرى. وما يراه البعض من بنيان مهرجاني، يبدأ وينتهي في بضعة أيام، هو مجرد واجهة لامعة لحلم شغل الحالمين، ثم تحول إلى مشروع يتأسس على تصور نظري متين وقابل للتنفيذ.

ولم يكن التمايز وحده كافيا لإنجاح مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية، وإنما إيمان مؤسسيه بأن لهم قضية، وما يترتب على هذا الإيمان من دأب، وإصرار على رعاية النجاح، وتوتّر إيجابي يصاحب كل دورة كأنها الأولى، وتعهّد ضمني لشركاء المهرجان المراهنين على دور لمصر بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ بأن يظل المهرجان محتفظا بحيوية انطلاقته عام ٢٠١٢. وها هو المهرجان يفاجئنا بمرور سنوات من الأفلام والأنشطة والضيوف، ليكتمل هذا العام (٢٠٢١) عقده الأول، ويبلغ عامه العاشر، مختتما عقدا من الخيال الطليق.

إفريقيا.. أين هي منّا، وأين نحن منها؟

قبل تأسيس مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية، لم تكن المساحة المتاحة في المهرجانات المصرية، إن أتيحت ولو على استحياء، تدل على الحاضنة الإفريقية، وهي قدَر الانتماء الجغرافي لمصر. في مايو ١٩٩٠

جاء نيلسون مانديلا إلى مصر، وحرص على زيارة قبر جمال عبد الناصر، وكلاهما ولد عام ١٩١٨. وفي احتفال كبير أقامته جامعة القاهرة، لمنح مانديلا درجة الدكتوراه الفخرية، قال إنه بعد صعود الدور المصري في دعم حركات التحرر منذ خمسينات القرن العشرين، كان هناك في أقصى جنوبي القارة، يتخيل عبد الناصر بعد تأميم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦، ويشبّ على أطراف أصابعه لعل الزعيم يراه.

وفي ١٥ مايو ٢٠٠٤ أعلن الاتحاد الدولي لكرة القدم (الفيفا) فوز جنوب إفريقيا بتنظيم بطولة كأس العالم ٢٠١٠، بعد حصولها على ١٤ صوتا، تليها المغرب التي نالت ١٠ أصوات، ولم تحصل مصر على صوت واحد، واستحقت «صفر المونديال». وفي مؤتمر صحافي عقب فوز بلاده بتنظيم المونديال قال مانديلا «لو كان جمال عبد الناصر على قيد الحياة، ودخلت مصر المنافسة أمام جنوب إفريقيا على شرف استضافة كأس العالم لكرة القدم ٢٠١٠، لانسحبت جنوب إفريقيا على الفور من الوقوف أمام مصر، ولكن الظروف تغيرت الآن، ومصر لم تعد مصر عبد الناصر».

فهل كان لإفريقيا حضور ثقافي يوازي الآمال التي عقدتها على مصر؟

لنأخذ مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، وهو العنوان الأقدم للمهرجانات المصرية، فلن نجد في تاريخه إلا نظرة تجاهل إلى إفريقيا، تجاهل واستعلاء على مستويين: أولهما النظر إلى إفريقيا باعتبارها كتلة لا تمايز فيها بين ثقافة وتقاليد وثراء تاريخي وصراع قبلي وتنوع بشري يختلف من بلد إلى آخر، ويتفاعل داخل البلد نفسه. ولكن التمثيل «الإفريقي» ـ ربما لإبراء الذمة ـ ظل يضع هذه الكتلة الجغرافية، خصوصا إفريقيا جنوبي الصحراء، في خانة واحدة. أما المستوى الثاني، فإن الحضور الكلي للسينمائيين وللسينما الإفريقية، في مهرجان القاهرة، كان أقل بكثير من الاهتمام بسينما دولة واحدة من دول الشمال والغرب والشرق التي تحل سنويا ضيف شرف، فتأتي بثقلها السينمائي: تكريما، وعضوية في لجان التحكيم، وكتابا تذكاريا، وندوات، وبرنامجا متنوعا يتضمن بانوراما أفلامها القديمة والحديثة: الهند، اليونان، تركيا، الصين، إيطاليا، رومانيا، على سبيل المثال. كان الجنوب الإفريقي جنوبا بكل ما في ميراث الجنوب من الحمولات والتمثيلات التاريخية.

التمثيل الرمزي لإفريقيا، في تاريخ مهرجان القاهرة السينمائي، يمكن تلخيصه في أربع إشارات:

ـ مشاركة المخرج التشادي محمد صالح هارون في عضوية لجنة تحكيم الأفلام الروائية الطويلة، في الدورة الحادية والثلاثين (٢٠٠٧).

ـ في الدورة الثانية والثلاثين (٢٠٠٨) ضمت لجنة التحكيم الدولية للأفلام الروائية الطويلة كلا من المخرج النيجيري محمود علي بالوجان (Mahmood Ali Balgun) والممثلة صوفي ندابا (Sophie Ndaba) من جنوب إفريقيا. وشاركت المخرجة راحماتو كيتا (Rahmatou Keita) من النيجر في لجنة التحكيم

الدولية للأفلام الروائية الرقمية التي تنافس فيها ١١ فيلما من مصر ولبنان وأيرلندا والأرجنتين وكرواتيا وإيطاليا واليابان وإسبانيا ومالاوي ونيجيريا وجنوب إفريقيا. ومن بين عشرات الكتب التي أصدرها المهرجان في أغلب دوراته، عن ظواهر فنية وفنانين وأفلام دول، صدر في الدورة ٣٢، عام ٢٠٠٨، كتاب «سينما اللؤلؤة السوداء» تأليف د. أحمد شوقي عبد الفتاح. وهو كتاب، كما ترى، عن سينما قارة بالكامل، وقد تأخر كثيرا.

ـ في الدورة الثالثة والثلاثين (٢٠٠٩) ترأس المخرج النيجيري فيكتور أوكاي (Victor Okhai) لجنة التحكيم الدولية للأفلام الروائية الرقمية.

ـ ترأس المخرج الكاميروني باسيك با كوبهيو (Bassek Ba Kobhio) لجنة التحكيم الدولية للأفلام الروائية الرقمية في الدورة الرابعة والثلاثين (٢٠١٠). وفي الدورة نفسها تم تكريم كل من قناةArte الفرنسية (٨ أفلام)، مهرجان السينما والتلفزيون الإفريقي في واجادوجو (فيسباكو) ٧ أفلام، أضواء على السينما التركية (٨ أفلام).

هذا الحصاد دالّ على هامش محدود أتاحه مهرجان القاهرة، على فترات متباعدة، للسينما الإفريقية. وكان من الضروري، ومن الإنصاف للسينما الإفريقية، أن تنتقل من هذا الهامش المصري إلى المتن، وأن نرى الاختلافات بين الجنسيات، والأجيال، والتيارات والمدارس الفنية، والألوان والأطياف الاجتماعية، والمواريث الحضارية، وتباين زوايا الرؤية والمعالجات الجمالية والفكرية للقضايا الإفريقية، بين مخرجين يقيمون في بلادهم وآخرين في الشتات والأوطان البديلة يرونها من خارج الحدود.

وما كان هذا الانتقال، من الحاشية إلى المتن، ليحدث إلا بثورة، فكانت ٢٥ يناير ٢٠١١ التي أثمرت، في العام التالي، مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية.

بعد شرارة الدورة الأولى لمهرجان الأقصر (٢١ ـ ٢٨ فبراير ٢٠١٢)، وربما بفضل تجليات الروح الجديدة، المختلفة والمحرّضة، للمهرجان الإفريقي في بيئته الأقصرية، وبإشراقات الوجوه الإفريقية الجميلة، كان جمهور مهرجان القاهرة السينمائي على موعد مع مشاركة إفريقية لافتة، بعد بضعة أشهر، في دورته الخامسة والثلاثين (٢٧ نوفمبر ـ ٦ ديسمبر ٢٠١٢): شارك فيلم «الرحلة الأخيرة لأبوجا» للمخرج النيجيري أوبي إيميلوني (Obi Emelonye) في المسابقة الدولية للأفلام الروائية الطويلة. وانسجاما مع الحراك الثوري استحدث المهرجان مسابقة دولية لأفلام حقوق الإنسان حضرت فيها إفريقيا في فيلميْ «القنصل الإيطالي» (IL console italiano) إنتاج إيطالي جنوب إفريقي، و«الوهم الجذاب» (Attractive illusion) إنتاج يوناني نيجيري. كما خصص المهرجان قسما للسينما الإفريقية ضم ثمانية أفلام تقدم تمثيلا شبه عادل للسينما الإفريقية: «قاسي» (Relentless) إخراج النيجيري آندي أمادي أوكورافور (Andy

Amadi Okorafor)، «إزرا» (Ezra) للمخرج النيجيري نيوتون آي أدواكا (Newton I. Aduaka)، «أوتلو يحترق» (Otelo Burning) إنتاج جنوب إفريقي للمخرجة سارة بليشر (Sara Blecher)، «قصة كامبالا» إنتاج أوغندي دنماركي للمخرجيْن كاسبر بيسجارد (Kasper Bisgaard) ودونالد موجيشا (Donald Mugisha)، «خطوات مضاعفة» (Los pasos dobles) إنتاج إسباني سويسري للمخرج إيزاكي لاكويستا (Isaki Lacuesta)، «نادي زنزبار الموسيقي» إنتاج فرنسي ألماني للمخرجيْن فيليب جاسنير (Philippe Gasnier) وباتريس نيزان (Patric Nezan)، «دوامة في باماكو» إنتاج أوغندي للمخرج دومينيك فيليب (Dominique Philippe)، إضافة إلى «الرحلة الأخيرة لأبوجا» للمخرج النيجيري أوبي إيميلوني (Obi Emelonye) المشارك في المسابقة الدولية. (المصدر: دليل مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، ٢٠١٢).

حضور إفريقي كبير، في دورة واحدة، يطرح سؤالاً تقليدياً على مصر: أين كنتِ؟

وفي المقابل، يحق لمصر أن تسأل السينمائيين الأفارقة: وأين كنتم؟ وأين مصر في أفلامكم؟

قبل الإجابة الإفريقية، يمكن التوقف أمام إجابة تونسية يقدمها «دليل الأفلام التونسية الطويلة.. من ١٩٥٦ إلى ٢٠١٦»، وهو مجلد فخم أصدره المركز الوطني للسينما والصورة بوزارة الثقافة التونسية في ٣٥٠ صفحة. لتونس النصيب السينمائي الكبير مع مصر، حضورا ومشاركة وإنتاجا، إذا ما قورنت ببقية الدول العربية الإفريقية، وإن كان في «دليل الأفلام التونسية الطويلة» دليل على حضور مصري باهت، ويبدو في معظمه محكوما بالإنتاج المشترك مع طرف عربي أو أجنبي:

ـ اشتراك الممثلة المصرية سميرة أحمد في بطولة ثالث فيلم روائي طويل عنوانه «المتمرد» ١٩٦٨، إنتاج وسيناريو وإخراج عمار الخليفي.

ـ قيام الممثلين كمال الشناوي ومديحة كامل وليلى فوزي ببطولة فيلم «الملائكة» ١٩٨٤، إنتاج تونسي كويتي مصري وإخراج رضا الباهي.

ـ إسناد بطولة فيلم «شيشخان» ١٩٩١، إنتاج تونسي فرنسي وإخراج محمود بن محمود وفاضل الجعايبي، إلى الممثل المصري جميل راتب الذي قام ـ مع شريهان ـ ببطولة فيلم «الشاه مات» (كش مات) ١٩٩٤، إنتاج تونسي مغربي سوري وإخراج رشيد فرشيو.

ـ وفي عام ١٩٩٥ شارك جميل راتب في بطولة «صيف حلق الوادي» إنتاج تونسي فرنسي بلجيكي وإخراج فريد بوغدير.

ـ ومن بين نحو ٢٥ فيلما لمخرجين عرب وأجانب ـ بداية بفيلم «جحا» ١٩٥٨ للفرنسي جاك باراتياي،

أخرج سمير سيف فيلم «أغسطينوس ابن دموعها» ٢٠١٦، إنتاج تونسي جزائري أميركي.

أما الإجابة الإفريقية، جنوبي الصحراء، فهي السؤال نفسه: كم بعدت مصر؟ كان القرب رياضيا، في ملاعب كرة القدم، لا في ستوديوهات السينما أو قاعات العرض. ويحفظ المشجع المصري أسماء لاعبين أفارقة حققوا بطولات رياضية مع أندية مصرية، وقلما استعان مخرج مصري بممثل إفريقي، حتى لو كانت أحداث الفيلم تدور هناك، «في الأدغال». وفي كتاب «مصر وسينما العالم»، الذي نشره مهرجان القاهرة، عام ٢٠١٠، للناقد أحمد رأفت بهجت، يجد القارئ غيابا لمصر عن الأفلام الإفريقية، ولا وجود لإنتاج مصري ـ إفريقي مشترك. ولعل صندوق «اتصال»، أحد إنجازات مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية، يكون هذا الجسر.

مصر عادت.. بمهرجان له طعم الثورة

الكيان التاريخي المسمى «مصر» مراوغ وخادع، بسيط وشديد التعقيد معا، لا يمنح نفسه بيسر لعين استشراقية متلصصة، ويعنيه أولا تربية علاقات الألفة والمحبة. من هذه الزاوية يمكن النظر إلى مصر كجسد كسيح، يمتد بطول البلاد وعرضها، ورأس كاسح مستقر في العاصمة، وفقا لتوصيف جمال حمدان.

مصر ذات طبيعة مركزية، منذ توحيد البلاد وتأسيس أول دولة في التاريخ، نحو عام ٣١٠٠ قبل الميلاد، وابتداع جهاز بيروقراطي في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد؛ استطاع أن يصون هذا الاستمرار، متسلحا بأدوات وآليات مخبوءة في دهاليز الدولة العميقة وطبقاتها الخفية، وأن يمنح الحاكم في العاصمة أيّا كان اسمها (منف، طيبة، الإسكندرية، الفسطاط، القاهرة) مهابة وقدرة على السيطرة على الحدود في الأقاصي. منذ ذلك الوقت المبكر، «بحلول عام ٢٦٠٠ ق.م أقيم أول نظام إداري وخدمة مدنية قومي مركزي في التاريخ في العاصمة منف... وبحلول عام ١٤٥٨ قبل الميلاد تقريبا أصبحت مصر أعظم قوة إمبراطورية في العالم»، في عصر الملك المقاتل تحتمس الثالث، كما يقول الكاتب الكندي سيمسون نايوفتس (Simson Najovits) في المجلد الأول، الخاص بالسياقات، من كتابه «مصر أصل الشجرة» (Egypt, trunk of the tree)، واصفا مهمته لإنجاز كتابه بالكفاح، ليكون شريكا لعدد كبير من الباحثين والمؤرخين وعلماء المصريات، وهم «يبحرون في المتاهة المصرية غير العادية». (ترجمة: أحمد محمود).

الحلم بتفكيك المركزية، أو التحايل عليها، يحتاج إلى ثورة. وكانت ٢٥ يناير ٢٠١١ فرصة مواتية لتوزيع الحصص الثقافية بصورة تحقق قسطا من العدالة المفقودة. ولا أتذكر الآن متى سمعت، للمرة الأولى، بمشروع مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية. لم أكن قريبا من مؤسسة «شباب الفنانين المستقلين»، وهي مؤسسة غير ربحية تعمل في مجال الفنون والثقافة منذ عام ٢٠٠٦، وفي عام ٢٠١١ نظمت المؤسسة ـ باعتبارها عضوا في ائتلاف الثقافة المستقلة ـ أنشطة جماهيرية عنوانها «الفن ميدان» في القاهرة

والمحافظات. وفي ديسمبر ٢٠١١ شاركتْ في تنظيم احتفالات، في القاهرة والإسكندرية والأقصر، بمناسبة مئوية نجيب محفوظ (١٩١١ ـ ٢٠٠٦)، وكان مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية عنوانا بارزا لمشروع يتوّج أنشطتها، وتكسر به مركزية القاهرة في احتكار الفنون، ويتخطى الحدود الجغرافية لمصر.

يحمل مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية براءة المبادرات الأهلية وطموحها، ورغبتها في التجاوز. وقد ضبط المهرجان إيقاعه، فتناغم مع روح الثورة، وتفاعل مع دعوة وزير الثقافة عماد أبو غازي إلى تشجيع العمل الثقافي غير الرسمي. دخل الدكتور عماد أبو غازي الوزارة منتخبا، وخرج منها مستقيلا في ٢٠ نوفمبر ٢٠١١، في اليوم التالي لاندلاع مواجهات دامية في شارع محمد محمود. ولعله وزير الثقافة المصري الوحيد الذي تطالب مظاهرات باختياره لهذا المنصب، وكنا في فورة الحماسة، والإيمان بألا شيء يستعصي على ثورة نجحت في خلع حسني مبارك رأس النظام، وتعتعة جسد النظام وخلخلة أسسه، مجرد خلخلة. وقبل أن يستقر هذا الجسد الثقيل، ويستعيد ماضيه قبل ٢٠١١، أثبتت التجربة إمكانية نجاح التغيير من أسفل، من الشارع. جربنا هذا النوع من التغيير بقوة الإرادة، مرة واحدة، وتذوقنا طعم الفوز. ففي ٢٢ فبراير ٢٠١١ أعلن المجلس الأعلى للقوات المسلحة الذي يحكم مصر عن تعيين محمد الصاوي، مالك مركز ساقية الصاوي السياحي الاستثماري، وزيرا للثقافة. مفاجأة قوبلت برفض فوري من الجماعة الثقافية التي لم تُستشر في هذا الاختيار، فالرجل لا علاقة له بالثورة أو بشؤون الثقافة بمعناها الأشمل. وتواصلت المظاهرات أمام وزارة الثقافة، مصحوبة بطلب محدد هو اختيار عماد أبو غازي وزيرا للثقافة.

يوم الخميس، ٣ مارس ٢٠١١، أقيلت وزارة أحمد شفيق، وخرج محمد الصاوي. وفي اليوم نفسه تم تكليف الدكتور عصام شرف بتشكيل الحكومة، ونزل إلى ميدان التحرير يوم الجمعة، وبدأ المشاورات في اليوم التالي لاختيار الوزراء، وكان قسم اليمين الدستورية يوم الاثنين ٧ مارس ٢٠١١. وسرعان ما عقد عماد أبو غازي وزير الثقافة، في حديقة أتيليه القاهرة، اجتماعا مع المثقفين لبحث إدارة شؤون الثقافة والفنون، وتشجيع العمل الأهلي، بعيدا عن المركزية، وعن الاحتكار الرسمي.

والآن، في نهاية عام ٢٠٢٠، أسأل عماد أبو غازي عن مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية، فيقول إن الحلم به يسبق ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، وإن السيناريست سيد فؤاد صاحب الفكرة.

في عام ٢٠١٠ كانا يشاركان في بحث آليات تنفيذ مشروع للإدارة المشتركة بين وزارة الثقافة ويمثلها عماد أبو غازي الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة (المجلس يختص بوضع الرؤى والسياسات الثقافية)، واتحاد الاذاعة والتلفزيون ممثلا بقناة النيل الثقافية، في وجود سيد فؤاد الذي عرض الفكرة، واقترح على عماد أبو غازي أن تتبنى وزارة الثقافة مشروع المهرجان. وبعد ثورة ٢٥ يناير كانت خطة وزارة

الثقافة تهدف إلى توجيه الميزانية للعمل خارج القاهرة، وفي الوقت نفسه تشكلت مجالس إدارات للمراكز التابعة للوزارة من شخصيات مستقلة، وأولها مجلس إدارة المركز القومي للسينما. يقول لي أبو غازي: «قررنا أن تتولى الجمعيات الأهلية تنظيم المهرجانات، بضوابط محددة يضعها مجلس الإدارة. وكان مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية أول مهرجان يتقدم لتنفيذ الخطة المقترحة».

الصورة الكاملة لحلم جعلته الثورة حقيقة

سيد فؤاد وعزة الحسيني يكملان تفاصيل الصورة. قدّم سيد فؤاد الفكرة إلى وزير الإعلام أنس الفقي، بعد تسجيل حقوق الملكية الفكرية الخاصة بعنوان المهرجان وطبيعته. ورأى الوزير الفقي تأجيل هذا الأمر، إلى أن يكتمل نجاح خطة «ملف التوريث». ومن حسن حظ المهرجان أن يبدأ «على نظافة»، بعد تمكّن طوفان الثورة من كسح مبارك وابنه الوارث جمال ووزير الإعلام، وأن يرتبط المهرجان بالثورة. ومن حسن حظ المهرجان، ومن سوء حظنا، أن يكون آخر الأنشطة الكبيرة المتبقية من العطايا الرمزية للثورة المغدورة.

في ٩ أكتوبر ٢٠١٠ وثّق سيد فؤاد اسم المهرجان برقم ١٥٩٥، في مأمورية الشهر العقاري بمبنى الإذاعة والتلفزيون بالقاهرة (ماسبيرو). وفي ١١ أكتوبر ٢٠١٠ حصل المواطن سيد فؤاد الجناري، المقيم في شارع ناصر الثورة بمحافظة الجيزة، على «شهادة إيداع مصنف مكتوب»، من إدارة حقوق المؤلف بالمجلس الأعلى للثقافة، وعنوان المصنف «مشروع إنشاء مهرجان النيل للسينما الإفريقية» يقام في محافظة الأقصر. وقد شاركت المخرجة عزة الحسيني في تأسيس المهرجان وتطوير فكرته، إضافة إلى وضعها للخطط الإستراتيجية والتنفيذية والفنية.

وفي ديسمبر ٢٠١٠ قدم نائب رئيس قناة النيل الثقافية سيد فؤاد تصورا لمشروع «مهرجان النيل للفيلم الإفريقي» في الأقصر، بالتعاون مع وزارة الثقافة. وعرض المشروع على لجنة من وزارة الثقافة فوافقت، في جلسة يوم ٢٠ ديسمبر ٢٠١٠، على هذا التعاون، وأثنت على المشروع الذي ينطلق من «رؤية ثقافية وفنية وفكرية جيدة لنشر المنتج الدرامي المصري في إفريقيا، وخاصة دول حوض النيل، واعتبار الجوائز المقترحة دعما للإنتاج الدرامي الإفريقي».

ومع اقتراب اكتمال ملامح المشروع عام ٢٠١١، تمت إضافة مدينة الأقصر إلى عنوان المهرجان، فأصبح «مهرجان الأقصر للأفلام الإفريقية»، وتحدد موعد الدورة الأولى من ١٦ إلى ٢٤ يناير ٢٠١٢، وفي المناشدة المقدمة من مؤسسة شباب الفنانين المستقلين إلى الجهات الداعمة (وزارة الثقافة، وزارة السياحة، وزارة الطيران المدني، محافظة الأقصر، اتحاد الإذاعة والتلفزيون، نقابة المهن السينمائية) وعيٌ بضرورة إقامة هذا المشروع، وإلحاح على أهميته لمصر، على الأصعدة كلها، «ليس فقط بالنسبة لأمن مصر المائي

والجغرافي، بل لما هو أبعد من ذلك، على كافة المستويات الاقتصادية والسياحية».

في الشهر التالي لتولي عماد أبو غازي وزارة الثقافة أرسل عدة رسائل رسمية تثبت إيمانه بالمشروع: في رسالته إلى وزير الخارجية نبيل العربي حثه على دعم «الصندوق الإفريقي بوزراة الخارجية» للمهرجان. وأرسل في اليوم نفسه، ١١ أبريل ٢٠١١، إلى كل من وزير السياحة منير فخري عبد النور، ووزير الطيران المدني إبراهيم محمد مناع، لدعم المهرجان. وأرسل أيضا إلى سمير فرج محافظ الأقصر من أجل «استضافة المهرجان». وفي ٥ مايو، خاطب المحافظَ الجديد للأقصر خالد فودة، مذكرا إياه بالرسالة السابقة إلى المحافظ السابق سمير فرج، من أجل استضافة «مهرجان النيل للسينما الإفريقية» في المدينة.

في خريف ٢٠١١، كانت أرجوحة الثورة تعلو وتهبط، تلقائيا مدفوعة بالغضب الشعبي، أو عمدا بإرادة قوى أو كائنات خفية عزّ عليها أن تكون للشعب إرادة. وفي الارتفاع والهبوط قياس واختبار ذكي، ولئيم أيضا، لأوزان وأحجام القوى على الأرض، وتناثرٌ لأحلام ودماء في شارع محمد محمود ومحيط مجلس الوزراء، واشتعال حرائق أو إشعالها، في المجمع العلمي المصري، وفي كنائس بحلوان في القاهرة وفي المارياناب في أقصى الجنوب بأسوان؛ للإلهاء العام، ودفع الجماهير إلى كراهية الثورة، والكفر بمن دعوا إليها وشاركوا فيها. وكان الإسراع إلى إقامة المهرجان جزءا من الفعل الثوري.

المهرجان، هذا الحدث النوعي غير المسبوق في مصر، كان عملا في أوقات الفراغ لرئيسه سيد فؤاد المشرف على البرامج بقناة النيل الثقافية، وقد نال بحمد الله من اتحاد الإذاعة والتلفزيون، في ٣١ مايو ٢٠١١، تصريحا بالعمل «في غير أوقات العمل الرسمية وذلك طبقا لطلبه».

مرّ عنوان المهرجان بعدد من التغييرات. ولم يكن منطقيا أن يخلو من اسم المدينة التي تقام فيها أنشطته. وحين أضيفت مدينة الأقصر إلى اسم المهرجان أصبح «للأفلام الإفريقية»، وفي هذه الصيغة تضييق لزاوية الرؤية؛ فليس المهرجان مجرد عروض للأفلام، وإنما هو حالة تتضمن مشاهدة الأفلام، والإسهام في الصناعة، والتوعية بالفنون الجميلة، والتواصل مع البيئة الحاضنة للمهرجان.

يوجد بُعد شاسع بين «السينما» و«الأفلام». تتعدد دلالات السينما فتشمل الأفلام وقاعات العرض والفرح بالترويح عن الأنفس بالذهاب إلى «السينما»، أما دلالات الأفلام فتقتصر على الأشرطة. وما أقل مهرجانات السينما، وما أكثر مهرجانات الأفلام: سينمائية وتلفزيونية وسياحية استشراقية وأخرى لأفلام الموبايل يصورها هواة. الأفلام غزيرة أحيانا إلى درجة الابتذال حين يقوم بها مدّعون، ولكن السينما عزيزة، حتى أن كلمة «السينما» ظلت عصية على التعريب، منطوقة بلغات العالم كافة، من دون بقية الفنون الستة السابقة.

وكانت الصيغة الأخيرة، لعنوان المهرجان، تطويرا لعدة صيغ:

ـ في أكتوبر ٢٠١٠ «مهرجان النيل للسينما الإفريقية».

ـ في ديسمبر ٢٠١٠ «مهرجان النيل للفيلم الإفريقي».

ـ في بدايات ٢٠١١ «مهرجان الأقصر للأفلام الإفريقية».

ـ في أبريل ومايو ٢٠١١ «مهرجان النيل للسينما الإفريقية».

ـ وفي سبتمبر ٢٠١١ «مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية».

ومن الوفاء أن يسجل دليل الدورة الأولى الشكر لمن أسهموا في «خروج هذا المشروع إلى النور في تلك اللحظات الصعبة والحرجة من عمر الوطن، نخص بالذكر د. عماد أبو غازي وزير الثقافة السابق الذي كان أول من آمن بهذا المشروع وكان جهده بمثابة الدفعة الأولى لخروج مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية».

دول عربية وإفريقية وأوروبية وآسيوية وأميركية سبقتنا إلى تنظيم مهرجانات للسينما الإفريقية. وبحكم ميراث مصري، عزّزه شعار القطيعة والانكفاء «مصر أولا» خلال حكم أنور السادات، تم التمحور الزائد حول الذات. ومع اقتراب إقامة المهرجان، أثيرت أسئلة: هل توجد في إفريقيا أفلام تكفي لإقامة مهرجان؟ من يتحمس للمشاركة بفيلمه في مهرجان وليد أنشأته مؤسسة أهلية شبابية؟ وكيف تحتمل مدينة الأقصر، الخالية من دار للسينما، عروضا لمهرجان يجب ألا يخذل ضيوفه؟

قدم الافتتاح، مع انطلاق الدورة الأولى، إجابة حاسمة على هذه الشكوك والمخاوف. مشهد يقول إننا مقبلون على مهرجان مختلف: ضيوفه، وأفلامه، وأنشطته المتنوعة، ووجوهه، ولجان تحكيمه، وافتتاح غير تقليدي يبدأ بجولة في نهر النيل تحت الشمس وينتهي في ساحة معبد الأقصر في حضرة البنّاء العظيم أمنحتب الثالث.

تمثيل إفريقي مشرّف يؤكده وجود مخرجين وممثلين لم تفلح أضواء مهرجان القاهرة السينمائي في أن تجذبهم وتجمعهم في دورة واحدة، يلتقون ربما للمرة الأولى بمخرجين بارزين منهم الموريتاني عبد الرحمن سيساكو والإثيوبي هايلي جريما، وقد جاءا من آخر الدنيا إلى الأقصر. وكان شاكر عبد الحميد قد تولى وزارة الثقافة وجاء لافتتاح المهرجان، مع المحافظ الجديد للأقصر السفير عزت سعد.

الأقصر بمعابدها الصرحية الشاهقة هي أكبر متحف مفتوح في العالم، وجاء المهرجان لكي يعيد الزهو التاريخي إلى طيبة، عاصمة الدولة المصرية الحديثة التي تأسست حوالي عام ١٥٦٧ قبل الميلاد، مع نجاح الملك أحمس في تحرير مصر من الغزاة الهكسوس. ويسمي علماء الآثار والمصريات تلك المرحلة التي استمرت حتى عام ١٣٢٠ قبل الميلاد «عصر الإمبراطورية». وكان أفولها مقدمة لغروب مصري طويل، لا

يخلو بالطبع من محاولات مجهضة، وناجحة أحيانا، لاستعادة مصر إلى أهلها، ومنها لحظة يناير ٢٠١١.

وإذا كانت الأعمال بالنيات، فإن المهرجانات ليست كذلك. لا يكفي نبل الهدف وصدق الفكرة لإنجاح مشروع. وشأن أي عمل جماعي، جاء مهرجان الأقصر للسينما الإفريقية ثمرة جهود تتفاعل وتتكامل وتستمر. فقد أطلق المهرجان سيد فؤاد «بصفته صاحب ومبدع الفكرة والمشروع»، وسجل المهرجان باعتباره «مصنفا مكتوبا». وعلى الفور تولت عزة الحسيني صياغة الحلم، ووضع أطر عملية لتطويره. وبعد ترجمة المشروع إلى مهرجان، لا تزال تتعهده بإضافة أنشطة جديدة يشارك فيها مجتمع الأقصر المحلي، أو ينجزها المهرجان بالتعاون والتوأمة مع مهرجانات في القارة الإفريقية وخارجها. وفي «ورقة المشروع» التي صاغتها عزة الحسيني إشارة إلى علاقات سياسية واقتصادية بين إفريقيا وكل من الصين وكندا، «في حين أن مصر لا يوجد بها أي تواصل ثقافي أو فني مع القارة التي تربطها بها كل هذه العلاقات التاريخية والثقافية والجغرافية... ولم يحدث حتى الآن (قبل المهرجان) أي تواصل معها على المستوى السينمائي». ومن الإستراتيجيات التي حددتها «ورقة المشروع» تكوين قاعدة بيانات إلكترونية عن السينما والسينمائيين الأفارقة، وتهيئة الأجواء الجمالية لاستقبال الفيلم الإفريقي في مصر، وإعادة عرض الأفلام الفائزة في المهرجان بمراكز ثقافية في القاهرة والإسكندرية وغيرها.

جاءت الدورة الأولى للمهرجان امتحانا لطموحات «ورقة المشروع». ومنذ حفل الافتتاح بدا المهرجان حالة حب، فرحة للأفارقة باستعادة مصر، وسعادة للمصريين بعودة الثقة، والرهان على السينما والثقافة عموما في إصلاح الخطايا السياسية. وكان ختام الدورة الأولى، على شرف جمال عبد الناصر، بتصفيق الحاضرين طويلا لكلمة ارتجلها هايلي جريما «المكرم»، حين تحدث عن آباء إفريقيا، وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر. هذا المعنى نفسه شدد عليه عبد الرحمن سيساكو عضو لجنة التحكيم الذي يزور مصر للمرة الأولى، وكان قد رفض دعوات سابقة، ولم يتردد في تلبية هذه الدعوة؛ لأن المهرجان إفريقي، ولأن مصر ثارت في ٢٥ يناير ٢٠١١، واستعادت روحها، وتريد بصدق تجديد دورها الإفريقي.

شهد ختام الدورة الأولى، في الفضاء الرحب بساحة معبد الكرنك، استعادة أجواء الخمسينات والستينات من القرن العشرين. تجاوب الحاضرون مع منصة يتردد فيها ذكر جمال عبد الناصر، وكان هناك أعضاء لجنة التحكيم ومحافظ الأقصر عزت سعد، وعماد أبو غازي الذي ابتسم، ولم يصفق. وبعد قليل، سألته في حفل العشاء، وأنا أعرف أنه لا يحب عبد الناصر: كنتَ الوحيد الممتنع عن التصفيق، ألا يستحق عبد الناصر أكثر من ابتسامتك، مجاملة للمصفقين لذكراه؟ فقال ضاحكا: «مش ممكن!».

"الطلياني" للكاتب والروائي التونسيّ شكري المبخوت الاكتفاء بالحُلمِ .. وبلاغة الجملة الأخيرة

عِذاب الركابيّ

«الحُلمُ مُحمّلٌ بالمُخاطرة دوماً» - باولو كويلهو !

الإبداعُ سؤالٌ مُتشعّب .. مُشاغبٌ .. وصاخب !!

قدْ لا يُضيء الطريق بسهولةٍ لإجابته ، ولكنّهُ لا يمتهنها بفقدان عطر براءتها ، ولا يستعجلها لتبدو بخطىً ناحلة ، ربّما يُهيأ لها سكن انتظارٍ مريحٍ في فضاء الجملةِ الأخيرة .. وهكذا لا يُخفي الكاتب شكري المبخوت إتقانه درسَ - إدغار آلان بو الّذي تلخصهُ عبارته الهادفة : (القاصُ يكتبُ وعينهُ على الجملةِ الأخيرة)..!!

رواية «الطلياني» سؤالٌ مُلح ، بأبجدية صاخبة ، لا تغيّبهُ أحداث الرواية المتشعبة والمتشابكة ، ولا المباراة الآيديولوجية والحزبيّة بلا بطولة تُذكر ، ولا الحكايا والمواقف العاطفية التي جاءت كتجميل اللازمن الذي عاشهُ أبطال الرواية ، بلْ تكاد تبتلعُ خطى وأحلام الشخوص الذين يُحركون الدمَ في مفاصل سردٍ جادٍ مؤثّرٍ .. ويبدو حتّى الانتماء ضبابياً .. كلّ زحام الأحداث ، واختلاف الرؤى ، وتعدد الأفكار والأحلام لا يلغي السؤال - عصب الرواية ، ولا يُطفيء جمر إجابته الظامئة المتقد في كلّ سطرٍ من الرواية ، بل يُرخص لها بساطاً حريرياً ، وهي تكبرُ ، وتتأكّد ، وتطغى على عطر كلماتٍ لا تخلو من إثارة excitation، وهي بمثابةِ الملحِ في السرد narrative ، وعلى وجه الخصوص الجملة الأخيرة .. لِتُقرأ « الطلياني» كروايةٍ دائرية ، بدايتها بكلّ ما فيها من دهشةٍ ومفاجأةٍ وغرابة أيضاً ، ترتبط فنّياً وتقنياً ، وفق هندسة تكنيكٍ راقٍ ، بنهايةٍ ذات دهشة أجمل ، وإقناعٍ أعمق ، ولذة

ومتعة قراءة مبهجة دائمة ، وهذا يُحسبُ للكاتب شكري المبخوت :(لمْ يفهم أحدٌ من الحاضرين في المقبرةِ يومَها لِمَ تصرّفَ عبدالناصر بذاك الشكل العنيف ، ولمْ يجدوا حتّى في صدمة موت الحاج محمود سبباً مُقنعاً) – الرواية ص٥.

لا تخفي الرواية الفارق الكبير بينَ الخلف والسلف ، بينَ الابن (عبد الناصر) وأبيه (الحاج محمود) ، واختبار الموت يكشفُ ذلكَ أكثر ، فموقف الابن من أبيه ، وسلوكه الغريب ، وتصرفه اللاأخلاقي حتّى وأسرته يودعون أباه .. هنا موطنُ السؤال المتلهف إلى جوابٍ ، بدا ممتنعاً في زمنهِ ولحظتهِ ، أهو ترجمة لما عاناه (الابن) في الحياة مع أبيه قبلَ الموت؟ لا يبدو مُقنعاً أبداً ! ترى لماذا كلّ هذا الجحود حتّى الوقاحة ، وهذا السلوك المستهجن الخالي تماماً حتّى من اهتمام افتعالي زخرفي ، أو تظاهر بالمحبة والاحترام قليلاً لربّ العائلة ، وهو في ذمّة الغياب .

ويكبرُ السؤالُ بأبجديةٍ حائرةٍ ، ليتعدى إلى ما بينَ الأب وابنه إلى ما بينَ (عبد الناصر) وبين الإمام (علالة) الذي تولّى طقوس دفن الأب (الحاج محمود) وقراءة آيات الذكر على روحه .. ولماذا يُطيلُ (عبدالناصر) التحديق في الإمام (علالة) ؟ ولماذا يُنكّس الإمام رأسه خجلاً ، مُتحاشياً النظر إلى (عبد الناصر) .. سؤال !!، بل أسئلة متشعبة متعطشة إلى إجاباتٍ تفعلُ فعلَ الماء في قلبِ صحراء هجرها وقتها !

- لماذا يضربُ (عبدالناصر) (الإمام) حتى يسيلَ دمه ؟ ما سرّ هذا العدوان؟ وما الذي يخفيه هذا الفتى النزق عن الإمام بالضبط ؟ ولماذا ساعة دفن أبيه ؟ وفي هذا المكان والزمان الحرجين ؟ والناس وأهل المتوفي في هذا الموقف الجنائزي البكائيّ الحزين ! ؟

: (تعالى الصخب ،واختلطت الأصوات ، الإمام غارق في دمهِ ، عبد الناصر الطلياني ضرب الإمام ، لقدْ جنّ ابن الحاج محمود المسكين ، الطلياني يصرخ ويسبّ الإمام ، ابن الحاج في حالة هستيريا ، عيب والله عيب أن يقعَ هذا في جنازة) – ص٧.

وسؤال العائلة المحيّر حول سلوك (عبدالناصر) السيّء المهين .. أهو بفعل الكتب التي يقرأها ، ويطمح من خلال أفكارها التفرّد ؟ بورتريه بحبر واقعٍ قاسٍ، متعدد الأشكال ، فسيفساء غرائبية لشخص (الطلياني) ترسمه الأخوات «يسر» و«سكينة» و«جويدة» و» الأم» والخال «توفيق» ، وانتهاءً بـ«الجيران» .. بورتريه بخطوط وألوان وأشكال عسيرة القراءة ، غريبة مُحيّرة الظلال .

إلاّ (للاّ جنينة) !! ما السرّ وراء ابتسامتها وهي زوجة (الإمام) وجارة العائلة ، ماذا تعرف عن علاقة (عبد الناصر) بـ(الإمام) ؟ ولماذا أعطت لـ(الطلياني) الحقّ في هذا السلوك المشين في لحظةٍ فريدة مشهودة ، يعمل فيها العائلة والجيران والمعارف على تجسيد صورة رائعة للتكافل الاجتماعي؟

ولماذا يرسمُ الجيران صورة أخرى لـ(للاّ جنينة) زوجة الإمام ؟ وهي أكثر غرابة ، وتأتي بحبر شاحبٍ ، وكلمات متنافرة ، لا تجمع بينها فاصلة صدق !

والسؤال يلدُ السؤال !! والناس والمكان والزمان يبحثون عن إجابة ، وهنا تصبح (كلّ كلمةٍ تقال مرئية) – بتعبير هاروكي موراكامي !!

- لماذا حياة اليأس والقنوط والكراهية ،الحياة هذه التي يعيشها (الطلياني) ، وتحيله إلى بركان ثائر في تربة واقعٍ يشعرُ أنهُ لا ينتمي إليه ؟

(عبد الناصر) عابثٌ أيضاً !! واللعب بوقتهِ ، ووقت أسرته معاً ، ليأخذ دور أكثر من شخصية ، بينَ ميل البعض لهُ وإعجابه بعقليته ومثابرته على دروسه ، بل وتفوقه أيضاً .. وبين القلق من نزواته وهي في تصاعد ، وهو يستجيب لبركان جسدٍ ثائر ، تحكم فيه الرغبة ، وهي (عبء يمكن أنْ نكون أفضل بدونها) – كما يقول ج.م. كوتسي ، تفضحها اللذة والشهوة أعلى سلطة في الجسد .

" الأرواح المعذبّة تتعارفُ إحداها إلى الأخرى" – باولو كويلهو !

هذهِ «زينة» « آنروز» الأمازيغية اليسارية على طريقتها ، التي لا تجمع من مخلفات «لينين» ولا «تروتسكي» شيئاً ، هي بعض من الحيرة والجنون والغرابة التي في شخصية (الطلياني) .. والاثنان يساريان شرسان ، يبدوان شوكة قاسية مقلقة في ظهور المنتمين زخرفياً إلى الحركات الإسلامية واليسارية الكاذبة معاً .. فلِمنْ تنتمي هذه الناشطة السياسية الخطرة جدّاً؟ وماذا تخبّيء في أغوار روحها الخليط من الشراسة والليونة .. كثرة الأوصاف لشخصيتها ، ووجوه التمرّد ، والخلافات الدائمة مع الكلّ ، كلّها لا تضيف لـ»زينة» حسب رؤى الراوي وسطور الرواية غير أنها (فوضوية) مجنونة بوعي وإصرار.. و» عبد الناصر» و» زينة» يعيشان معاً تجربة اضطهاد وعدوان من قبل رجال الأمن وأعوانهم ، وهما بين فكّي كماشة صدئين ، بين السيطرة الجهنمية للإسلاميين المتطرفين في الجامعة ، وبين الأسلوب القمعي للسلطة الغاشمة والاثنان « الطلياني» و» زينة» يتقنان تمثيل فيلم سينمائي في نضالهما السياسي والحياتي ، خليط من « الأكشن» و» الرومانسية» ، والمتفرجون كثر ، شرطة ، وأمن ، وأساتذة وطلاب جامعة .. وآخرون ، والفيلم من إنتاج وإخراج سلطة انفرطت قوتها ، ومعالم دولتها ، وسيطرتها ، كما تنفرط حبّات مسبحة لشيخٍ ضرير ، وهي (مصدر كل شر) و(إلى نكران)- حسب تعبير أوسكار وايلد.

ارتباط « زينة» و» الطلياني» بعقد (الصداق) أمام امتحان حياةٍ صعب ، وأيّام بملامح قاحلة عاصفة بالمفاجآت ، حيث لا استراتيجية محكمة لبناء حياة زوجية في وضع دولة تعاني من أمراض اقتصادية ، ولحظات خناق سياسي ولا حريات ، ما بعث النار في جمر المشاكل بين الزوجين ، ليبدو

«عبد الناصر» بقلبٍ لا يبتعد كثيرا عن ثمرة شجرة حالمة ، و»زينة» بلسان سليط ، لا تبتعد عن مخالب قط نافر:

- أنا مسؤول عنك !

- مسؤول عنّي ؟ قوّام عليَّ ! ههه ! لتعلم أنّني حرّة ، ولا تعني لي تلك الورقة التي وقعت عليها شيئاً!-ص١٣٠.

و"الطلياني" وحياة المدّ والجزر مع "زينة" ينقصهُ شيء ، و"نجلاء" الصيد المتاح في غابة حياته مَن يسدّ هذا النقص ، ويلغي سلطة الفراغ لديه ، وقد استدعت إلى ذاكرته عبارة لورانس الجميلة في روايته – الرجل الذي مات : (الويل لي إذا كانَ يُمكن للإنسان أن يكونَ كاملاً من دون امرأة)!وما بينَ " زينة" و" الطلياني" صورة واضحة لعواطف زخرفية ، ومشاعر مترهلة ، تكشفها الاتهامات المتبادلة والدائمة بينهما ، فهي في تقديره (ثلجية العواطف) ، وهوبالنسبة إليها (ليسَ أكثر من كلب حراسة في أحد أجهزة النظام) – ١٩٣.

وإذا كان السكن الوقتي الأكثر راحة وانعتاقاً لـ»الطلياني» هي « نجلاء» الصديقة الحميمة لـ»زينة» ، فإنّ ما يضمر الاثنان من عاطفة ، هي بعمر الرغبة والشهوة ، وكلّ منهما ليسَ أكثر من (موظف في مؤسّسة جسده) – بتعبير يوكيو ميشيما .

." فأنا لا أملك أيّ شيءٍ غير الحياة" – د.هـ. لورانس !

هذا هو منطق «زينة» بلغة الجسد والروح معاً !!وهذا هو هدف»تونس» بلغة ضمير شعب يحاول أن يقوّض جسور الظلم التي أتعبت خطاه ، ويُقدّس ألَمَهُ ، وهو بذرة الانفجار !! و» زينة» و» تونس»متماهيان .. وعودة»زينة» إلى دفء جسد الفرنسي «إريك.ش» هي عودة « تونس» إلى أحضان الغرب إلى (فرنسا) على وجه الخصوص .. ويقظة عاطفة العشق لدى»زينة» وتجددها ، قريب من رسم خريطة لـ»تونس» حتى لو بدت بألوان وخطوط شاحبة .. بناء علاقات جديدة مع الغرب.. وهل يمثّل الغربُ الوسادة العطرة بالأحلام التي تسند البلاد عليها رأسها المترنح ..!؟؟

تُرى ما أسباب هذا الحبّ الجارف الذي يحمل ذكرى لم تبتلعها أفعى النسيان ، بين «زينة» ذات العمر العشريني والعاشق الستيني « إريك.ش» !؟

وما المصير الذي آلت إليه حياة «زينة» ؟ أم هي مجرّد (حكاية محزنة) وكفى !؟

. "الطلياني " وهو يتطهّر من ماضيه بعيد الأغوار ، أو ينتقم منه في الآن ، ليتحرّر من أسرار حياتهِ العصيّة حتّى باستمتاعهِ بأخلاقهِ ، وسلوكياته الغريبة ، رغم إدعائه بأنّه لا يتنازل عن قناعاتهِ

ومبادئهِ، وها هو القدر ينصبُ لهُ كميناً بخيوط أفعاله ، ويدفع بـ"ريم" طالبة المدرسة الساذجة في طريق حياته ، وأسند لها مهمة فتح خزائن أسراره ، وهي تُرى بأقفال صدئة طوال هذه السنين .

أهو « الطلياني» المثقف المناضل واليساري نصير (البروليتارية الرثة) ، والوطني الغيور هذا الذي يدين بأخلاق المغامر والشهواني ، المحترف الرذيلة ، وصائد النساء من جميع الأعمار والطبقات ، وهو يجيد توجيه عدسة شهوته الشديدة الالتقاط ، بمقاييس الرغبة مصدر شروره ، حيث لا وقت معلوم لإطفاء نيرانها ؟: و (لابدّ من ريم وإنْ طالَ السّفر) – ص٣٠٧..!

وماذا في صندوق «الطلياني» الأسود أيضاً ؟

و(خصاؤه) أهو بسكين سذاجة وبراءة «ريم» أمْ بذكرى اعتداء «علالة» إمام المسجد عليه !؟

و(الخصاء) أهوَ وهمٌ وخيالٌ أمْ واقع وحقيقة !؟

وهل « الطلياني» رجلٌ كاملٌ أمْ أنه بسحر فعلهِ الدنيء مع «ريم» أصبحَ (ذكرى رجل) ؟

وهل استدارة»ريم» لـ»الطلياني» مفتاح الصندوق الأسود الذي أصرّ الراوي – الكاتب على فتحهِ في الوقت المناسب ، وهو يذكر باستدارة « الطلياني» الطفل لـ»علالة» الدرويش إمام الجامع !! وبالتالي يأتي الكاتب بمهارة السرديّ الجاد بالإجابة الشافية عن السؤال الحائر في سلوك «الطلياني» واعتدائه على «علالة» وهو يقوم بمراسم دفن أبيه «الحاج محمود» انتقاماً منه ، ومن ماضي «الطلياني» في الآن. فضرب شيخ الجامع حتى سال دمه ، هو إحراق لورقة ماضٍ كئيب ، حملَ « الطلياني» ذكراه المشؤومة سكيناً صدئاً في الخاصرة ، ولم تقوَ نزواته ومغامراته الشهوانية على انتزاع هذهِ السكين الصدئة ، وقد تماهت مع لحم الروح الجريحة..!؟

وإذا كانَ الاعتداء بالاغتصاب لمْ يتم أصلاً ، وأنّ «علالة» يشاع عنه (عنين) فلماذا هذا السلوك الذي بالغَ فيه « الطلياني» إلى حدّ التشاؤم واليأس ، وكان ممثلاً بارعاً ، وهو يُؤدي دور الانتقام من ماضٍ لم يلوث .. أهو محض تهويمات والراوي نقلها بحرفية ، قاصداً الإثارة excitation ملح الرواية !؟

- ولماذا يُهوّلُ " الطلياني" الأمرَ ، ويجعل من (اغتصابه) والاعتداء عليه من قبل "علالة" فعلاً واقعاً ، بلْ تحصيلٌ حاصل ، وهو ليسَ كذلك !؟ أهو يقظة ضمير متأخرة ، لتوبةٍ نصوحٍ ، وطلب مغفرة ، شاطئها يبدو بعيداً ، أشعلتها براءة "ريم" وسذاجتها ، وجمالها المغدور من قبل وحشية وذئبية الإنسان؟

وإذا كانَ «علالة» قدْ سبقَ لهُ الزواج ، وهو في زواجٍ ثانٍ من «للاجنينة» لماذا لمْ تذكر أيّ من الزوجتين شيئاً عن (عنته) وعجزه الجنسيّ الذي أصرّ عليه الراوي : (كانَ عنيناً ولا شك) –ص٣٢١.

وإذا كانَ القاصُ (يكتبُ وعينهُ على الجملة الأخيرة) – كما قال إدغارآلان بو ، فأنّ الروائي شكري

المبخوت قدْ وفقَ تماماً ، بذكاءٍ إيحائي تعبيري جمالي ، وهو يصوغُ جملتَه الرشيقة الأخيرة ، ويجيب بمهارة وحنكة السرديّ بموضوعية عن أسئلةٍ كثيرةٍ ، كادت تظل غامضة متاهة labyrinth في نظر قاريء رواية « الطلياني» ، بداية باعتداء «عبد الناصر» على «علالة» إمام الجامع في مكانٍ وزمانٍ حرجين في مفتتح الرواية الدائرية .. وعبقرية السؤال ، تبعتها إجابة أكثر بلاغة وعبقرية ،هيّأ لها تكنيك متقن .. والإجابة في (الجملة الأخيرة) من الرواية لا تلخص محاولة اغتصاب»علالة» الدرويش لـ»الطلياني» الطفل فحسب ، بل وتكشف (مرض) «الطلياني» نفسه ، وهو عبد رغبة الجسد (مبيح الخطيئة) – بتعبير القديس بولص ، وهو يغتصب براءة «ريم» !

إنَّ «الطلياني» رواية واقعية عرفانية تأمّلية بامتياز !!

تدين اليأس كمؤامرة ، وتكيل للأمل مديحاً باذخاً ، كإنجاز لأناس يوهبون أعمارهم له انتظاراً ، ويتركون أحلامهم في ذمّة نهارٍ ، ضوؤهُ يلوح ، وهو قادمٌ لا محالة ، والرهان- بكلّ تفاؤلٍ- على غدٍ (لا يبدو طفلاً ذبيحاً) كما يراهُ أدونيس ..!! لا يبدو (الترهل الآيديولوجي) الطافح في حبر سطور رواية « الطلياني» مرضاً مزمنا ، والعاطفة وإن بدت زخرفية ديكورية ، فهي استثناء وليست قاعدة .. كل بطلٍ من أبطال الرواية حالمٌ كبير ، يكتفي بالحلم على طريقة باولو كويلهو ، ولا يتخلى عنه حسب نصيحته في (الخيميائي) !!

. " الطلياني" رواية دائرية !! ربطت بدايتها بسؤالٍ حائرٍ في البدء .. وهو سؤال الإبداع الجاد ، ونهايتها إجابة مقنعة شافية ، حين يصبحُ سؤال المواطن هو سؤال الوطن ، والإجابة مراوغة ، قد تركت أبجديتها مفتوحة التأويل ، من دون أن يقيّد الكاتبُ رؤاه بسلاسل تقليدية ، عانى من صدأها روائيون كثر ، وضاع منهم بريق سردٍ جادٍ مُثير ..!!

الكاتب شكري المبخوت أفلح كثيراً في إتقان الجملة الأخيرة !!

لم تنته الرواية بكرنفال (الثورة) المتوقع بحسابات الذهن التقليدي ، ولكنّ شخوص وأبطال الرواية جلّهم ابتداءً من «عبد الناصر» و»زينة» و»سي عبد الحميد» وانتهاءً بـ»نجلاء» و»علالة» و» للا جنينة» هم جميعاً نتاج عهدٍ سادَ فيه الفساد بكلّ أنواعه .. وهم شرائح مجتمع حياتهُ تشكو من الحياة ، والانفجار القادم جاء خيالاً وتأمّلاً بتوقيع رماد جسد الـ» بوعزيزي» ، الذي ترك الكاتب وفق خيال-الواقع ظهوره لذهن القاريء ليستشرف الآتي ، وهو يخرجُ ثائراً على واقعهِ وروحه المتهدمة من وسط هؤلاء بلْ ويصحّح مسار شخوص ذلك العهد ، من خلال واقعٍ جديد !! وقد وُفِقَ الكاتب في سردهِ المثير حينَ رسمَ الثورة حُلماً وتأمّلاً شاعرياً في اللازمان ، وليس واقعاً بثياب رثةٍ في مرآة الانتظار !!

عبد الكريم السبعاوي في رباعيته "أرض كنعان": يوظف الفن الروائي المتقن في أربع روايات واقعية-تأريخية

عزيز العصا

مقدمة

عبد الكريم السبعاوي؛ فلسطيني مولود في حارة التفاح بغزة وسط لهيب الحرب العالمية الثانية (١٩٤٢م)، اكتوى بنيران النكبة (١٩٤٧-١٩٤٩)، ورأى بأم عينه تهاوي مدينته «غزة» تحت جنازير دبابات الاحتلال الإسرائيلي مرتين؛ ١٩٥٦م و١٩٦٧م. تنقل في شبابه بين عدّة أعمال ومهن، وفي الأربعين من عمره انعطف على كتابة الرواية، بدءًا «بالعنقاء»، التي فازت بجائزة جبران الدولية، وتُرجمت إلى الإنجليزية، ثم توالى نشر أعماله باللغتين العربية والإنجليزية (الرباعية، ص: ٢٩-٣٣). وأما العمل الأدبي الذي نحن بصدده لـ «عبد الكريم السبعاوي» فهو رباعيته «أرض كنعان» المنشورة هذا العام (٢٠٢١)، بدون دار نشر؛ إذ أن حقوق الطبع محفوظة للمؤلف.

رباعية أرض كنعان- من الغلاف إلى الغلاف:

تبدأ رباعية أرض كنعان بلوحة للفنان تيسير البطنيجي، على غلاف يحمل ملامح النص الروائي؛ إذ تبدو فيه فتاة «كنعانية» جميلة تطلق شعرها للريح كأنها تقف على أطلال من مروا على أرض كنعان، ويغلب عليه اللون البرتقالي الجميل. وفي ذلك إشارة واضحة إلى أننا مقبلين على نص، مشبع بوطن خصب جميل، تأخذ فيه المرأة مكانها ومكانتها. جاءت هذه الرباعية في (٨٠٦) صفحات من القطع الكبير، تبدأ بمقدمة بقلم الشاعر «منصف الوهايبي»، يليها نبذة عن حياة الكاتب (عبد الكريم السبعاوي) وأعماله بقلم الأستاذ الدكتور محمد البوجي.

تحتضن هذه الرباعية (٤) روايات، تتكامل فيما بينها في (١٣١) محطة سردية، وهي: الأولى رواية «العنقاء» التي توزعت على (٢١) محطة سردية، والثانية «الخل الوفي» التي توزعت على (٣٣) محطة سردية، وأما الثالثة فهي رواية «الغول» التي توزعت على (٣٧) محطة، وخاتمة الرباعية بعنوان «رابع المستحيل» توزعت على (٤٠) محطة سردية. وقد تمتعت كل رواية بهوية زمانية، تغطي مرحلة تاريخية من مراحل التاريخ الفلسطيني

المعاصر، على مدى زمني لنحو (٢٠٠) سنة، يمتد بين منتصف القرن الثامن عشر حتى النكبة سنة ١٩٤٨.

لقد جاءت المحطات السردية بمثابة استراحات للقارئ، لكل منها موضوعها ومشاهدها وأحداثها. يكسر السارد من خلالها الرتابة والملل في نفس القارئ، مما يجعله يحث الخطى نحو المحطة التالية، باحثًا عن الفسيفساء التالية التي تشكل -منفردة ومجتمعة- لوحة هذه الرباعية التي لا أخال قارئًا يمر عليها إلا ويعيد المرور كلما احتاج إلى استرجاع تاريخ فلسطين السياسي والأمني والاجتماعي والاقتصادي في تلك الفترة.

أمّا الثيمة «القضية» الروائية الرئيسية لرباعية «أرض كنعان»، كما وجدتُها، فتقوم على وصف التغيرات التي مرّت بها فلسطين عمومًا وغزة على وجه الخصوص، خلال الفترة أواسط القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن العشرين. ولأجل ذلك، وللأمانة التاريخية، قرأ «عبد الكريم السبعاوي» عشرات المراجع التي تتناول عصر كل رواية على حدة، كما وأنطق الشخصيات الروائية أو جعلهم يتصرفون بما يتطابق -إلى حد ما- مع شخصياتهم الحقيقية وطرائق تفكيرهم والأدوار التي يقومون بها.

بُنيتان.. وأربعٌ في واحد:

لقد شكلت المعلومات التي جمعها الكاتب الهيكل الأساس للرباعية، الأمر الذي مكّنه من تحقيق سرديات روائية متماسكة ومتتابعة ومتطورة، من عصر إلى آخر، ليسير بالقارئ بتؤدة وهدوء بين ثنايا النص، دون أن يتعثر بتناقض هنا أو تضارب هناك. ويتكون هذا الهيكل من بنيتين، هما: البنية المكانية والتي كان لها طغيانها وقدسيتها في آنٍ معًا، حيث احتفى النص بغزة وجوارها الأقرب، بخاصة يافا وعكا والعريش، وعندما تمدد في المكان وصل إلى القدس والمدينة المنورة ومعان والعريش. وأما البنية الزمانية، فقد وزّع الـ «السبعاوي» الـ (٢٠٠) عام على مكونات رباعيته كالآتي:

العنقاء (تبدأ من النصف الثاني من القرن الثامن عشر): تغطي فترة أحمد باشا الجزار -وظاهر العمر- والاحتلال الفرنسي ثم دحر الفرنسيين لتنتهي عند مشارف القرن التاسع عشر، بقول السارد: «لقد حكمنا الأتراك باسم الدين (٣٠٠) سنة لم يفتحوا خلالها مدرسة، ولم يعبّدوا شارعًا، ولم ينهضوا بصناعة، أو تجارة، أو علم، أو أدب، أخضعونا لسلطانهم بدعوى أنهم حماتنا من الكفار، وقد عجزوا حتى عن هذه! (الرباعية، ص: ١٤٨).

الخلُّ الوفيّ (تعالج أحداث وتطورات الثلث الأول من القرن التاسع عشر): تدور أحداثها حتى بعد ثلاثين عامًا من خروج الفرنسيين (أي منذ بدايات الحكم المصري لبلاد الشام سنة ١٨٣١م). إذ تنتهي بدخول الجيش المصري إلى غزة، ومبايعة محمد علي باشا من خلال إبنه "إبراهيم" الذي استقبله الغزيون بالزغاريد وأقواس النصر (الرباعية، ص: ٣٩٣)، وقد طلبوا تأجيل قطاف الزيتون أسبوعًا حتى يتسنى لهم المشاركة في استقبال المصريين (ص: ٣٩٥). وتختتم بوفاة (جوهر) (ص: ٣٩٨)، الذي كان شابًا في العنقاء، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة في "واد الزيت" الذي كان قد اشتراه يونس في "العنقاء" (ص: ٤٧).

الغول (مطلع القرن العشرين): تدور أحداثها بين أواخر الحكم العثماني حتى احتلال الإنجليز لفلسطين. إذ بدأت الجمعيات تبث الروح القومية، والمطالبة بالحقوق العربية، وقد أنشئت بين الأعوام (١٩٠٩-١٩١٢)؛ بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد منها: المنتدى الأدبي في إسطنبول، والجمعية القحطانية في مصر، والجمعية الإصلاحية في بيروت ، وإيطاليا تغزو السواحل الليبية (١٩١١م)، كما يظهر في هذه الفترة "سعيد الشوا" رئيسًا لبلدية غزة –كان ذلك خلال الفترة ١٩٠٨م-١٩١٧م، ومنافسه خليل بسيسو (ص: ٤١٢-٤١٣)، ويحضر جمال باشا السفاح حاكمًا للشام سنة ١٩١٤م (ص: ٤٥١).

رابع المستحيل-خاتمة رباعية أرض كنعان: وتغطي فترة الاحتلال البريطاني (١٩١٧م)، حتى نكبة الشعب الفلسطيني ستة ١٩٤٨، وما تخللها من أحداث تتعلق بالثورات الفلسطينية المختلفة، والدور الذي قامت به الهيئة العربية العليا، والصراع الفكري بين الشيخ عز الدين القسام والحاج أمين الحسيني، وبيع بنت السرسق؛ العجوز اللبنانية الشمطاء مرج ابن عامر لليهود، الذي وصلها بموجب تيمار اشتراه جدّها من السلطان العثماني، وكان بمساحة (٤١,٠٠٠ دونم) يعتاش عليها ألف وخمسمائة عائلة، عبارة عن عشرات القرى ومئات العزب (الرباعية، ص: ٦١٩-٦٢٠، ٦٤٥-٦٥٠). وخليل الذي انشق عن الجيش العثماني في رواية الغول وانضم إلى الشريف الحسين بن علي، يستمع لخطبة للشيخ عز الدين القسام في غزة فينبهر به وينضم إلى ثورته (الرباعية، ص: ٦٢٠، ٦٥٠).

الرباعية- بين الحقيقة والإيهام بها:

ليست الرواية بحكاية، بل هي عالم متنوّع من الأفكار، والآراء، والشخصيات، والأحداث، تنتظم في إطار حكائي، وبعبارة أدق، مجموع من الأحداث ما وقع قطّ في أي وقت من الأوقات، غير أنّ من يقرأها، يتوهم أنها حدثتْ بحقّ وحقيق؛ فبالسرد يتولّى الروائي تنظيم العالم المبعثر من حوله بخطاب لغوي، يلجأ فيه إلى انتقاء الحبكة واصطناعها (nizwa.com)(١). وهذا ما ينطبق على الرباعية قيد النقاش.

إلا أن هذه الرباعية، بجميع رواياتها، إلى جانب استخدامه لأسماء وهمية ذات سيمائيات تخدم النص وتحقق الهدف الذي يرمي إليه الكاتب، جاءت مشبعة بالواقعية والحقائق؛ إذ استخدم فيها الكاتب عددًا كبيرًا من الأسماء الواقعية، للشخصيات وللأماكن والمدن، مثل: أحمد باشا الجزار، وظاهر العمر، ومحمد علي باشا، وإبراهيم باشا، والحاج سعيد الشوا، والشيخ محي الدين عبد الشافي... الخ(٢)، وأما الأماكن فقد جاءت بمسميات صريحة، مثل: عكا، ويافا، وحيفا، والقدس والعريش... الخ..

وأما بشأن بنائية الرواية، فإلى جانب استخدام الكاتب للأدوات اللغوية المتعددة من التصوير والاستعارات والكنايات والبلاغة والسخرية (المرّة) والنكتة، اجتمعت في هذه الرواية متعة السرد ومتعة الإيهام بالحقيقة، بخاصة تلك المتعلقة بأبطال الروايات وبشخصياتها. كما اجتمعت الأبعاد المعرفية والمعلوماتية التي أراد «السبعاوي» تمريرها بين ثنايا رباعياته هذه، وما يصفه منصف الوهايبي: «نبش» تاريخ فلسطين، وعالم

الفلسطينيين من أجل تحرير الفكر من الأوهام؛ سواء أكانت دينية أم أسطورية أم تاريخية. وقد استطعتُ أن ألتقط من بين سطور هذه الرباعية من المعلومات والبيانات والبيّنات ما يرفع مستوى ثقافتنا ومعرفتنا عن جذور قضيتنا، التي انتهت بـ «النكبة-الزلزال»:

ففي رواية العنقاء يمهد الكاتب بوصف رتابة الحياة وتكرار أحداثها اليومية في مجتمع فقير يتسلط على أفراده مجموعة أغنياء أو أقوياء بالسلاح والرجال، دون أن ينسى وصف جمال غزة وغناها بالخيرات (الزراعية) كـ «رائحة الياسمين تتضوّع من أبواب البيوت» (الرباعية، ص: ٤٥).

كما أن الكاتب لم يعقّم المجتمع الغزاوي، بل تضمنت السرديات أفعالًا مشينة لعلية القوم أحيانًا وللبسطاء أيحانًا أخرى، وقد وظّف شخصية مثل «خضرة» التي تركّز دورها في أن توصلنا إلى الوجوه الحقيقية للرجال المحيطين بها، الذين يخطبون ودّها عند الانفراد بها، ثم يطعنون بها في جلسات السمر الجماعية. وسالم الجاسوس لصالح نابليون الذي لم يمش في جنازته احد (الرباعية، ص: ٢٣١).

كما وصف اليهود، وما يتمتعون به من قدرات ماليّة ضخمة، وأدوارهم في المجتمع وخططهم المراوغة والضبابية المخادعة، التي تنتهي أدوارها إلى جانب الأعداء والغزاة.

وخصص مساحة مقتضبة للصراع بين أحمد باشا الجزار وظاهر العمر، وقد انتصر الأول على الثاني في معركة بمجد الكروم (الرباعية، ص: ١٧٢-١٧٣). ويذكر الحوار الداخلي بين اليهود، إذ أن منهم من كان يرفض إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، ويرى الارتباط بالغرب خيانة (الرباعية، ص: ١٧٥-١٨٠).

الأحداث التاريخية في رباعية أرض كنعان:

لقد تتبع الكاتب غزو نابليون لفلسطين سنة ١٧٩٩م، منذ بيانه الأول الذي يصف اليهود بورثة فلسطين الشرعيين، وكيف أن سارة (اليهودية) قامت على خدمة قادة جيش الغزاة والاحتفاء بهم (الرباعية، ص: ٢٠٩). ويصف قيامه بقتل ٤٠٠٠ أسير ساقهم من غزة إلى يافا (الرباعية، ص: ٢١٣)، إلى جانب ما اقترفه في يافا من مذبحة بشعة (الرباعية، ص: ٢١٦). وكانت قناعة نابليون بأنه بفتحه عكا يستلم مفاتيح الشرق (الرباعية، ص: ٢١٥). فهاجم عكا التي كان يحكمها الوالي العثماني ذو الأصول البوسنيّة أحمد باشا الجزار، وبعد (٦٣) يوماً من حصار المدينة التي عززها الجزار بكل ما يستطيع من إمدادات عثمانية، غادر نابليون المنطقة قائلاً: «عكا جعلتني أخسر قدري. ولو سقطت لغيرت وجه العالم»(٣).

وقد نجم عن هذه الغزوة الشريرة انتشار الطاعون في غزة (ص: ٢٣٣). إلا أن هناك من الفرنسيين من انضم إلى الجزار وقاتلوا ضد نابليون (ص: ٢٣٦). لم ينتصر نابليون في حصاره لعكا، وعبّر عن مرارة هزيمته بالقول: هاجمنا عكا على الطريقة التركية فردوا علينا بالطريقة الفرنسية (ص: ٢٣٧)، فانكسر الفرنسيون (ص: ٢٤٢). وانتهى القرن الثامن عشر وابتدأ القرن التاسع عشر بهزيمة نابليون، إلا أن حال الأمة في أدنى درجات المأساوية؛ عندما

كان «الفرنسيون في مصر والانجليز على سواحل الشام (ص: ٢٤٧، ٣١٦).

بعد هزيمة نابليون واندحاره يقول السارد على لسان إحدى شخصياته: هذه أرض العرب، لقد انتزعناها من أنياب بونابرته ولن نسلمها لأي طاغية (ص: ٢٤٨، ٣١٠). ويبين لنا السارد أنه في تلك الفترة (أوائل القرن التاسع عشر) كان اليهود هم اباطرة المال، في كل من: عكا، ودمشق، والقصر السلطاني، وكان أكبر صرافي إسطنبول يهوديًّا (ص: ٢٥٧).

تتسارع الأحداث، فينشط اليهود لتحقيق فلسفة اختراق أركان الدولة (ص: ٢٥٨)، وفي سنة ١٨١٥م يحكم ابناء روتشليد قبضتهم في ٥ عواصم أوروبية، ثم يتحالف اليهود مع محمد علي باشا ويسيطرون على الموقف، ويشترون ذمم عديد من المسؤولين، وبدأ بالحديث عن أرض الميعاد (ص: ٢٩٨ـــ٣٠١). أحمد باشا الجزار يزيد من فظائعه، فعقد الناس العزم على الدفاع عن مالهم وعيالهم (ص: ٣٦٨). فدقت طبول الحرب على عساكر الجزار (ص: ٣٧٧)، وكانت الحرب لتبدد الليل الذي خيم العمر كله (ص: ٣٨٣)، فسقط شهداء من التياهة والترابين والشجاعية وحارة الزيتون وحارة الدرج (ص: ٣٨٥)....

بعد ٣٠ سنة بعد اندحار الفرنسيين، من كان قد هزم نابليون يودع في السجن (ص: ٣١٣)، وفارحي اليهودي يمون على اخراج سجين من سجن عكا. وتنطلق ثورة شامية على الحاكم (ص: ٣١٨). ويدخل غزة جماعة من وادي غزة هم بدو التياهة والترابين (ص: ٣٢٤).

وأما أخبار القصر السلطاني، فإنها لا تريح البال؛ إذ أن السلطان محمود الثاني (يبصق) على الاتراك ويختار اليونان والأرمن لخدمته، لا يفض النزاع بين ولاته، ولكنه يسعّره، ويسلط والياً على الآخر، حتى إذا ضعف أحدهما باع السلطان وظيفته لوال جديد، يملأ خزانة الآستانة بالمال (ص: ٣٥٣، ٣٦٩).

سنة ١٨٣١م يدخل محمد علي باشا إلى غزة، وبرفقته: ابنه «إبراهيم»، وسليمان الفرنساوي مستشاره العسكري، والوزير شريف بك، وإمام الجيوش المصرية «رفاعة الطهطاوي». وهكذا تبدأ مرحلة محمد علي وفلسفته توحيد مصر والشام، في حين لن تسمح أوروبا بذلك كما يقول سليمان الفرنساوي (ص: ٣٥٠). محمد علي يتعمق ويدفع رواتب للقيادة المحلية (ص: ٣٩٠)، إبراهيم باشا يصل العريش، وغزة اصبحت مصرية (ص: ٣٩٣).

تتدحرج الأحداث وتتوالى، ويمر الزمن على الجانب العثماني، فيأتي جمال باشا (السفّاح) (١٨٧٣م-١٩٢٢م) حاكمًا في دمشق سنة ١٩١٤م (ص: ٤٤٦)، بعد مشاركته في الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني (سنة ١٩٠٨)، ينشر عيونه، ويتحدث عن العرب كإخوان للترك، قائلًا لهم: عضوا على عروبتكم بالنواجذ (ص: ٤٥٠-٤٥١)(٤). في حين أنه قام سنة ١٩١٥م بإعدام ثلاثة مثقفين من السوريين.

تنشب الحرب العالمية الأولى، فكان عسكر العثمانيين يعانون: الجوع ، والعطش، والمرض، مهمتهم حمل الذخائر، والوظيفة مقابل البراطيل (ص: ٤٥٤)، يكبسوا الدور وينهبوا الغلّة (ص: ٤٦٤)، أخذوا اولادنا عالحرب ونهبوا مالنا (ص: ٤٦٥). وانتشرت الدعوة البهائية التي يحتضنها الروس والانجليز وتوسطوا لدى السلطان (عبد الحميد)

فجعلها تستقر في عكا (ص: ٤٥٨)، فقاومها الناس بقوة (ص: ٤٥٩).

وعلى الجانب الاقتصادي والمعيشي، فقد وصل مستوى الفقر والفاقة والعوز لحد أن الناس يتوجهون إلى معسكرات الجيش العثماني من أجل جمع روث الدواب (الجلّة)، ليلتقطوا منه الشعير الذي لم ينهضم لغسله وتنشيفه في الشمس وطبخه وعجنه وخبزه (ص: ٤٧٥).

انسحب الاتراك نحو العريش، وأعلنوا عزل الشريف حسين عن الجزيرة العربية، وتعقبوا العرب المطالبين بالاستقلال، ونوري السعيد موفد الملك حسين بن علي. والقطارات لا تسير إلا نادراً لانعدام الوقود ولا تحمل الا كبار الضباط، الجنود يسيرون على الاقدام بين معان والمدينة المنورة (ص: ٥١٧). والجنود يسيرون على الاقدام للقضاء على ثورة الشريف الحسين بن علي والجنود العرب يخططون للالتحاق به وهم يعلمون أنهم ينضمون للانجليز (ص: ٥١٨ ـــ ٥١٩). جمال باشا يطلب من أهالي غزة الرحيل وإلا الحريق.. وسقطت خانيونس في يد الانجليز (ص: ٥٢٠). ويشرع الجنود الأتراك في قطع الاشجار (الزيتون) لتشغيل القطار. هذا الزيتون مر عليه الجميع ولم يقطعه إلا الاتراك (ص: ٥٢١).

شرع الناس في الرحيل (ص: ٥٢٢). امرأة تتساءل: هل خليل الذي التحق مع الشريف سيموت كافرًا ويدخل النار؟ (ص: ٥٢٥). وهناك ضباط عرب-عثمانيون ينضمون إلى الأمير فيصل بن الحسين بن علي (ص: ٥٢٦)، والاتراك لم يعودوا يثقوا بالعرب (ص: ٥٢٨). عودة ابو تايه يحارب الاتراك عن قناعة (ص: ٥٥٦). والعرب يعتقدون: جماعة الاتحاد والترقي استعبدونا وداسوا على كرامتنا (ص: ٥٢٩). الانجليز دخلوا القدس (ص: ٥٥٩). زالت دولة بني عثمان وصرنا في ذمة الانجليز (ص: ٥٤٠).

بدأت مرحلة الانجليز: اللنبي ومساعده (ديدز) العرب يدخلون المعادلة العسكرية مع الانجليز ضد الاتراك (ص: ٥٤٨ ـــ ٥٤٩). ولورنس اعطى العرب خارطة مغشوشة (ص: ٥٤٥). ووفد من الحركة الصهيونية يصل حاملاً رسالة من وزراء بريطانيا ثم تقدم الأرض لحفنه من المهووسين (عن اليهود يتحدث) (ص: ٥٥٠). واليهود يصلون لاستلام فلسطين (ص: ٥٥١). خمسة أعوام تمضي على سفربرلك وخليل يزيل صور جمال باشا (ص: ٥٧٢).

الانجليز خدعوا الشريف الحسين بن علي (ص: ٥٧٦)، وتتعمق قناعة العرب بخسَّة الانجليز (ص: ٥٨٩-٥٩٠)، والانجليز يعدمون العربي إذا كان لديه رصاصة.. أما اليهودي فلا تثبت عليه التهمة مهما كان الدليل واضحًا (ص: ٦١٧). ظهرت الهيئة العربية العليا، و العجوز اللبنانية سرسق تبيع مرج بن عامر الذي اشتراه جدّها من السلطان العثماني، ويضم عشرات القرى ومئات العزب وآلاف الفلاحين يباعون لليهود، والانجليز ينفذون الامر (ص: ٦١٩). الاضراب بدأت ملامحه في يافا بدعوة من الهيئة العربية العليا ص: ٦٢٤). يتساءل أحدهم: اليهود من سنين يتدربون والحاج أمين بدو يهزمهم بالمظاهرات والاضرابات؟! (ص: ٥٢٦).

يظهر عز الدين القسام وهناك رُسُل بينه وبين الحاج أمين. وحوار بين القسام والحسيني: الانجليز اعطوك رشوة أموال

الوقف الاسلامي كي تكبح جماح المظاهرات التي تنطلق ضدهم. والقسام يتهم الحسيني بمنع المال عن المجاهدين (ص: ٦٤٥-٦٤٦). والقسّام يعلنها: وضعت نفسي في خدمة امتي وملتي (ص: ٦٤٩). ونمر السعدي (قائد قسّامي): نحن نجود بأرواحنا والحاج أمين يبخل بالمال (ص: ٦٥٠). الانجليز يهاجمون غزة بحثًا عن السلاح (ص: ٦٧١)، وينجح الثوار في سرقة اسلحة الانجليز (ص: ٦٧٢)، وعشرة بنادق تصل إلى خليل في القطار القادم من حيفا (ص: ٦٨٩). تتم ملاحقة القسّام واستشهاده فحقق باستشهاده ما لم يحققه في حياته (ص: ٦٩٢). تشتد المعركة بين رجال القسام فشنق البريطانيون فرحان السعدي (٨٠ عامًا) (ص: ٧٧٤)، وثورة القسّام اشغلت فلسطين كلها بالثورة (ص: ٧٧٨).

بدأ الناس يتحدثون عن الامبراطورية القادمة (أميركا) (ص: ٧٠٠). وأعلنت يافا الاضراب (ص: ٧٠٣). وعن الكتاب الأبيض (وثيقة تشرشل ١٩٢٢م) الذي رفضه اليهود والعرب (ص: ٧٤٢)(٥).

تبع ذلك الحديث عن التقسيم (ص: ٧٢٥)، وبن غوريون؛ أول رئيس وزراء للدولة العبرية وكان بمثابة القائد الأعلى للقوات الصهيونية إبّان النكبة، يشتري الاسلحة ويقول: إذا كانت الحرب العالمية الأولى جاءت بوعد بلفور، فإن الحرب العالمية الثانية ستأتي بالدولة اليهودية (ص: ٧٤٣). وتقفز نسبة امتلاك اليهود للأرض من ٢٪ إلى ٦٪؛ أي أننا في أجواء النكبة (ص: ٧٤٤). وتظهر تحذيرات صهيونية للمفتي من التحالف مع هتلر (ص: ٧٤٥)، والشيخ موسى كاظم الحسيني يقود مظاهرة في يافا ضد الانجليز من كل مدن فلسطين ويسقط برصاص الانجليز (ص: ٧٦٥، ٧٦٧). والشيخ فريح أبو مدين يغادر اجتماعاً مع المندوب السامي وموسى العلمي يحاول ارجاعه ويقول: الانجليز خدعونا (ص: ٧٦٦). والوكالة اليهودية تفجر باخرة ركابها يهود رفضوا النزول في فلسطين بل التوجه إلى أميركا، واعلنت الوكالة أنهم انتحروا لأن بريطانيا رفضت نزولهم (ص: ٧٦٨). ويعود عبد القادر الحسيني من دمشق محبطًا، ويقول للعرب: إذا سقطت شهيدًا بسبب نفاد الذخائر فإن دمي في رقابهم إلى يوم القيامة (ص: ٧٧٢).

تبدأ عمليات النكبة: الحالة لا تطمّن؛ الجيوش العربية ستقف عند حدود التقسيم (ص: ٧٨٤)، والطائرات اليهودية تهاجم غزة (ص: ٧٩١)، وطائراتهم تطير أعلى من مستوى وصول القذائف (ص: ٧٩٥)، وغزة لم تسقط؛ إذ دافع عنها الجيش المصري ببسالة (ص: ٧٩٩).

الخاتمة

لقد تمتع السارد في هذه الرباعية بقدرة عالية على خلط الأحداث وبلورتها ودمجها، بالاطالة أحيانًا، وبالاختصار الشديد أحيانًا أخرى. فإذا أبدع في الإطالة وسرد التفاصيل المتتابعة وغير المملة، فإنه وصل ذروة الإبداع عند الاختصار، ووصف أحداث طويلة بعبارات مكثفة، ذات دلالات زمانية طويلة، وتتعدد الأمثلة على ذلك التي لا يتسع المجال لذكرها.

كما وجدتُ لدى السارد قدرة عالية على إدارة القلم وتحريكه في وصف الأحداث والمفاجآت التي لا يتوقعها

القارئ، كأبي توفيق الذي يتدرج به السارد من مشهد قراءة الفاتحة على روحه والترحم عليه، بعد وفاة زوجته بنحو شهر، إلى الصحو المفاجئ والعودة على روتينه اليومي، لحد التفكير في الزواج من فتاة يافعة.

فقد حرص على جعل القارئ يتجول في مجتمع تلك الفترة، ويتعرف على تفاصيل حياته، بشئ من المتعة وعدم الرتابة والملل، فنجده وقد خرج بعمل متعدد الأبعاد من ناحية الأجناس الأدبية؛ فقد انطوت السرديات على ملامح الملحمة، لما احتوته من أشعار مطولة ذات معنى وتستجيب للحالة النفسية والمعنوية لقائلها، كما أنها تحمل من المعاني والرمزيات والأمثال ما يعالج الموقف قيد النقاش بين الشخصيات. كما انطوت على ملامح لنصوص مسرحية تنمو فيها الأحداث وتتصاعد في سلسلة من المشاهد المترابطة والمتلاحقة، وتوفر عناصر المسرحية من حبكة وشخصيات ولغة (وهي أداة الممثل الكلامية؛ من أبيات شعر أو نصوص نثرية). ولا نجافي الحقيقة إن قلنا بأن جميع ما ورد في هذه السرديات قابل لأن يتحول إلى أعمال سينمائية بسهولة ويسر.

إن الملامح المذكورة أعلاه لا تشكل مساسًا بالعمق الروائي لهذه الرباعية، وإنما الطبيعة المرنة للرواية تستجيب لتلك الملامح دون أن تفقد نكهتها الروائية وما تتمتع به شخصياتٍ متعددةٍ، وأحداثٍ متنوعةٍ، وأما الخيال فيرى «السبعاوي» أنه لم يكن بحاجة إلى التخيل؛ إذ كان واقع الأمة أكثر مأساوية ورعبًا من كل ما يمكن تخيله (الرباعية، ص: ٣٠).

ولا يمكنني مغادرة هذه الرباعية قبل الإشارة إلى آخر ما قاله السارد فيها (ص: ٨٠١): الطريق طويل... والحمل ثقيل... والزاد قليل... لكن الهدف عظيم يستحق العناء والتضحية... اليس حب الوطن من الايمان؟

الهوامش:

(١) عن: مجلة نزوى. الموقع الالكتروني: https://www.nizwa.com/الإيهام-بصدق-المُحالات-السردية/ (retrieved at ٢٠٢١/١١/٨).

(٢) كان الشوا وعبد الشافي عضوان في جمعية الاتحاد والترقي. عن:

https://info.wafa.ps/persons.aspx?id=553 (retrieved at 52021/11/).

(٣) ولد أحمد باشا باسم أحمد البوشناقي في العام ١٧٣٤م في البوسنة، التابعة للسلطنة العثمانية آنذاك. كان مسيحيًا، فأعلن إسلامه، ثم بدأ حياته العسكرية متدرجاً تحت قيادة المماليك في مصر، إلى أن أصبح والي صيدا وعكا، حتى توفي في ٧ مايو/ أيار ١٨٠٤. نقلًا عن: https://arabicpost.net (retrieved at 1112021/6)

(٤) هو أحمد جمال باشا، والي بغداد العثماني وأحد زعماء جمعية الاتحاد والترقي الذي اشترك في ثورة عام ١٩٠٨ والتي أطاحت بحكم السلطان عبد الحميد الثاني، ثم شارك في الانقلاب العسكري العثماني ١٩١٣. وهناك من يعتقد بأنه كان عميلًا للإنجليز نفذ حالة احتقان وكره بين العرب والعثمانيين.

(٥) يؤكد فيها على التزام بلاده بوعد بلفور المقدم إلى اليهود بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، لكنه قال إن ذلك لا يعني تهويد فلسطين كلها، وأن من حق العرب أن يطمئنوا إلى أن ذلك الاستيطان لن يؤثر على وجودهم. عن:

/وثيقة_تشرشل_البيضاء" https://ar.wikipedia.org/wiki/وثيقة_تشرشل_البيضاء

مسرحية «لغم أرضي» للمخرج الفلسطيني جورج إبراهيم: دعوة لعيش الحياة قبل فواتها

تحسين يقين

تأثر المشهد المسرحي الفلسطيني بسبب جائحة كورونا، كون المسرح فنا جماهيريا، وبالرغم من ذلك، ومع ازدياد مساحات الحركة والتنقل، عاد المسرح ليستأنف دوره التنويري. سنكون في هذا المقال مع مسرحية إبداعية شكلا ومضمونا، تم إعدادها لتلائم فلسطين المحاصرة، محتفظة بأسئلتها الوجودية، ما يعني أن الفلسفة ليست وليدة حياة مستقرة فقط، بل يمكن أن تولد من رحم التوترات الإنسانية:

«هي: ما هي ذاتها أنا أو أنت.

هو: طيب والعمل!»

لعبة مسرحية مغلفة بالعبث والسخرية، لكنها توصلنا إلى «جد الجد»!

تغوص المسرحية فينا نفسيا واجتماعيا وسياسيا ودوليا بل ووجوديا، أو نغوص فيها، وفي نفس كل منا أكثر؛ فهي وإن تظهر علاقة الزوجين ببعضهما بعضا، فهي في منحى رمزي مغلّف بمسحة وجودية، إنما ترى هذا العالم، باتجاه تحرير الإنسان من سلطة التحكم، إلى سرور العيش نفسه، فلن يكون الزمن سخيا جدا، حتى ينتظر الإنسان ليجد وقتا للحياة، ووقتا لمن يحبه، حتى وإن نتف غسان شعيرات ذقنه البيضاء ليبدو أصغر كثيرا؛ فسيأتي وقت يرحل فيه الأحبة، حتى وإن كنا غير متقبلين لفكرة العيش بدونهم.

لذلك، لربما تستفز المسرحية المشاهدين ليكون لهم دور، عبر تأمل غسان وندى، وما الذي فعلاه وما الذي كان بإمكانهم فعله لو امتلكوا الإرادة كما ينبغي؟

إنها مسرحية «لغم أرضي» للمخرج الفلسطيني الكبير جورج إبراهيم، الذي قام بإعدادها عن نص الكاتب والفنان اللبناني المبدع إيلي كمال، من تمثيل الفنانة أميرة حبش والفنان غسان أشقر.

متى نخلص من هذا «التخبع»؟

حتى الكتابة هنا هي ضرب معايشة أرض الألغام؛ فلا نعرف من أين نبدأ، ولا أين ستكون الخطوة التالية!

فهل هناك لغم غير أرضي؟

منطقة ألغام، هي كذلك الحياة، في كل فضاء إنساني ممكن، حيث لا نعرف مكان اللغم، والغريب، أنه لا يحتاج سوى ل»ضغطة» بقدم إنسان أو حيوان، فمن منا لا يشعر أنه كأننا «نتخبع» لبعضنا بعضا، كما هو حال ندى وغسان، في المسرحية التي تشكل الألغام أحداثها، وليس فقط اسمها.

لا نستطيع بعد مشاهدة العرض، إلا أن يتعمق فعلا لدينا دور الفن والأدب، تقوية الاشتباك مع الحياة، ربما ليعزينا بأن هناك كثيرين مثلنا، بل يبدو أنه في هذه الدائرة، ليس هناك استثناءات. سنتفق هنا على ذلك بشكل متفاوت، ممن يرى أنه لا يمر منها وفيها إلا قليلا، إلى من يرى أنه ما زال أسيرها.

لكن الأهم هنا هو أيادي الفن الرحيمة، وإن قست قليلا، أو سخرت، فإنها تأخذنا الى آفاق رحبة من الحسّ الوجودي النبيل، بكسر قيود الدائرة، من خلال دفعنا لاستغلال زمن الحياة ليكون أجمل وأفضل قبل فوات الأوان.

بدأت به، وهو يجلس على مكعب مستطيل، داخل دائرة طبشورية، وانتهت به، فعل كان في تذكّر لما مضى من حياة كانت هنا؟ ثمة ما يوحي بذلك، كون السيدة لا تكون من البداية، بل تظهر كأنها تبعث من جديد، بكل هذه «الطزاجة» والحضور والحيوية والحياة الى آخر مدى!

سنكون مع تذكر لماض هنا، ربما سيكتشفه المشاهدون في آخر المسرحية، حين يبدو كمن يزورها في مرقدها الأخير.

كما سنكون معهما، وما يمكن استخلاصه من دلالات رمزية لديالوج الزوجين، هنا في هذه الدائرة المحاطة بالألغام؛ فبالرغم من الفضاء المادي-الفيزيقي هنا محدود، إلا أن ثمة ما يتداعى من دلالات خارج نطاق علاقة هو-هي، لتنتقل الى المحيط الاجتماعي والإنساني، لتضعنا بذكاء في المسرح المعاصر بسحرية، وواقعية معا.

وقد أمكن من البداية الانتباه إلى أن الألغام التي على الأرض، إنما هي رمز للألغام في الحديث؛ فكل

منهما «ندى» و»غسان»، «يتغبع» للآخر، فهو وما يملك من سيطرة ما، وهي بما تملك من سخرية، لا تخلو من شراسة في الوقت المناسب، باللجوء الى منطق يظهر ويخفى بشكل مراوغ، عبر أسئلتها الجدلية، في لعب من كليهما بالمنطق، الذي ظهر كمنطق رياضي أيضا حول الموجب السالب، أي بما يتعلق بالإثبات والنفي؛ فحين تؤكد «ندى» كلامها بتكرر نعم، فإن «غسان» يعدّ ذلك ضربا من التردد، من منطلق أن من يلجأ للتأكيد فإنما يكون كذلك: مترددا، فيستفزها، لنكتشف أنه المتردد أصلا لا هي؛ فقد أخذنا حوارهما، في ظل توتر وجود منطقة الألغام، كمنطقة تقيّد حركتهما، وتحول بينهما وبين تحرر التنقل، الى ترددِه في المبادرة بأي فعل حقيقي للانعتاق من الدائرة، مكتفيا باقتراحات، تأتي من باب تفريغ الطاقة كلاميا لا فعليا، حتى عندما يبدو أنه يفكر علميا، ليضع وزنا ثابتا ما فوق اللغم مثلا، حتى لا ينفجر، فإن الاقتراح يصبح فارغا من مضمونه، لأن الحجارة تقع ضمن حقل الألغام، وهكذا يقضي الوقت بتضييع الوقت دون الإقدام فعلا على فعل تحرري مقنع.

وهو دأبه نفسه، بالمنطق نفسه، يستمر معلقا على تفاصيل حياتهما قبل الوقوع في هذه الدائرة، متجها الى التشكيك، فيكتشف ونحن معه أن حاضره استمرار لماضيه، وأنه لا يبدو أنه سيتغير، حتى يفاجأ بالغياب الحقيقي: غياب الأب، يتلوه غياب ندى.

حياة الزوجين اليومية بما فيها من توتر ونزق وعصبية في ظل النزاعات والحصار، أكانت لزوجين من لبنان وفقا لنص إيلي كمال، أو لزوجين آخرين من فلسطين، وفقا لإعداد المخرج جورج إبراهيم، فإن المسرحية أغنتنا في تأملنا الحياة الزوجية كجزء من الواقع الاجتماعي، كما هو الواقع الظاهري لها، والإيحاء عن مشاعر الشوق والشغف والشك والأنانية، حيث بذرت بذورا فكرية هنا، فيما يخص المرأة، والتي تخص ربما المرأة في عقدي الثلاثينيات والاربعينيات من عمرها، حيث ترفض «ندى»، (والنساء)، بأن تكون المرأة هنا «فشة خلق» للذكر المتعرض لأي أزمة وضغط من الحياة، فرغم «تحملها» في الماضي، إلا أنها لم تعد تجد مبررا لذلك، ولا بد أن يبدأ التغيير، حتى لا يظل «غسان» والرجال ساخرين من ذهاب النساء بالجملة للحمام، كفضاء خاص وحيد للبوح والفضفضة. وسيكون التغيير بكسر الصور النمطية للمرأة في الحية والتراث (قصة الأمير) حيث تسخر «ندى» من صورة المرأة في القصة التي جعلتها جارية.

وعزفا على ذات اللحن، نسمع حوارهما فما يتعلق بالحرية ونظام الحكم، ومبررات العقلانية والتروي، والشك بالانتخابات، في ظل استفزازها له وسخريتها منه، حيث يكون هو أسير نظرة نمطية تخوّن المعارضة، وأسيرة الشعور بالوصاية على البلد وسمعتها.

وقد اكتسبت المسرحية البعد الفلسطيني، من خلال إعداد المخرج لها، بما يناسب حالة الحصار التي يعيشها الشعب الفلسطيني، حيث يرمز وجود الزوجين في هذا الحيّز المحدود، الى وجود شعب أريد له السجن.

الرؤية الإخراجية

عمّق اختيار أسلوب التذكر، واستدعاء الماضي، تأمل «غسان»، ونحن معه في الحياة الزوجية والحياة بشكل عام، باتجاه التقاط المعنى، والرسالة، لممارسة الحياة نفسها قبل فوات الأوان. وهكذا تظهر «ندى» في المسرحية بعد ظهور «غسان»، كأنها تأتي من الذاكرة، لتختفي في النهاية خلف (المقعد-الصندوق)، كرمز لرحيلها، وترك «غسان» زوجها وحيدا مع الأولاد.

لاءم الإخراج النص فعلا؛ فمن خلال اختيار فضاء الدائرة، ووجودهما على/ وحول المقعد (المكعب-متوازي المستطيلات) المستطيل، فقد مكّن هذا الإطار من منح الحوار-الجدل-التنازع، مدى كافيا لإيصال الفكرة في قضايا الحياة والمجتمع والحكم.

وفّر اختيار اللهجة الفلسطينية دون تعقيد، (تماما مثل اللهجة اللبنانية في النص الأصلي) فرصة لتأمل المضمون الفكري بعيدا عن أي تعقيد لغوي، في حين عرّضت المسرحية باللغة الكلاسيكية التي تعبّر عن الحياة التقليدية، بما فيها من تنميط وتحديد، حيث يستخدم نظام الحكم المستبد تلك اللغة لإضفاء الهيبة عليه والوقار.

وهنا ثمة إشارة إيحائية بطريق غير مباشر لتأمل الحالة الفكرية والثقافية، ووظيفة الكلمة، والفن والأدب بشكل عام، باتجاه التغيير وليس فقط للقيمة الجمالية وتمضية الوقت.

لقد أعدّ المخرج جورج إبراهيم النص إبداعيا، وأخرجه بحيوية معتمدا على طاقة الفنانة أميرة حبش والفنان غسان أشقر اللذين كانا رافعتين من روافع العرض، بما أديا من عرض مقنع، واقعيا ورمزا، موظفين الفضاء الدائري، وتطور الحوار في منطقة الجلوس والحياة، والتي إن لم نستغلها، فسنمضي وتصير قبورا. وهذا ما اختتمت به المسرحية.

كما كانت الحركة النزقة السريعة، أيضا عاملا في شدّ توتر المشاهد طول العرض الذي اعتمد الحوار بشكل أساسي، والحركة المتوترة، مدعومة برقصات، قامت بالتدريب عليها تمارا حبش.

خففت الكوميديا من جهة، والسخرية اللاذعة من جهة أخرى على العرض ثقل الحوار الفكري، وتوتر الثنائي في الدائرة. كما مثّل مزاوجة «ندى وغسان» لعبارة «بدك شوكالاتة»، على بعض الأمل،

رغم الخلاف، فسيظل للحنان مكان.

يظل «غسان» بين الحين والآخر ينتف الشعيرات البيضاء، في حين تكره «ندى ذلك، هو لإطالة العمر لأجل البقاء، وهي لأنها تريده أن يفهم مغزى الحياة قبل فوات الأوان.

كما قلنا، سنكتشف أن الأحداث هذه استدعاها غسان من خلال التذكار، حيث يفاجأ المشاهدون بتحول المقعد الى قبر بشاهد، يزوره غسان ويحاوره. وقد لعبت الإضاءة التي صممها الفنان فراس أبو صباح بشكل خاص هنا دورا في تركيز العين على هذه الجزئية، كما كان لها طوال العرض دور في إدخال المشاهد ضمن هذا الإطار المحدد، في الوقت الذي منحت المشاهد فضاء واسعا للتأمل.

وقد مثلت فانتازيا حوار غسان مع ندى عند القبر في آخر العرض، وهي تطمئن بعد موتها على أولادها، استمرارا لشخصيتها في الحياة، وأن هذا الوعي قد جاء بعد صدمة الموت الذي غيبها، والذي غيّب اباه أيضا، حيث لم يقدرا معنى الحياة والتواصل إلا بعد فوات الأوان. حيث يقول « اخر مرة شفت ابي كانت اول مرة نحكي».

ويستذكر قول الأب: «الاب سلم ع ندى وبوس لي هالعكروت»، بما يشير ذلك إلى اكتشاف الأب جدوى الحياة، كأنه يوصيه بالتواصل مع ابنه.

لقد كان غسان خلال التواجد في الدائرة محاصرا بين خشية الانفجار، والخوف من ندم البقاء، كونه كان يميل ما يسمى في علم النفس ب «منطقة الأمان».

«هي: ما هي ذاتها أنا أو أنت.

هو: طيب والعمل!»

لربما تشكّل المسرحية إجابة عن مغزى الحضارة والوجود، ولعل فلسطين مكان المخرج ولبنان مكان الكاتب، بما فيهما ما فيهما، يدفعان الإنسان للحياة.

لم يدرك «غسان»، وما يرمز له، عمق تمني «ندى»، حين قالت إنها تتمنى لو رحلت أن تصير شجرة!، حيث سخر لأن الشجر يصير ورقا، ولا أحد سيقرأ. الآن لعله هو يتمنى لو يصير شجرة.

من تأمل علاقة هو-هي، الزوجين، المحبين، وما يكتنف تلك العلاقة من شدّ وجذب، وما يحدث ذلك من اقتراب أو ابتعاد، إلى النظرة الرمزية لأي عيش ممكن لأفراد وجماعات، يخرج المشاهد من العرض وقد راح يحدّث نفسه، بأنه لا بدّ أن يمتلك إرادة الحب وتجلياتها واشتراطاتها، فليس الوقت طويلا لينفقه في الجدل.

تستحق مسرحية «لغم أرضي» أنها حازت على كامل جوائز مهرجان المسرح العربي في عكا

«مسرحيد»، عبر فوزها بجائزة أفضل عمل مسرحي متكامل، وأفضل ممثلة لأميرة حبش، وأفضل ممثل لغسان أشقر، وأفضل مخرج لجورج إبراهيم.

والعرض الفلسطيني هو النسخة الثانية مسرحيا، الذي رأى النور في عكا ورام الله، أما النسخة اللبنانية فقد أخرجها كاتب النص ايلي كمال، وكانت من تمثيل عمار شلق وندى ابو فرحات، وقد رأت النور على مسرح المدينة في بيروت، قبل ٣ سنوات.

فصل من رواية «ساعات الأسر»

محمود الورداني

ارتفع صوت التليفزيون من حجرة النوم، ووصلني عاليا وأنا بعيد في حجرة المكتب. فكّرت في أن أطلب منها أن تُخفض الصوت، ونهضتُ بالفعل لأذهب إليها، ثم عدلت، فتجنبها أفضل حل. خُيّل لي عندما عادت من الساحل أنها تنوي خيرا، لكنني لم أستطع أن أجاريها أو أتحملها. حاولتُ فعلا، إلا أنني شعرت أن هناك قدرا من المبالغة المصطنعة، خصوصا عندما شرعتْ في المناوشات التي كانت ربما مؤثرة في الزمان البعيد.

كل ما أتمناه أن تتركني لحالي، وأنا أتعهد بأن أتركها لحالها. سأعاملها حتى بمودة ولُطف. طبعا هناك في قرارة نفسها اطمئنان للأحوال.. فلامجال لأي كلام عن نجوى مثلا. هي مطمئنة تماما أنه لانجوى في الوقت الحالي، ولاغير نجوى أيضا. فأنا لاأنتقل خطوة واحدة بلا حراسة. أكثر من هذا.. قلت لنفسي.. لامانع من المحاولة، وإذا نجحت فسوف تأمن شرّها وتحرشاتها لبعض الوقت.

قلتُ لنفسي أيضا: أنت لاتواجه فقدان نجوى وضنى بُعدها فقط، بل تواجه أيضا التحدي والجهاد الأكبر ممثلا في بناء الوطن، والخروج من تهديدك بالاغتيال بأكبر مكاسب ممكنة، بعد أن أصبحت أنت نفسك في عُهدة القيادة العامة، وفُتح الطريق أمامك لرئاسة مجلس إدارة مؤسسة بناء الوطن ولا أقل. أنا لاأرضى بأقل من هذا. وبمجرد تسنمى لهذا المقعد العالي، بوصفي في عُهدة وحمى القيادة العامة معناه أنني أصبحت قاب قوسين من عضوية لجنة القيادة العامة ذاتها، وهو سدرة المنتهى والمقام العالي ونهاية الطريق في دولة الاصطفاف. هل من الوارد أن يحدث هذا؟ عضوية لجنة القيادة العامة؟ أي خيال هذا؟ لكنه ليس خيالا فقط ياسالم وليس مجرد أمنية.. أنت قريب ياسالم .. قريب جدا.

أما أحلام فقد حاولت معها بالفعل، ولم أتمكن..

كنتُ قد فتحت زجاجة نبيذ أبيض، ورحت أرتشف من الكأس على مَهَل، وأضفت إلى هذا التهيؤ فيلما حلوا، اختلست الفُرجة عليه وحدي على اللاب توب، بينما كانت هي في حجرتنا تحتسي الويسكي وتتهيّأ في انتظاري، مثل أفلام الأبيض والأسود، ووفق نظرات تواطؤ مشتركة كنا قد تبادلناها في الصباح، ولا أعرف كيف سمحت لنفسي بها، بل أنها استوقفتني للمرة الأولى ربما منذ سنوات، قبل نزولي واطمأنت على مظهري وسوّت من ملابسي كما كانت تفعل في الزمن الذي ولّى. وبعد هزيمتي المخزية ونحن مانزال عاريين، كنت أنتظر أن تهمس لي بكلمتين تطيّب خاطري بهما، لكنها لم تنطق بكلمة واحدة، وأعطتني ظهرها وهي تتأفف، فاضطررت أنا للاعتذار بسبب الظروف الحالية وانشغال البال وما إلى ذلك، لكنها واصلت تأففها، وهي تعطيني ظهرها.

عدتُ إلى المكتب. أكملت زجاجة النبيذ ودار رأسي قليلا. فتحت اللاب توب وتفرّجت على فيلم آخر أحلى من الأول، ولشدّ ماتعجبت عندما شعرت بانتصابي، ثم داخلني ارتياح واطمئنان استسلمت له. العيب والعطب ليس من عندي. عليّ إذن حتى آمن شرها الذي بانت بوادره أن أستعين بنصف قرص فياجرا في المرة القادمة أو حتى بقرص كامل.

لم أدر بنفسي إلا وقد تقطعت أنفاسي وأنا أجري بكل ما أملك من عافية. كان هناك ذئب منفرد ورائي في الشارع الخالي. ألم يكن هذا تحديدا ما بحّ صوتي بالتحذير منه؟ يأولاد الكلب يازبالة.. ألم أكتب افتتاحية تلو افتتاحية أحذر من استخدام التنظيم لهذا الأسلوب في بلادنا؟ ألم يهددني التنظيم بالقتل؟ هذه هي النهاية إذن.. لكن عليَّ أن أقاوم مع ذلك. سأضاعف من سرعتي وأصيح بأعلى صوتي: إلحقني ياسيادة الرائد أيمن.. إلحقني ياسيادة النقيب سمير..

استعدتُ قدرا يسيرا من الاطمئنان عندما بدأت أرى ناسا في الشارع. هذا شارع الجلاء.أنا قريب إذن، وعليَّ أن أتماسك فأنا على وشك النجاة. بعد قليل سأعثر على مبنى المؤسسة، لكن ما أثار ريبتي الناس الذي يمشون على جانبي الشارع. كانوا يمشون ببطء شديد. كانوا لايتكلمون، بل ولايتبادلون النظر. كانوا منفردين أيضا مثل الذئاب يتقاطرون، لكنهم صامتين خائفين.. فهل يخفون وراءهم ذئاباً فعلا؟. جرّبت أن أعاود الركض باحثا عن مبنى المؤسسة، فهؤلاء الصامتون يجب الابتعاد عنهم. ومأأدراني ربما كان الذئب المنفرد الذي لاحظته ورائي منذ قليل يكمن عند هذه الناصية القريبة مني. عبرتُ في الاتجاه الآخر بعيدا عن الناصية. بعد قليل تقطعت أنفاسي مرة أخرى، ولم يلفت ركضي نظر السائرين على جانبي الشارع. تجاهلوني تماما كأنهم لايروني.

لم أستطع أن أواصل ركضي فقد أوشكت على الاختناق. في هذا الشارع كما أتذكر جيدا ثلاثة مبان

وليس مبنى واحدا للمؤسسة، إلى جانب مكان خاص للحملة حيث سيارات المؤسسة، ومبنى خاص من طابق واحد للمخازن والتوزيع ..أتذكر كل هذا جيدا، فقد أمضيتُ عمري هنا أشاهد خوازيق الأسمنت وغابات الحديد وهي تختلط وتنضغط و تنتصب، وسرعان ماتخرج منها الصحف والمجلات وسلاسل الكتب وأكداس من المطبوعات. حتى الآن لم أتوصل لأيٍ مبنى منها. ربما أنني أسير في شارع آخر، فالشوارع هنا منذ التحديث باتت متشابهة. لطالما كتبتُ عرائض مدح أشيد فيها بالوزراء والمسؤولين عن تغيير المنطقة بالكامل، حيث قاموا بهدمها وزرع مراكز وأبراج وغابات من المباني المختلفة حتى شاطئ النيل.. وها أنا أتلقى جزائي على تدليسي وأمشي تائها على غير هدى.. لم أعثر حتى الآن على أي أثر، لا المؤسسة لاحت معالمها ولاالرائد أيمن أو النقيب سمير، بالرغم من أنني لاأطيق الأخير .. بصراحة ولا الأول..

عبرتُ الشارع مرة أخرى، وشعرتُ قبل أن أصل إلى الرصيف المواجه أن هناك من يتابعني.. شممتُ رائحته العضوية الزفرة، وتلّبسني الرعب وأنا أطلق ساقي للريح، وهو يقفز خلفي، ومالبثت أن أحسست بالعقرة على باطن ساقي اليسرى.. نار تندلع وأنا أشعر بأنياب تنفذ في لحمي. تحاملتُ على نفسي وأمكنني الوقوف مرة ثانية. كان الذئب قد اختفى.. تضاعف الخوف ووجدتني مرعوبا أكثر وأكثر. ماأدراني أنه ذئب وحيد منفرد، ربما هناك ذئاب أخرى كامنة سوف تهاجمني وتمزقني.. ياأولاد الكلب يازبالة .. لطالما نبّهتُ ورفعت عقيرتي بالصياح مشددا ومحذرا: الذئاب المنفردة سوف تنتقل إلى هنا .. هذا ماكتبته بكل وضوح. وهاهي الذئاب قد جاءت فعلا. عاودت الركض. وصلتُ آخر الأمر إلى مابدا أنه بوابة المؤسسة أعرج على ساقي المعقورة، ورفعتُ صوتي أجأر بالصراخ مناديا على الرائد أيمن، فقطيع الذئاب اقتربت طلائعه من بعيد..كان البهو خاليا ومكتب الاستقبال خاليا أيضا. أين الموظفون وطواقم الحراسة وأفراد الأمن الذين كانوا يقفون حريصين على إبراز أسلحتهم المعلّقة على خواصرهم أسفل ستراتهم؟ لم يكن أمامي إلا أن أقطع السلالم عدواً وأنا أطلع، لأكون بمنجى من قطيع الذئاب. عبرتُ بجوار الركن الذي مايزال يحتفظ بصور المؤسسين، لكنهم كانوا مجرد بقع معتمة في الضؤ القليل، واستلمت الدرج الجانبي الصاعد الضيق. أخشى ما أخشاه أن يتمكن قطيع الذئاب مني في هذا المكان المحصور. ضاعفتُ من سرعتي مرعوبا من أن يتمكنوا مني.عليَّ أن أضاعفها أكثر وأكثر لأصل إلى الطابق السحري وأكون في حِمى الرائد أيمن والنقيب سمير.عليَّ أيضا أن أحتمل ألم العقرة وأكتم صرخاتي التي توشك أن تغادرني، فقد كان السلم ضيقا ومظلما وخُيّل لي أنني اشم رائحة غريبة. رائحة زفرة قوية وخانقة هي رائحة الذئاب بلاشك. رحتُ أصعد وأصعد محتملا الخبطات التي أتلقاها من الحائطين على يميني ويساري، لكنني أواصل الصعود. ولشدّ ما ابهجني أنني احسست بضؤ ما. صحيح أنه ضؤ

خفيف لكنه ملحوظ، فتضاعفت همّتي. أخيرا هاهو المدخل الذي يقودني إلى مكاتب أمن اللجنة في الطابق السحري، وعبرت المدخل، وسرت قليلا في الممرواشتد الضوء أكثر. مرة أخرى كانت الحجرات والقاعات تمتد على يميني مضيئة. هاهي الكافيتريا التي سبق أن دعاني إليها في مطلع الشباب أحد قدامى المحررين، ورأيتُ للمرة الأولى نجوما مثل نعم الباز وأحمد زين وعبد العاطي حامد ومها عبد الفتاح وسعيد سنبل. كانوا جالسين أو واقفين وقد مرّت عليهم السنين وهم في وقفتهم تلك. كانوا قد توقفواعن الحديث واكتفوا بالوقوف صامتين وربما عاجزين عن الحركة. بعد الكافيتريا كان صالون الحلاقة، والحلاق واقف وقد انحنى قليلا على رأس رجل آخر يجلس قدامه على مقعد ضخم. بعد ذلك، مثلما حدث لي في مرات سابقة، رأيت المطعم، والزبائن يبدون جالسين وجالسات إلى موائدهم عبر الحاجز الزجاجي، لكنهم توقفوا لسبب ما عن الحركة أثناء ماكانوا يتناولون طعامهم. واصلتُ طريقي خائفا، بل مرعوبا وانا أتذكر أنني مررت بكل هذا من قبل. هاهي لافتة جمعية الحج والعمرة معلّقة على إحدى القاعات، وبعدها لافتة النقابة العمالية للعاملين عل القاعة التالية..تهاويت فجأة ولم أعد أشعر بشئ..لكنني استعدتُ نفسي بعدهذا. كان الألم فظيعا. كانت ساقي المعقورة تنزّ من الألم . كنتُ أريد أن أصرخ ولا أستطيع. تذكرتُ فجأة الحكيم برسوم المجبراتي في جزيرة بدران بعد مزلقان النجيلي. هو الوحيد الذي يملك الحل ويستطيع أن يعالجني مثلما عالجني وأنا طفل. صنع جبيرة لساقي التي كُسرت في موقعة القطة.. ترددتُ عليه أنا وأمي وأعرف مكانه جيدا في جزيرة بدران.. هل أهبط الآن، وأدوس على ساقي ، وأتخذ طريقي إليه في جزيرة بدران؟

أوراق المؤسسة

فعاليات متنوعة ومشاركة واسعة في إحياء الذكرى السابعة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس في فلسطين والخارج

تميز إحياء ذكرى استشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات هذه السنة باهتمام واسع وتنوع كبير وانتشار في الفعاليات لم نشهد له مثيلا منذ الذكرى العاشرة لاستشهاده. وعلاوة على الفعاليات التي تنظمها المؤسسة، فقد ساهمت المؤسسة في الفعاليات التي شهدتها ربوع الوطن وفي الخارج، من خلال الدعم المباشر والرعاية والتزويد بالملصقات والمواد الإعلامية ومعارض الصور واللوحات والأفلام الوثائقية والصور الأرشيفية.

وفيما يلي تقرير موجز عن أبرزها:

مؤسسة ياسر عرفات

اختارت المؤسسة عبارة :»بالثبات الملحمي في المكان والزمان» التي قرأها أبو عمار في وثيقة إعلان الاستقلال شعارا للملصق الرئيس وللنشاطات الخاصة بالذكرى السابعة عشرة، وتم توزيع الملصقات في انحاء الوطن والخارج، وتم نشر لوحات إعلامية ضخمة في قلنديا- القدس وبيت لحم ورام الله وغزة، ونظمت مؤسسة ياسر عرفات الحفل الثقافي الرئيسي لإحياء الذكرى السابعة عشرة لاستشهاد ياسر عرفات في قصر رام الله الثقافي، مساء يوم الأربعاء ١٠/١١/٢٠٢١، بحضور رسمي ودبلوماسي وشعبي، وتم الإعلان عن الحائز على جائزة ياسر عرفات للإنجاز للعام ٢٠٢١ وهي: فعاليات المقاومة

الشعبية: بيتا أنموذجا.

وتضمن الحفل خطابا للرئيس محمود عباس رئيس دولة فلسطين الرئيس الفخري للمؤسسة، وكلمة هامة ومؤثرة لرئيس مجلس أمناء المؤسسة الدكتور ممدوح العبادي الذي حضر خصيصا من عمان للمشاركة في إحياء الذكرى.وعرض فيلم وثائقي عن المقاومة الشعبية في فلسطين من انتاج المؤسسة، وتقديم أغاني وطنية ملتزمة برعاية المؤسسة، قدمتها الفنانة الفلسطينية نورا أبو ماضي برفقة الموسيقار خالد عرامين ومجموعة من الفنانين.

وعرض في بهو قصر رام الله الثقافي معرض «صور من المقاومة الشعبية»، لخمسة مصورين فلسطينيين عن المقاومة الشعبية في فلسطين.

ونظمت مؤسسة ياسر عرفات الخميس ١١/١١/٢٠٢١ فعالية وضع أكاليل الزهور على ضريح الرئيس المؤسس الشهيد ياسر عرفات، في الذكرى السابعة عشرة لاستشهاده.

وقام الرئيس محمود عباس بوضع الإكليل الأول على ضريح الرئيس الشهيد ياسر عرفات، وقرأ الفاتحة على روحه، فيما عزفت الموسيقى العسكرية سلام الشهيد « لحن الرجوع الأخير».

وبعد مغادرة الرئيس، تقدم رئيس الوزراء د. محمد اشتية وعدد من الوزراء نحو الضريح حيث وضعوا إكليلا من الزهور وقرأوا الفاتحة. ثم وضع عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية إكليلا باسم منظمة التحرير ، كما قام عدد من أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح بوضع إكليل من الزهورباسم الحركة.

ثم سار د. ممدوح العبادي رئيس مجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات وعدد من أعضاء مجلس الأمناء وإدارة المؤسسة نحو الضريح حيث وضعوا إكليلا من الزهور باسم المؤسسة وقرأوا الفاتحة على روحه.

ثم وضع سفراء وممثلو سبع دول من أميركا الجنوبية أكاليل من الزهور بأسماء دولهم.

وبعد ذلك توافدت اعداد كبيرة من الموطنين لقراءة الفاتحة على روحه ووضع الأكاليل عند ضريحه في ذكرى استشهاده.

غزة

وفي غزة أحيت الجماهير الذكرى بعدة فعاليات تؤكد السير على خطاه.

وأحيت المؤسسة الذكرى، في منزل الزعيم الراحل أبو عمار، وقامت وفود من الفصائل والقوى الوطنية والإسلامية ورؤساء الجامعات والمحافظين والشخصيات الوطنية ورجال الأعمال والهيئة القيادية لحركة فتح بزيارة لمقر المؤسسة في غزة، وتم إضاءة الشموع من قبل أشبال وزهرات فلسطين وألقيت عدة قصائد شعرية وطنية عن الشهيد ياسر عرفات.

وتوافد المئات من المواطنين من طلبة جامعات ومدارس وممثلي القوى والفصائل ومؤسسات المجتمع المدني والأهلي ومن مختلف شرائح المجتمع، إلى منزل الرئيس أبو عمار، غرب مدينة غزة.

وألقيت داخل منزل الرئيس الراحل العديد من الكلمات، التي تستذكر عطاء أبو عمار وإنسانيته وحرصه على وحدة شعبنا، في وجه الاحتلال وكل المؤامرات التي تحاك ضد قضيته العادلة.

وزين منزل الزعيم الراحل أبو عمار الذي يحتوي مقتنياته الشخصية، بالكوفية وخارطة فلسطين التاريخية وأعلام فلسطين.

وفي مكتب المؤسسة بالقاهرة، نظمت المؤسسة احتفالا لإحياء الذكرى بحضور عدد من الشخصيات الاعتبارية، بينهم د. بركات الفرا، وأشرف عقل، وعلي جوهر رئيس الجالية الفلسطينية، ود. محمد أبو سمرة، واتحاد المرأة الفلسطينية وأعضاء اقليم حركة فتح.

وقرأ المجتمعون الفاتحة على روح الشهيد القائد وأرواح شهداء فلسطين والأمة العربية،

وتحدث اللواء عرابي كلوب مدير مكتب المؤسسة في القاهرة مؤكدا على مواصلة نهج القائد الشهيد ياسر عرفات بالسعي لوحدة الشعب ووحدة الهوية الوطنية، والتمسك بالثوابت الوطنية.

رام الله والبيرة

وأحيت جماهير غفيرة من أبناء شعبنا في محافظة رام الله والبيرة، الذكرى السابعة عشرة لاستشهاد الرئيس ياسر عرفات.

وانطلقت مسيرة حاشدة من أمام مدرسة ذكور رام الله الثانوية، جابت شوارع المدينة، وصولا إلى ضريح الشهيد ياسر عرفات.

بيت لحم

شهدت مختلف مدارس محافظة بيت لحم إلقاء كلمات خلال الطابور المدرسي الصباحي، استذكرت القائد الخالد أبا عمار، كما خصصت الحصة الأولى للحديث عن سيرته، إضافة إلى إقامة عدد من الفعاليات كما جرى في مدرسة الإخاء الإسلامية وروضة الأرقم بتنظيم من لجنة الزكاة المركزية.

وشارك طلبة مدرسة ذكور تقوع في مسيرة حاشدة في ذكرى استشهاد أبو عمار، كما نظمت حملة تبرع بالدم في مستشفى بيت جالا الحكومي من قبل حركة الشبيبة الطلابية ومجلس اتحاد الطلبة في جامعة القدس المفتوحة، إضافة إلى عمل تطوعي في مستشفى فلسطين العسكري.

الخليل

نظمت مسيرة طلابية لمناسبة الذكرى السابعة عشرة لاستشهاد الرئيس ياسر عرفات جابت شوارح المدينة، وكانت الإذاعة المدرسية في مدارس المحافظة قد خُصصت

للحديث عن حياة الشهيد ياسر عرفات ونضاله، ورفع خلالها الطلاب الأعلام الفلسطينية، وتوشحوا بالكوفية.

كما أحيت جماهير غفيرة وإقليم حركة فتح جنوب الخليل، ذكرى استشهاد الرئيس ياسر عرفات، في مدرسة اشبيلية الثانوية ومدارس بلدة الظاهرية جنوب الخليل.

وشارك في الفعالية عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح» عباس زكي، وممثلون عن بلدية الظاهرية ومديرية تربية الجنوب، ومدراء المؤسسات الأمنية والمدنية.

الأغوار

افتتحت مدرسة كردلة الأساسية المختلطة، معرض «مسيرة قائد وصمود»، ويضم صورا لمحطات نضالية من حياة الرئيس عرفات، وتنقله بين الدول العربية، حتى استشهاده، ولقطات من جنازته.

المعرض يبرز الفكر الذي حمله الشهيد ياسر عرفات، وصفاته الفذة في قيادة الشعب الفلسطيني، مؤكدا أنه كان سياسيا حازما ومحنكا، وهو مفجر الثورة.

نابلس

وأحيت مدارس محافظة نابلس، الذكرى من خلال عدة فعاليات بالطابور الصباحي والإذاعة المدرسية، تحدثت فيها عن مسيرة الشهيد القائد ونضاله، ودوره في الكفاح الوطني، فيما نظمت عدة مدارس نشاطات تراثية وشعبية، ومباريات رياضية.

في بلدة بيت فوريك شرق المحافظة، أحيت مديرية التربية والتعليم في نابلس الذكرى، في مدرسة بيت فوريك الثانوية، بحضور أعضاء من المجلس الثوري لحركة فتح والاقليم، ومؤسسات وفعاليات المحافظة.

قلقيلية

أحيت فعاليات محافظة قلقيلية، الذكرى السابعة عشرة لاستشهاد الرئيس ياسر عرفات، وذلك في مهرجان أقيم بمدرسة قرية عزون عتمة جنوب قلقيلية.

وألقيت العديد من الكلمات أكدت على أن الشعب الفلسطيني سيبقى محافظا على الثوابت الوطنية والنهج الذي سار عليه القائد الرمز ياسر عرفات، ذلك النهج يسير نحو تحرير الأرض من غطرسة الاحتلال وممارساته الهمجية الهادفة الى تهجير أهلها.

وشمل المهرجان فقرات فنية متنوعة، إضافة الى افتتاح معرض للصور في المدرسة يسرد قصة حياة ياسر عرفات.

سلفيت

دشنت حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح»، وبلدية سلفيت، يوم الخميس ٢٠٢١/١١/١١، ميدان الشهيد ياسر عرفات «أبو عمار»، في ذكرى استشهاده.

وتم وضع حجر الأساس لميدان الشهيد ياسر عرفات لاستلهام الوحي من تاريخه بأسمى معاني الصبر والصلابة والقوة والإرادة على مواصلة المسيرة النضالية، التي خطها مع القادة الذين أطلقوا الرصاصة الأولى من أجل فلسطين.

وألقيت كلمات أكدت على أن الشهيد ياسر عرفات لم يمت لأن الفكرة لا تموت، حتى لو حاولوا اغتيال الفكرة، مؤكدا أن «فتح» ستبقى على العهد مخلصة لشعبنا الفلسطيني ،والشهداء والجرحى والأسرى.

وأن الميدان سيتم إنجازه قبل نهاية العام الجاري من قبل بلدية سلفيت وحركة «فتح".

وسبق الفعالية مسير عسكري للشبيبة الثانوية، انطلق من مدرسة ذكور سلفيت الأساسية باتجاه مكان الفعالية.

جنين

أطلقت مديرية التربية والتعليم في قباطية جنوب جنين، يوم الخميس ٢٠٢١/١١/١١، فعاليات «أسبوع الوفاء والاستقلال»، وأحيت الذكرى السابعة عشرة لاستشهاد القائد الرمز ياسر عرفات في مدرسة بنات ميثلون الثانوية.

وحضر الفعاليات مساعدا محافظ جنين منصور السعدي وأحمد القسام، وممثلون عن بلدية ميثلون وحركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» إقليم جنين، واللجنة الشعبية لشؤون اللاجئين، ومدراء وممثلون عن العديد من المؤسسات المدنية والأهلية والأمنية، واتحاد المعلمين ومجلس أمهات الطالبات، ومدراء مدارس منطقة ميثلون التعليمية وعدد من موظفي مديرية التربية والتعليم في قباطية وأسرة مدرسة بنات ميثلون الثانوية.

ورفع المشاركون صور الرئيس الشهيد ياسر عرفات، ويافطات خُطت فوقها عبارات عكست روح الوفاء له، كما ارتدوا الكوفية الفلسطينية في إشارة اعتزاز بتاريخه النضالي.

وتخلل الفعاليات العديد من الكلمات والفقرات الفنية والوطنية، وافتتاح المعرض الوطني والتراثي والفني.

طولكرم:

تم إحياء الذكرى بمشاركة مدير عام المؤسسة د. أحمد صبح حيث افتتح معرض صور عن مراحل حياة الرئيس أبو عمار، وعرضت مسرحية هادفة عن محطات من عطاء الرئيس المؤسس.

وتجدر الإشارة إلى انّ وزارة التربية والتعليم بالتعاون مع مؤسسة ياسر عرفات قد وزعت على المدارس كافة من خلال مديريات التربية والتعليم نصا عن حياة الرئيس الراحل، وتم تخصيص الحصة الأولى عن الذكرى وأهميتها بالحفاظ على الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني.

خارج دولة فلسطين:

تم إحياء الذكرى في معظم السفارات الفلسطينية وتجمعات الجاليات الفلسطينية في أنحاء العالم بمهرجانات خطابية ومعارض صور وعروض أفلام عن حياة وعطاء الرئيس المؤسس، خاصة في تونس وفي المخيمات بلبنان، وكذلك الأمر في البحرين والعراق واسبانيا وكندا وروسيا وغيرها.